المركز القومى للترجمة

الحج إلى نجد

الجزء الثانى

تأليف : آن بلنت

ترجمة : صبرى محمد حسن

تقديم ومراجعة : رءوف عباس حامد

1129

المشروع القومى للترجمة

الحج إلى نجد

(الجزء الثانى)

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد: ١١٢٩
- الحج إلى نجد (الجزء الثانى)
- آن بلنت
- صبرى محمد حسن
- رءوف عباس حامد
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

A Pilgrimage to Nejd :

The Cradle of the Arab Race

A visit to the Court of the Arab Emir,

and "Our Persian Campaign"

By : Lady Anne Blunt

Volume II

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة

الحج إلى نجد

مهد العرق العربى

زيارة بلاط الأمير العربى ، " ورحلتنا الفارسية "

(الجزء الثانى)

تـــألـــيـــف : آن بـــلـــنـــت

ترجـــمـــة : صبرى محمد حسن

تقديم ومراجعة : رءوف عباس حامد

٢٠٠٧

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بلنت ، آن .

الحج إلى نجد: مهد العرق العربي: زيارة بلاط الأمير العربي ورحلتنا الفارسية/ بقلم آن بلنت ؛ ترجمة وتقديم : صبرى محمد حسن ؛ تقديم ومراجعة : رءوف عباس حامد . - (جـ ٢) - القاهرة : المركز القومي للترجمة ، ٢٠٠٨

٢٩٢ ص ، ٢٤ سم . - (المشروع القومي للترجمة)

١ - إيران - وصف ورحلات .

أ - حسن ، صبرى محمد (مترجم ومقدم) .

ب - حامد ، رءوف عباس (مقدم ومراجع) .

جـ - العنوان ٩١٥,٥

رقم الإيداع ١١٤٢٤ / ٢٠٠٧

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977-437-349-9

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز .

محتويات الجزء الثانى

الفصل الثانى عشر 11

الخيل النجدية – ندرة الخيل النجدية – سلالة ابن سعود – إسطبلات حائل – بعض الملحوظات عن أفراس بعينها – نقاط الرأس النجدية – القبائل فى النفود وخيولها – معنى المصطلح " نجدى " – وصفة للتدريب .

الفصل الثالث عشر 25

محمد يخسر رأسه – جولة على الحصان مع الأمير– قلعة الجبل فى عقدة – توديع حائل – الالتحاق بالحج الفارسى – أساليب الحجاج وسلوكياتهم – رجل دين من المدينة المنورة .

الفصل الرابع عشر 51

المضى بحثًا عن المغامرة – التيبية Taybetism – صيد ضبع – طريقة طهو الجراد – التصقر – أبيار (أسبلة) زبيدة – حكايات وأساطير –تطور مفاجئ ومثير يؤلف قصيدة .

الفصل الخامس عشر 73

مطلق بن عروق والكثيريين – خيولهم – تبنى القبيلة لنا – الحج مرة ثانية – عمبر يجمع الصدقات فى اجتما ع عام – مسيرة إجبارية طول مائة وسبعين ميلاً – خسارة جسيمة فى الإبل – النجف .

الفصل السادس عشر 97

أضرحة الشيعة – أمانة البدو – أسطورة برج بابل – بغداد – تفرق جماعتنا .

رحلتنا إلى فارس

الفصل الأول 107

خطط جديدة واستعدادات جديدة – مغادرة بغداد إلى بلاد فارس – اصطياد دب برى فى الوديان – حادث فظيع – ترحال بصحبة رجل متدين – مخيمات بنى لام – إنذار .

الفصل الثانى 131

سقوطنا فى أيدى اللصوص – غافل وسعدون – اللجوء إلى الدبلوماسية – مسيرنا عبر "الأرض الحرام"– مخاوف الليل – طلب الحماية من أمير فارسى .

الفصل الثالث 147

أمير فى المنفى _نقود الشاى – روافد على القرخة – آخر أحاديثنا مع بنى لام – كريم خان – بلاد فارس الجميلة – وصولنا إلى دزفول .

الفصل الرابع 159

مباهج حياة الحضر – بلاط الخان – رعاة من بيكتيارى – شوستار : قصورها ، نهرها وحديقتها – كاتب تلغراف .

الفصل الخامس 175

المرض والبؤس – حرس فارسى مرافق – رعايا الشاب العربى – رام هرمز وبلابلها –مسير ليلى – قرية مهجورة – طريقة تحصيل الضرائب فى بلاد فارس – بيباهان .

الفصل السادس 199

اندفاع أخير خلال الشمس – الوصول إلى ديلام على الخليج الفارسى – سياسة الخليج – رحلة "إلى المجاهل" – باشاير – النهاية .

الملاحق

ملاحظات على الجغرافيا الطبيعية لشمال الجزيرة العربية 211

موجز تاريخى عن قيام الوهابية وسقوطها فى الجزيرة العربية 231

مذكرة عن خط حديد وادى الفرات والمشاريع المتصلة بخطوط السكك الحديدية
بين البحر المتوسط والخليج الفارسى 253

قائمة صور الجزء الثانى

١– صورة السيد بلنت (بريشة مولونى) 271

٢– أفراس ابن الرشيد 272

٣– محمود بن الرشيد 273

٤– الحج يغادر حائل 274

٥– أكل الجراد 275

٦– أسبلة زبيدة 276

٧– الحجاج الفارسيون فى مقدمة الحاج 277

٨– مشهد على 278

٩– آريل فرس عنزية 279

١٠– كانورا 280

١١– شقران 281

١٢– سلسلة الجرانيت فى جبل الشمر (تأثير السراب) 282

١٣– قلعة العقدة 283

١٤– النقوش والرسوم الصخرية فى جبل الشمر 284

إهـــداء

أهدى هذين المجلدين إلى :

السير : هنرى كريزويك راولنسون

من المؤلفة

الفصل الثانى عشر

" لم أجد بينها الأشكال التى تمنيت
أن أراها فى ذلك الجزء من خيل زيد "

جوارمانى

الخيل النجدية – ندرة الخيل النجدية – سلالة ابن سعود – إسطبلات حائل – بعض الملاحظات على أفراس بعينها – نقاط الرأس النجدية – القبائل فى النفود وخيولها – معنى المصطلح "نجدى" – وصفة للتدريب .

وعدنا بكتابة فصل عن الخيول التى رأيناها فى حائل ، وها نحن نبر بوعدنا .

سلالة ابن الرشيد هى أكثر السلالات شهرة حالياً فى الجزيرة العربية، ومن حيث التقييم العام تحتل هذه السلالة مكانة سلالة فيصل بن سعود التى رآها السيد بلجريف قبل ستة عشر عاماً فى الرياض ، والتى وصفها فى فقرات تصويرية عدة ، أصبحت محطاً للاقتباس عنه بصورة مستمرة . سبب تحول هذه السيادة عن العارض إلى جبل شمر ، يكمن فى التغيرات السياسية التى حدثت اعتباراً من العام ١٨٦٥ الميلادى ، تلك التغيرات السياسية التى تولت زعامة وسط الجزيرة العربية وأخذتها من أيدى أولاد سعود لتضعها فى أيدى أمراء حائل .

محمد بن رشيد ليس فقط أقوى شيوخ البدو، بل هو أيضاً أغنى أمراء الجزيرة العربية ، ولهذا فإن لديه أفضل الوسائل التى تمكنه من اقتناء أفضل الخيول فى نجد ، فضلاً عن أنه لم يهمل هذه المسألة أيضاً .

امتلاك الخيل الأصيلة يكون دومًا رمزًا للقوة دائمًا بين العرب ، وعندما خسر آل سعود مكانتهم السامية فى نجد ، ضاعت معها سيطرتهم على السوق ، ثم أخذت سلالاتهم فى التناقص . وقد أدت المشاجرات التى نشبت بين الشقيقين عبد الله وسعود ، ولدى فيصل ، عقب وفاته ، وتبادل الانتصارات والفرار من العاصمة فيما بينهما ، وكذلك الدمار الذى جرّاه على نفسيهما من الأتراك ، كل ذلك أدى إلى إنهاء مؤسسة كانت المحافظة عليها تعتمد بالدرجة الأولى على الثروة والأمن ؛ والآن وفى ضوء الكلام السائد الآن ، يقال إن واحداً على عشرين فقط من السلالة القديمة هو المتبقى حاليًا فى الرياض . أما بقية السلالة فقد انتقلت إلى أيدى أفراد آخرين .

كانت سلالة خيل فيصل بن سعود هى الأفضل فى الجزيرة العربية فى ذلك الوقت، وربما لا تكون هناك فى الوقت الراهن مجموعة خيول أفضل من هذه المجموعة، لكن الفرضية التى مفادها أن هذه المجموعة لا تختلف فى أى شىء ، عن ذلك الذى رأيناه بأعيننا ، أو لأن هذه الحيوانات التى تتألف منها هذه المجموعة ، ما تزال مميزة عن تلكم الخيول التى تمتلكها القبائل المختلفة فى نجد ، هذه الفرضية لا تلقى دعمًا كبيرًا وليس لها ما يؤيدها . وقد أثبتت تحرياتنا (ونحن لم نألُ جهداً فى طرح الكثير من التساؤلات) ، أن من الخطأ افتراض أن الخيول التى يربيها أمراء الرياض كانت سلالة خاصة ، وأن هذه السلالة جرت المحافظة عليها فى مدن العارض منذ زمن بعيد، أو أن هذه الخيول تختلف بأى حال من الأحوال عن تلك الخيول التى تربى فى مناطق أخرى فى وسط الجزيرة العربية . كانوا متأكدين وكنا متأكدين أن المجموعة التى جرى تجميعها من قبائل مختلفة من النفود، هى فى واقع الأمر مجموعة جيدة جداً ، بلا أدنى شك ، ولكنها مع ذلك تظل مجرد مجموعة . كل البدو الذين سألناهم كانوا يضحكون منا للفكرة التى مفادها أن هناك سلالة نجدية خاصة ، وأنها لا توجد إلا فى العارض . وعندما كان الناس يجيبون على أسئلتنا كانوا يقولون : إنه فى زمن فيصل ، كان الرجل يوفد من الرياض مبعوثين بصفة مستمرة بحثًا عن الأفراس فى أى مكان ؛ وإن الأمير كان يقوم بغزو هذه القبيلة أو تلك، ولا هدف أو هم له سوى امتلاك حيوان بعينه،

أقصد سلالة بعينها . كانت قبيلة المطير(الذين يسمون الووشان فى بعض الأحيان) هى التى حصل منها فيصل بن سعود على أفضل السلالات وبخاصة الهمدانى سمرى، والكحيلان والكروش ؛ أما بنى خالد ، ظافر ، والشمر ، بل وحتى العنزة فقد أمدوه بين الحين والآخر ببعض الأنواع الأخرى . أما عبد الله بن سعود ، الذى خلفه لا يزال يحتفظ بقلة قليلة من هذه الخيول ، لكن القسم الأكبر من هذه المجموعة جرى توزيعه ، وراح القسم الأكبر من هذه الخيول إلى كل من متعب وبندر ، أى أولئك الذين جاءوا قبل محمد بن الرشيد . ومحمد بن الرشيد ، يسير على الخط نفسه ، فيما عدا أنه لا يأخذ الخيل عنوة من أصحابها وإنما يدفع ثمنها . هذا يعنى أن محمد بن رشيد يشترى الخيل من كل القبائل المحيطة به ، وعلى الرغم من أنه يقتنى الخيل ويربيها فى الحضر، فإن مجموعته يجرى جمعها من البادية. ولو لم يكن الحال على هذا المنوال ، لتدهورت المجموعة بلا أدنى شك ، وسبب ذلك أن الخيل التى تربى فى الحضر فى الجزيرة العربية ، لا تغذى جيداً ، ولا يجرى تدريبها بأى حال من الأحوال ، الأمر الذى يقلل من صلاحيتها إلى حد بعيد . هناك فكرة خاطئة مفادها أن الواحات التى من قبيل جبل شمر والعارض ، إنما هى أماكن تناسب تربية الخيول ، وأن الأرض الرملية الجرداء خالية من المرعى . لكن الحال على العكس من ذلك تماماً؛ لأن الواحات التى تقع فيها البلدان ، لا تنتج شيئًا سوى النخيل والحاصلات البستانية ، وليس فيها عود واحد من الحشائش ، أو حتى دغل واحد من أدغال مراعى الإبل فى المناطق المجاورة لتلك الواحات . أهل الحضر لا يربون من الحيوانات سوى عدد قليل من الإبل التى يستخدمونها فى تشغيل الأبيار ، كما يستعملونها فى الركوب فى بعض الأحيان . الحيوانات التى من هذا القبيل يجرى تغذيتها بالقمح أو التمر ، والأغنياء فقط هم القادرون على شراء هذين الصنفين من الغذاء . الخيول نوع من الترف يقتصر فقط على الأمراء ، وأثرى أثرياء المواطنين يسافرون من قرية إلى أخرى سيراً على الأقدام . أما الرحلات الأطول من ذلك فيجرى القيام بها عن طريق ركوب الإبل التى يجرى جلبها من الصحراء لهذا الغرض ، وهذه الإبل قد تكون مملوكة للبدو أو يحتفظون بها للمواطنين على أساس من الشراكة .

النفود على الجانب الأخر، غنية بالمراعى، الصالحة لكلٍ من الإبل والغنم والخيول ، وفى النفود يجرى تربية الإبل والغنم والخيول . وابن الرشيد يذهب فى فصل الربيع من كل عام ، إلى الصحراء ومعه القسم الأكبر من ماشيته ، ويترك هذه الماشية مع القبائل فترة من فصل الربيع ، ولا يبقى من هذه الماشية معه ، سوى قلة قليلة منها يجرى الاحتفاظ بها لاستعمالها فى المدينة . ويجب عدم الإصرار والإلحاح على الحقيقة التى مفادها أن هضبة نجد العليا ، التى توجد فيها المدن والقرى ، إنما هى أرض حجرية جرداء خالية من الغطاء النباتى ، وأن النفود هى التى تحتوى على مراعٍ وفيرة لا تنضب . الافتقار إلى الماء هو وحده الذى يحد من القيمة الرعوية لكل من النفود وهضبة نجد العالية ، والسبب فى ذلك أن المنطقة المأهولة بالسكان تكاد تكون مقصورة على نصف قطر مقداره عشرون أو ثلاثون ميلاً حول كل بئر من الأبيار ، والمعروف أن الأبيار نادرة فى نجد . هذه الحقائق ، فى رأيى ، لم تكن معروفة تمامًا حتى يمكن تقديرها حق قدرها .

فيما يتعلق بمجموعة ابن الرشيد فى حائل ، فقد زرناها وناظرناها ثلاث أو أربع مرات فى الإسطبلات ، وشاهدناها مرة واحدة وهى خارج الإسطبلات فى يوم من أيام الاحتفالات ، يقوم الناس فيه بجعل الحيوانات تبدو فى أبهى صورة لها . إسطبلات مكونة من أربعة أحواش مفتوحة متصلة ببعضها البعض ، تقف فيها الحيوانات مربوطة إلى معلف مربع الشكل مصنوع من الطوب اللبن . هذه الخيول ليست محمية بأى شكل من أشكال الحماية ، لكنها كلها ترتدى عرّاقات ثقيلة مثبتة إلى صدورها . وهذه الخيول مربوطة من رجل أو أكثر فى الأرض بواسطة سلسلة ، وليس لها مقاود على رؤوسها . ونظراً لأننا فى فصل الربيع ، ونظراً أيضًا لأنها غير مَعدّة أو مهيأة، فقد كانت فى أسوأ أحوالها ، وكما سبق أن قلنا إن أول انطباع لنا عن هذه المجموعة كان مخيباً للآمال. هذه الخيول عندما تكون فى حائل لا يجرى تدريبها بصورة منتظمة، بل إنها تبقى على امتداد أسابيع مربوطة إلى بعضها ، اللهم باستثناء دقائق معدودات فى فترة المساء ، عندما يقتادها الكلافون لكى ترد الماء . هذه الخيول يجرى تغذيتها

بالشعير الجاف . وفى فصل الربيع فقط ولمدة أسابيع قلائل ، يجرى إيفاد هذه الخيول لتأكل القمح الأخضر الذى يزرع خصيصاً لهذا الغرض ، ثم يجرى بعد ذلك أخذ هذه الخيول إلى النفود أو لاستعمالها فى الغزو، والغريب فى الأمر حقًا ، أن هذه الخيول تستطيع القيام بالأعمال المطلوبة منها فى مثل هذه الظروف .

الحوش الأول الذى يدخله المرء بعد دخوله من باب الإسطبل ، كان يحتوى عندما دخلنا إليه ، على ما بين خمسة وعشرين وثلاثين فرساً . أما الحوش الثانى ، فكان يحتوى على عشرين فرساً أخرى ، مجهزة تجهيزاً خاصاً تحسباً للضرورات ؛ ومع ذلك فإن هذه الأفراس العشرين لا تحصل إلا على القليل جداً من التدريب . وقوف هذه الأفراس مهملة فى الحوش وبلا تمشيط لشعرها ، هو الذى لا يضفى عليها المظهر الجميل الذى يتوقعه الإنسان ؛ وهذا يتطلب مقداراً كبيراً من الخيال كيما ينظر المرء للخيول باعتبارها من السلالات الفريدة فى الجزيرة العربية . لقد ارتكبنا خطأً شائعاً ، عندما حكمنا على الخيول من أحوالها ، لأننا بعد أن ركبنا هذه الخيول وبعد أن تحركنا بها تغير حكمنا على الفور .

وأنا فيما يلى أورد بعض الأوصاف لخيول بعينها ، وقد كتبت هذا الوصف بعد زيارة قمت بها إلى مجموعة الخيول فى الإسطبل ؛ هذا الوصف يعطى فكرة أفضل عن هذه الخيول ، بدلاً من الملحوظات العامة ، وجدت ما يلى ضمن الملحوظات التى دونتها حول هذا الموضوع :

" ١- فرس كحيلة القريش كستنائية (*) لها ثلاثة أرجل بيضاء (مطلقة اليمين) ، ١٤ قبضة ، أو ١٤,١ قبضة ، لكنها قوية جداً . رأس الفرس منبسط وأملس عن باقى الأفراس الأخرى هنا - هذا الرأس يمكن أن يحظى بالثناء فى إنجلترا- قليلة الدهون وضيقة إلى حد ما . لها عنق ثقيل جداً ، لكن كتفها جميل جداً ، أرجل شبيهة بالصلب ، الربع الخلفى خشن ، لها كثير من الشعر حول الكعبين . بارزة العظم إلى حد أن من

(*) كستنائى : اللون الكستنائى هو اللون البنى المائل إلى الحمرة . (المترجم)

يراها على معلفها ، أو عندما تتحرك والأمير على ظهرها ، لا يعجب بها . وهى الفرس المفضلة عند محمد بن الرشيد ، وهى من أنقى السلالات فى نجد . حصل ابن الرشيد على هذه السلالة من إسطبلات ابن سعود فى الرياض ، لكنها أصلاً من قبيلة المطير."

" ٢- فرس حمدانية سمرية كوميتية اللون، وهى أيضًا من مجموعة ابن سعود ، وهى جميلة الرأس . لكن ليس فيها مميزات أخرى . ملحوظة : هذه الفرس من نفس السلالة التى منها فرسنا شريفة ، لكنها أقل منها . "

" ٣- فرس شيفية صقلاوية رمادية اللون ، من يراها للوهلة الأولى يحسبها فرسًا عادية جدًا ، أرباعها واضحة المعالم ، ورأسها من النوع الشهير ، لكنها جميلة الكتف . هذه الفرس الشيفية الصقلاوية ذائعة الصيت هنا ، لها أهمية خاصة باعتبار أنها آخر فرس من هذه السلالة ، وهى الخلف الوحيد المنحدر عن الفرس الشهيرة التى اشتراها عباس باشا ، الذى أرسل عربة عجول من مصر لتقطع المسافة إلى نجد لإحضار تلك الفرس ، نظراً لكبر سن تلك الفرس وعجزها عن المشى على أقدامها . هذه القصة شهيرة هنا ، وقد حكاها الناس لنا هنا فى حائل مثلما سمعناها أيضًا فى الشمال ، وقد أضافوا إلى الحكاية أن هذه الفرس من أفراس ابن الرشيد هى الممثلة الوحيدة لهذه السلالة فى الجزيرة العربية . "

" ٤- كحيلة عجوز لونها كوميت غامق ، ١٤,٢ قبضة ، ولها قدم واحدة بيضاء ، رائعة فى كل شىء ، كتف مربعة ، صاحبة أجمل رأس وأوسع عيون بين الأفراس الموجودة هنا . حركتها مثالية ، الرأس والذيل شبه كاملين ، وتذكرنا بفرس بطيِّن بن مرشد، لكن رأسها أجمل من رأس فرس ابن بطيِّن. الفرس مملوكة لحمود ، الذى يتفاخر جدًا ويقول لنا إنها جاءت من جربة الشمر . وقد اندهشنا لوجود فرس من أفراس بلاد الرافدين هنا فى حائل ، لكن قيل لنا إن مسألة تبادل الخيول بين شمر الشمال وشمر الجنوب أمر نادر الحدوث . "

" ٥- فرس كحيلة عجوز لونها بنى غامق ، ليس فيها إشارات بيضاء سوى إشارة واحدة يقدر عرضها بحوالى بوصة واحدة وتقع فوق حافر من حوافرها ،

والفرس رأسها جميل وشكلها يوحى بالأصالة ، وطريقتها فى الجرى هى الأجمل بين الخيول الموجودة هنا ، على الرغم من أنها أقل قوة من فرس الأمير كستنائية اللون ، وفرس حمود كوميتية اللون ، ويصعب الاختيار من بين هذه الأفراس الثلاثة . "

" الفرس جدرا الصقلاوية (*) رمادية اللون ، مشتراة من ابن نديرى من قموصة العنزة ، وهى عبارة عن نوعية ضعيفة من هذه السلالة ؛ لكن البدو يحترمون هذه الفرس لأنها ذائعة الصيت هنا على الرغم من عدم وجود أفراس جردانية صقلاوية فى نجد فى الوقت الراهن. ومن الأهمية بمكان أن الناس يقدرون هنا هذه الفرس، والسبب فى ذلك أن الخيول العنزية تحظى باهتمام كبير فى نجد . ونحن عندما نعمل الفكر فى الخيول النجدية هنا نزداد قناعة بتفوق الخيول العنزية من حيث نقاط السرعة ، ونحن عندما نتباهى ، مثل سائر الناس هنا ، " بالخيل النجدى " ، يجىء ذلك اعترافًا منا بأن الخيول العنزية تتفوق من حيث النقاط المتعلقة بالسرعة . "

" أفراسنا العنزية ينظر الناس إليها بوصفها أعجوبة من حيث السرعة . "عندما نقارن هذا الذى نراه هنا بما رأيناه فى العام الماضى فى الشمال ، نجد أن أول ما يسترعى اهتمامنا هو أن هذه الخيول عبارة عن جياد سباق صغيرة ، أما تلك التى شاهدناها فى العام الماضى فهى أحصنة كبيرة . الفارق الفعلى فى الارتفاع ليس كبيرًا ، على الرغم من أن هذا الفارق قد يصل متوسطه إلى حوالى ثلاث بوصات ، نظرًا لأن شكل الجواد هو الذى يوحى بهذا الانطباع . الخيول النجدية قصيرة الأعناق والأجسام عن الخيول التى شاهدناها فى العام الماضى ، وتقف على مساحة من الأرض أصغر من المساحة التى تشغلها الخيول العنزية . وعليه ، وعلى الرغم من أن أكتاف الخيول التى نراها هنا ، هى أكتاف حسنة بلا شك ، وعلى الرغم أيضًا من أن كاثبات (كوامل) هذه الخيول أعلى مما نراه فى الشمال ، فإن عجيزة هذه الخيول

(*) يقال إن صقلاوية عباس باشا أنجبت مهرتين عندما كانت فى مصر ، وإن واحدة منهما نفقت ، وإن الثانية أعطيت للمرحوم ملك إيطاليا ؛ وإن الخلف الذى نتج عنها موجود فى حوزة الملك الحالى .

أقصر ، ولولا جمال أذيال هذه الخيول لافتقرت إلى ما يميزها . أرجل هذه الخيول جيدة للغاية ؛ لكننا لم نجد فى أى واحد من هذه الخيول ذلك الخط الرائع عند المفصل الأوسط فى الساق الخلفية للحصان ، والذى يتجلى بشكل واضح فى سلالات الخيل العنزية . من حيث الأقدام ، يصعب علينا الحكم على هذه الخيول ، والسبب فى ذلك أن خيول الأمير بسبب الوقوف الطويل وعدم التدريب ، تطول حوافرها أكثر من اللازم . يزاد على ذلك أن أعراف وذيول هذه الخيول أكثف مما كنا نتصور .

" خيول الأمير تتفوق من حيث الرأس على خيول العنزة ، وبخاصة ما يتعلق بالنقاط التى تعجب العرب ؛ وقد اندهشت أنا وولفريد فور مشاهدتنا لذلك الفارق . "

أنا على يقين تماماً أن أفراداً قليلين خارج الجزيرة العربية هم الذين لديهم فكرة عن ذلك الذى يعد نقاطاً مهمة فى رأس الحصان ، ولذلك سوف أورد هنا وصفاً لهذه النقاط :

أولاً ، يتعين أن يكون رأس الحصان كبيراً وليس صغيراً . والعرب لا يبتغون الرأس الصغير ، لكن كبر حجم الرأس يجب أن يكون فى المناطق العليا من الجمجمة . ويجب أن تكون هناك مسافة كبيرة بين الأذنين والعينين ، وأن تكون المسافة كبيرة بين العينين ، ولا يجب أن تكون المسافة كبيرة بين الأذنين . يزاد على ذلك ، أن جبهة الفرس أو بالأحرى الحصان ، هى والمنطقة الواقعة بين وأسفل العينين مباشرة ، يتعين أن تكون مقعّرة والعينان ثابتتان . لكن ينبغى ألا يكون حول العينين أية ترهلات لحمية تفسد بروزها ، وأن تكون عظام هذه المنطقة حادة الأطراف ؛ والعرب لا يستلطفون الجبهة المسطحة فى الخيول. والمنطقة المحيطة بالعينين يجب أن تكون خالية من الشعر، لكى تكشف عن البشرة السوداء الموجودة أسفلها ، والمسافة المحيطة بالعينين يجب أن تكون سوداء وبرّاقة ، عظمة الخد يجب أن تكون عميقة ومائلة ، كما يجب أن تكون عظمة الفك واضحة المعالم . بعد ذلك يجب أن يكون وجه الحصان ضيقاً وينتهى إلى نقطة فى الأسفل، وليست مثل المنطقة التى ينتهى إليها وجه حصان السباق الإنجليزى، الذى يبدو وجهه كأنه ينتهى بفتحة الأنف ، وإنما ينتهى إلى نقطة عند طرف شفة

الحصان . أضف إلى ذلك أن فتحة الأنف عند ارتخائها يجب أن تكون مستوية مع الوجه ، بحيث لا تعدو أن تكون مجرد شق طويل ، وأن تكون متجعدة ومرتفعة إلى الأعلى ، كما ينبغى أن يكون فم الحصان على هذه الشاكلة نفسها ، أى أن تكون شفة الحصان السفلى أطول من شفته العليا ، أى " مثل شفة الجمل " على حد قول البدو . الأذنان فى الفرس يجب أن تكونا طويلتين ، وجميلتين جمال آذان الغزال . "

وهنا يتعين علىّ أن أسوق الملحوظة التى مفادها أن العرب فى حكمهم على الخيل يولون الرأس والذيل اهتمامًا كبيرًا، لأن العرب يعتقدون أنهم عن طريق الاهتمام بالرأس والذيل ، يتمكنون من اكتشاف العلامات المؤكدة لسلالة الحصان . أذيال الخيول النجدية عجيبة مثل رؤوسها ، وهذه الأذيال ضرورية لجمال هذه الخيول . ومع ذلك هناك نقاط اختلاف أخرى ، إذ إن كل حصان من الخيول التى فى حائل له ذيل مثيل لذيل الحصان النجدى ، وأن هذا الذيل فى وقت الراحة يكون مثل ذيل الحصان الهزاز ، وليس كما وصفه الناس من قبل على أنه " مفرود على شكل عقد كامل . " أثناء الحركة يرتفع الذيل إلى أعلى فى الهواء ، ويبدو كما لو كان لن ينخفض تحت أى ظرف من الظروف. أعلن محمد بن عروق أن هذه الظاهرة ، ربما تكون فى أضعف الأحوال مجرد تأثير من التأثيرات الفنية . ولقد أكد لنا محمد بن عروق أن المهر قبل أن يبلغ ساعة واحدة من العمر يجرى ثنى ذيله للخلف على عصا ، وبذلك تسفر عملية الثنى عن نتيجة إيجابية . لكن هذه العملية غير محتملة ، ومن الصعوبة بمكان أن تؤثر على قوام الذيل أثناء عدو الحصان .

فيما يتعلق بلون الخيول المئة التى فى إسطبلات حائل ، يوجد حوالى أربعين حصانًا رمادى اللون أو بالأحرى أبيض ، وثلاثين حصانًا لونها كوميت ، وعشرين حصانًا كستنائى اللون ، أما بقية الخيول فلونها مائل إلى السمرة ، أو خيول ملونة بلونين ، أو خيول شهباء نظرًا لأن هذه ليست ألوانًا عربية . سألنى الأمير فى يوم من الأيام عن الألوان التى نفضلها فى إنجلترا ، وعندما قلنا له اللونين ، الكوميت أو الكستنائى وافقنا تمامًا على ما قلناه - العرب كلهم على وجه التقريب ، يفضلون اللون الكوميت المشوب ببقع سوداء ، على الرغم من أنهم يفضلون أيضًا اللون الأبيض

الناصع مع الجلد شديد السواد والحوافر شديدة السواد أيضًا فى اللون الكوميت أو الكستنائى نجد أن ثلاث أقدام تكون بيضاء ، فى حين تكون الرجل الأمامية الخارجية داكنة ، وهذه أشياء لا اعتراض عليها . لكن ، المسلم به ، أن اللون لا يُعَوَّل عليه كثيراً فى حائل ، وسبب ذلك كما هو الحال فى سائر أنحاء الجزيرة العربية ، أن السلالة الأصلية هى الكل فى الكل .

" تحتوى حظائر ابن الرشيد على ما يقرب من ثلاثين فلواً؛ وهذه الأفلاه (*) عبارة عن مخلوقات صغيرة جميلة لكنها بائسة وتكاد تموت جوعًا ؛ هذا بالإضافة إلى الخيول الكبيرة . الأفلاه التى تولد فى الصحراء تكون مسكينة تمامًا أما تلك التى تولد فى الحضر فمظهرها يوحى بأنها عليلة وضعيفة . هذه المخلوقات الضعيفة إذا ما ربطت من أرجلها طول اليوم ، فإنها تبدو كما لو كانت فقدت شجاعتها ، وبالتالى لا تكشف عن شىء من شقاوة أعمارها فى مثل السن . هذا يعنى أن ألفة واستئناس هذه الحيوانات ، شأنها شأن " الطير والبهائم " ، تصدم كل من يراها أو ينظر إليها . يقول لنا الأمير : إنه يرسل فى فصل الربيع من كل عام أربعين فلواً إلى الكويت على الخليج الفارسى ، فى حراسة واحد من عبيده ، ليقوم ببيع هذه الأفلاه فى بومباى ، فى الهند نظير مائة جنيه إنجليزى لكل فلو. واقع الأمر أن هذه الأفلاه هى الآن فى أسوأ أحوالها أو بالأحرى عمرها ، لكنها مع ذلك يراودها أمل مرتقب برعى لمدة أسابيع قلائل فى صحراء النفود قبل أن تظهر فى السوق . "

" على العموم كلانا محبط وخائب الأمل جراء ذلك الذى نراه هنا فى حائل . من بين كل الأفراس التى فى إسطبلات الأمير ، لا أعتقد أن أكثر من ثلاثة أو أربعة من هذه الخيول هى التى يمكن أن تكون مميزة بين خيول القموصة ، ونحن منزعجون إلى حد ما ، مخافة أن يطلب الأمير إلينا استبدال فرسنا الكستنائية راس Ras القيداوى El - kedawi ، التى تحظى بإعجاب الجميع – لو فعل الأمير ذلك ، فلن يكون أمامنا مجال للرفض أو عدم الموافقة . "

(*) الأفلاه : واحدها فلو وهو المهر يفطم أو يبلغ السنة. (المترجم)

فيما يتصل بالخيول النجدية بشكل عام أجدني أورد الملحوظات التالية فى ضوء ذلك الذى سمعناه ورأيناه فى حائل ، وفى أماكن أخرى من الجزيرة العربية .

أولاً ، وبغض النظر عن ما كانت عليه الأحوال من قبل ، نحن نرى أن الخيول على اختلاف أنواعها جد نادرة فى نجد فى الوقت الراهن . والإنسان يمكن أن يقطع مسافات طويلة ، ويعبر مناطق شاسعة دون أن يرى حصانًا واحدًا فى شبه الجزيرة ، أو حتى آثار أقدام الخيل . ونحن عندما كنا فى النفود وخلال رحلة عودتنا إلى بلاد الفرات حرصنا على فحص ودراسة آثار أقدام الإنسان والحيوان التى مررنا بها أو صادفتنا ؛ لكننا منذ مغادرتنا لمخيم الروالة إلى أن وصلنا مشهد على ، لم يزد عدد آثار أقدام الخيول التى صادفناها على عشرين أثرًا . صحيح أن الرياح تمحو آثار الأقدام بسرعة ، لكنها لا يمكن أن تمحو تلك الآثار محوًا تامًا ، فى حال وجود عدد كبير من الحيوانات بجوار بعضها البعض . قال لنا الكثيريون، وهى قبيلة نجدية كبيرة تعد فرعًا من بنى خالد ، بشىء من التباهى إن بوسعهم تجهيز مائة خيال ، فى حين أن المطير ، الذين يذيع صيتهم فى تربية سلالات الخيل الأصلية لا يمتلكون سوى أربعمائة فرس فقط . الحصان مظهر من مظاهر الترف والأبهة عند بدو شبه جزيرة العرب ، ولا يعد الحصان ، كما هو الحال فى شبه الجزيرة العربية ، ضرورة من ضرورات الحياة. والبدو يقومون برحلاتهم وغزواتهم باستعمال الإبل ، وليس الخيل ؛ وفى أغلب الأحيان لا يمتطى الشيخ صهوة فرسه، إلا فى حال الحرب والمعارك والقتال. وشح الماء فى نجد سبب كاف لذلك . هذا يعنى أن الخيول يربيها الناس فى نجد للاستعراض وليس للاستعمال ، وينظر الناس إليها باعتبارها شيئًا ثمينًا يصعب الدخول به فى مخاطرات غير محسوبة أو ضرورية .

ثانيًا ، إن الخيول التى فى نجد تربى فى النفود . الهضاب الحجرية الداخلية ليس فيها مراعٍ مناسبة ، اللهم باستثناء قلة قليلة من الأماكن ، فى حين أن النفود يتوفر العشب فيها أخضر وجافًا طوال العام . والمطير وبنو خالد ، وظافر، وكذلك الشمر ، هم المربون الرئيسيون للخيول فى نجد ، لكن العنزة ينظر إليهم باعتبارهم أن لديهم

أفضل سلالات الخيول ، والمعروف أن العنزة اختفوا من نجد . والمعروف أن العنزة بدءوا يهاجرون إلى الشمال منذ حوالى مائة عام ، وواصل العنزة تحركهم عن طريق النزوح المتتالى إلى أن هجروا كلهم مواطنهم الأصلية . وقد تكون السمعة الذائعة لخيول نجد فى الشرق راجعة أصلاً إلى هؤلاء العنزة أنفسهم وهم الذين يجرى حاليًا مقارنة الخيول الأخرى بخيولهم . استقر عنزة البشْر فى المنطقة المجاورة لخيبر ، على الحافة الغربية للنفود ، أما الروالة فقد استوطنوا جنوبى الجوف ، أما العمرات فقد استوطنوا أقصى الشرق . هؤلاء القوم هم الذين كانوا يُوَردون الخيول النجدية فى الأزمان السابقة إلى الشام ، وبغداد ، وبلاد فارس ، يضاف إلى ذلك أن بعض أفخاذ هذه القبيلة ربما تكون أخذت طريقها إلى أقصى الجنوب ؛ وسبب ذلك أن أبناء سعود أنفسهم من العنزة. وهذا هو ما يجعلنا نرجح ، كما هو الحال الآن ، أن أفضل سلالات الخيل كانت فى أيدى العنزة . والعنزة إلى يومنا هذا يميزون خلف الأفراس التى أحضروها معهم من نجد بأنها " نجدية " ، فى حين يطلق العنزة على الخيول التى يستولون عليها من الشمال اسم " شمالى " .

يبدو أن إدارة الخيل وتدريبها تختلف فى نجد بعض الشيء عنها فى الأماكن الأخرى بين العرب . لكننا اندهشنا عندما وجدنا اللجام يستخدم فى حائل بدلاً من المقود (الحكمة) البدوى . فى بداية الأمر حسبنا ذلك نوعًا من محاكاة التصرفات التركية ؛ لكن الأرجح هو أن ذلك تقليد قديم عند العرب الحضر . واقع الأمر أن بدو الصحراء ، لا يقلون عن الأتراك ، فى استعمال اللجام الحلقى ، الذى هو أولاً وقبل كل شيء من اختراع الجزيرة العربية . وعلى الرغم من الأضرار الذى يلحقها ذلك اللجام بفم الحصان أو الفرس فهو يعد حقيقة مؤكدة فى ركوب الخيل ركوبًا استعراضيًا فى حائل ، كما يعد اللجام ضرورة أيضًا فى لعبة الجريد وفى القتال المزاحى . والمقود (الحكمة) لا تستعمل إلا عند بدو نجد وحدهم .

لم نسمع أى شيء عن سباق الخيل . اختبار سرعة الخيل ليس معروفًا هنا ، مثلما كان من قبل ، كما أن مهارة الاستدارة والازدواج هما المهارتان المعروفتان هنا.

الوصفة التاليه التى أعطانا إياها بعض الناس تثبت وجود بعض الموروثات الخاصة بالتدريب . هذه الوصفة جاءت ردًا على وصفنا لسباق الخيل وخيول السباق ، بل إن هذه الوصفة تثبت وجود ممارسة تقليدية فى الجزيرة العربية ، وأن هذه الممارسة يرجع تاريخها إلى أيام محمد ﷺ .

الوصفة العربية لتربية الأفلاء :

قال الراوى : " إذا أردت لجوادك أن يكون أسرع من رفاقه ، فيجب ألا تغيب عنك القواعد التالية :-

" دع الفلو خلال الشهر الأول من مولده ينعم بحليب أمه ، وسيكفيه ذلك الحليب . بعد ذلك وعلى امتداد خمسة أشهر أضف لبن الماعز إلى غذائه الطبيعى ، وبالكمية التى يرضاها أو يقوى على شربها . ولمدة ستة أشهر بعد ذلك أطعمه لبن النياق ، ومعه كمية من حبوب القمح المنقوعة فى الماء مدة ربع ساعة ، على أن تقدم فى مخلة .

" عندما يبلغ الفلو من العمر عامًا واحدًا يكون قد اكتفى من الحليب ، وهنا يجب أن يتغذى على القمح والعشب الأخضر إن وجد .

" إذا ما بلغ المهر من العمر عامين تعين تشغيله وإلا أصبح عديم النفع . أطعمه فى هذه السن مثل الحصان البالغ ، وغذه بالشعير ؛ لكن فى فصل الصيف يجب أن تطعمه عصيدة الشعير الخفيفة عند الظهر . ويمكن عمل هذه العصيدة الخفيفة على النحو التالى : حفنتان من الدقيق ، واخلطهما بشىء من الماء خلطًا جيدًا إلى أن يصبح الماء شبيهًا بالحليب ؛ انخل أو غربل المخلوط بعد ذلك حتى يمكن التخلص من حثالة الشعير ، ثم قدم السائل للمهر كى يشربه .

احرص منذ مولد الفلو على أن تُعَرِّضه لأشعة الشمس ؛ والمعروف أن الظل يؤذى الخيل ، واسقه كمية وفيرة من الماء عندما تشتد حرارة النهار .

عند هذا الحد يجب البدء فى ركوب الجواد ، وأن يصحبه صاحبه معه إلى كل مكان يذهب إليه ، حتى يتمكن الجواد من رؤية الأشياء كلها ويتعلم الشجاعة . ويجب المداومة على تدريب الحصان ، ولا تتركه فترة طويلة فى معلفه . ويتحتم ركوبه والقيام ببعض الرحلات ، نظراً لأن العمل سيقوى أطرافه .

" عندما يبلغ الحصان من العمر ثلاثة أعوام ، ينبغى تعليمه الجرى . بعد ذلك ، إذا ما كان الجواد أصيلاً ، فسوف لا تتركه أبداً . !

الفصل الثالث عشر

" كانت بابل صندوق صيد النمرود ،

ثم مدينة حدائق ، أسوار ، وثروة مدهشة ،

حيث نبوخذ نصر ، ملك الرجال ،

حكم إلى أن جاء يوم من أيام الصيف فأخذه لها المرعى . "

بيرون

«.... ما أتعسه

ذلك الرجل المسكين الذى يعيش على أفضال الأمراء "

شكسبير

محمد يخسر رأسه – جولة على الحصان مع الأمير – قلعة الجبل فى عقدة – توديع لحائل – الالتحاق بالحج الفارسى – أساليب الحجاج وسلوكياتهم – رجل دين من المدينة المنورة .

سبق أن أشرت إلى نوع من الحيرة والغموض الذى أحاط بنا بعد أيام قلائل من وصولنا إلى حائل ، والذى تسبب فى ذات الوقت ، فى كثير من القلق . ويكمن أصل ذلك الغموض وتلك الحيرة فى تصرف طفولى ارتكبه محمد ، الذى دار رأسه تمامًا بفعل استقبال الأمير له استقبالاً أنيقًا باعتباره واحدًا من أبناء العروق ، وأيضًا بسبب التدليل الذى لقيه منا . وأنا إلى يومنا هذا لم أسمع شيئًا عما حدث ، ولذلك أتحاشى

الدخول فى تفاصيل الموضوع ؛ لكن على حد علمنا ، ربما يكون غرور محمد وتباهيه قد حملاه على تعظيم موقفه ومركزه فى عيون بلاط ابن الرشيد ، عن طريق أخذ أشخاصٍ فى رعايته وحمايته ، وأننا كنا نعتمد عليه بصورة أو بأخرى ؛ كان يتفاخر ، بأن الإبل ، والخيول ، والمقتنيات الأخرى كانت كلها ملكًا له ، وأن الخدم كانوا من رجاله . هذا التصرف يمكن أن يمر مر الكرام وبلا مضاعفات فى ظل الظروف العادية ، وكان يمكن ألا نعتبره تعظيماً للذات على حسابنا ، من باب إدراكنا أن نجاحنا فى رحلتنا اعتمد على إخلاص محمد وولائه لنا . لكن من سوء الطالع أن الدور الثانوى الذى أسنده إلينا بتصرفه هذا ، لم يؤد فقط إلى إضفاء شيء من الحرج على علاقتنا مع الأمير ، وإنما أنزل الكثير من الخطر على هذه العلاقات . فى بداية الأمر كان استقبالنا وديًا إلى حد أننا ، وجدنا أنفسنا بعد أربعة أيام فى حائل ، نحس بأننا لم نعد نحظى بالاهتمام السابق الذى أولانا الأمير إياه مع بداية وصولنا . كما توقفت أيضًا هدايا العيد ، وتوقف أيضًا الطلى (الخروف) الذى كان يمثل غداءنا كل يوم ، وجرى استبداله بلحم الإبل ، وبدلاً من إرسال جنديين لمرافقتنا إلى القصر ، كان يأتى إلينا صبى صغير من العبيد ليحمل لنا الرسائل . وفى اليوم الخامس من وصولنا لم يدعنا إلى الحفل المسائى ، وفى اليوم السادس ، وعندما كان ولفريد يزور القصر ، قيل له بأدب جم الأمير ليس موجوداً فى القصر . لم يكن بوسعنا تخيل أسباب ذلك كله ، بل إن محمد بكل تهلله وانشراح صدره أصبح يستشعر القلق والحرج ، واقتصر وجوده على المنطقة الخارجية مع الخدم . أما حنا المخلص فقد راح يُلَمِّح إلى أن الأمور ليست على ما يرام ، يضاف إلى ذلك أن عبد الله هو وبقية الخدم المسلمين أصبحوا غير راغبين فى القيام بمهامهم وأعمالهم . وهنا خطر ببالنا أننا بين وهابيين متشددين ، وهذا بدوره زاد من انزعاجنا إلى حد بعيد . ومع ذلك كنا بعيدين عن معرفة السبب الحقيقى لذلك التغيير ، واستمر ذلك إلى أن مضى أسبوع على وجودنا فى حائل ، وعندما تصادف أن التقى ولفريد مبارك كبير عبيد الأمير ، ليعرف منه حقيقة الأمور . لا جدوى من الغضب ؛ واقع الأمر أن سلوك محمد وتصرفاته كانت تصرفات طفولية أكثر منها خائنة أو خالية من الولاء ، وأن النهاية التى آلت إليها الأمور كان يمكن

التغاضى عنها فيما عدا أنها تعد مثالاً على السلوكيات العربية وطريقة التفكير ، فضلاً عن توضيحها أيضًا للأسباب التى أدت إلى تقصير مقامنا فى حائل عما انتويناه ؛ كما توضح أيضًا أسباب عدم ذهابنا إلى القصيم ، وانضمامنا إلى الحج الفارسى الذى كان فى طريقه إلى مشهد على .

لم يقف الأمر عند هذا الحد بطبيعة الحال ، إذ قام ولفريد عقب عودته من لقاء مبارك ، بتوبيخ وتعنيف محمد على حماقته ، ثم أرسل إلى القصر بعد ذلك فى طلب مفرّج ، رئيس التشريفات ، وهو نفسه الرجل كبير السن المحترم الذى استقبلنا عند وصولنا إلى حائل ، وبعد أن شرح ولفريد الظروف كلها لذلك الرجل رجاه أن يشرح ذلك كله ويفسره للأمير . ووعد الرجل كبير السن ، أن يقوم بما طلب منه ، وأنا لم يخامرنى أى شك فى التزام ذلك الرجل ، بوعده الذى قطعه على نفسه ، إذ تم فى نفس الليلة استدعاؤنا إلى القصر ، وجرى استقبالنا بنفس الود السابق . وأعتقد أن عدم الدخول فى المزيد من الشروح والتفسيرات كان فى مصلحة الترتيبات الخاصة بالبلاط الأميرى فى حائل . وعلى الرغم من وضع محمد فى حجمه الصحيح ، فقد كان يجرى استقباله بكل أدب واحترام ، يضاف إلى ذلك أن زيادة حركة الاهتمامات التى تنم عن المحبة جعلتنا نتذكر أننا لم يكن لدينا أسباب تدعونا إلى الشكوى . وفيما يتصل بمحمد يتعين علىّ القول : إنه بعد أن تبخرت روائح غروره ، ضاع من قلبه كل الحسد وكل الحقد على كل ما اضطررنا إلى عمله ، وتحول محمد مرة ثانية إلى ذلك الصديق المحبوب ، والخدوم والمطيع . معروف أن حدة الطبع ليست نقيصة عربية . ومع ذلك بقى ذلك الحادث بمثابة درس تعلمناه وإنذار وتحذير لنا ، درس مفاده أننا مازلنا أوربيين بين آسيويين ، وإنذار وتحذير من أن حائل كانت عرينًا للأسد ، على الرغم من أننا كنا أصدقاء لذلك الأسد . وهنا بدأنا نرسم خططنا للمضى قدمًا فى رحلتنا .

أنا لم أقل حتى الآن شيئًا كثيراً عن الحج الفارسى الذى كان مخيمًا خارج أسوار حائل، والذى أصبح ملمحًا رئيسيًا أمام أعين كل من يمرون على المكان. على كل حال ، أرسل لنا الأمير فى يوم الثلاثاء على وجه التحديد رسالة تفيد أنه ينتظر وصولنا

راكبين لكى نرافقه ، وأنه سوف يلقانا عند البوابة التى يخيم أمامها الحج الفارسى . كان ذلك يومًا حظيظًا عندنا ، لا لأننا رأينا الحجاج ، وإنما لأننا رأينا ذلك الذى قطعنا من أجله هذه الرحلة الطويلة ، وكنا قد يئسنا لأننا لن نستطيع رؤية ذلك الشيء - ألا وهو أفضل خيول الأمير وهى تغدو وتجرى فى الخلاء . انشرح صدرنا لتلك الفرصة التى تهيأت لنا ، وعجّلنا فى استعدادنا . وفى خلال نصف ساعة كنا على فرسينا ، فى الشارع . كان هناك جمع كبير من الناس يتحركون فى اتجاه المخيم وخارج المدينة شاهدنا موكب الأمير . وانشغل فكرى على الفور بذلك الموكب ، نظراً لأنى لم يسبق لى رؤية خيول حائل أثناء الركوب . كان الأمير يرتدى لبسًا رائعًا وحافى القدمين ، ويركب فرسًا جميلة بيضاء صغيرة الحجم فى حين كان هناك عبد يتبعه راكبًا الفرس قرشية كستنائية اللون .

كان أصدقاؤنا كلهم منضمين إلى ذلك الموكب : حمود وماجد وصبيّان من أبناء إخوان الأمير، كما كان هناك صبى صغير آخر قدموه لنا بوصفه واحداً من أبناء متعب، الأمير الراحل ؛ كان الجميع فى روح معنوية عالية ويتطلعون إلى استعراض خيولهم وفروسيتهم ؛ فى حين كان يسير خلف الأمير ، وتحت رعايته الخاصة ، ذلك الشاب صاحب التاريخ المأساوى ؛ هذا الشاب هو نايف ، الابن الوحيد المتبقى من أبناء طلال ، الذى قام محمد بن الرشيد بقتل كل أشقائه ، والذى يتهامس الناس بأنه سوف يثأر لموتهم فى يوم من الأيام . كان مبارك ، ذلك العبد الأبيض ، من ضمن الموكب أيضًا ، مبارك هذا كان مجرد عبد بالاسم فقط ، لأنه شديد الشبه بالأسرة الأميرية وهو واحد من أغنى وأهم شخصيات حائل . كانت بقية الموكب مكونة من أصدقاء وخدم سُمْر الوجوه ، ويلبسون أبهى ملابسهم ويركبون أفراس الأمير . أما حمود فكان يبدو متميزاً فوق فرسه الجميلة كوميتية اللون ، وهو الذى شرّفنا ، وكان يشير لنا بيديه شارحًا لنا مختلف الأشخاص والأشياء التى كنا نراها . كان ذلك الصباح ، واحداً من تلك الصباحات التى لا يراها الإنسان إلا فى نجد وحدها ، كان الجو رائعًا ومتلألئًا على النحو الذى يذكرنا بأوروبا ، ويولد داخلنا إحساسًا بالحياة ،

مثلما تصورنا فى طفولتنا ، كما يولِّد داخلنا أيضًا الرغبة فى الصياح . كانت السماء شديدة الزرقة ، وكانت التلال التى أمامنا تبدو كأنها منحوتة من حجر الزعفران الأزرق الياقوتى ، فى حين كان السهل مستويًا مثل طاولة البلياردو ، ويصعد صعوداً هينًا فى اتجاه السماء والتلال . على أحد الجانبين كنا نشاهد الأسوار ذى الأبراج ، كما كنا نشاهد أيضًا أبراج حائل نفسها ، التى يبرز القصر من بينها من بين كتلة من النخيل الداكن اللون الذى يكاد يكون أسود فى ضوء الشمس ؛ وعلى الجانب الأخر ، شاهدنا مخيم الحجاج ، الذى على شكل مجموعة من الخيام متعددة الألوان : الأزرق ، والأخضر ، والأحمر ، والأبيض ، فى حين كان الحجاج أنفسهم يشكلون جمهورًا داكن اللون ، يراقب بعيون مترقبة وشبه خائفة ذلك العرض غير المنظم الذى كنا جزءًا منه .

يُصْدِرُ الأمير فجأة إشارة التحرك ، والاتجاه صوب الجنوب الغربى ، وهنا تحركت جماعتنا فى كتلة من النخيل كنا نراها على بعد مسافة تقدر بحوالى ميلين . بعد ذلك أطلق حمود العنان لفرسه وراح يجرى بها ، وراح أفراد الجماعة الواحد بعد الآخر ، يلحقون به فى قتال خداعى أو وهمى، إذ كان الجميع يعدون، وينطون وينثنون ، ثم يعودون للأمير ، الذى بقى وحده معنا ، وكانوا يصيحون كما لو كانوا يريدون إسماع صوتهم إلى السماء . أخيراً لم يطق الأمير الانتظار أكثر من ذلك وأمسك بجريدة واحد من العبيد ، وانطلق هو الأخر مع الآخرين . وإن هى إلا لحظة ، حتى نسى بعدها الأمير ، وقاره ، وسلوكياته الحضارية ، وعاد إلى بداوته من جديد ، تلك البداوة التى هو عليها هو وعائلته إلى يومنا هذا . طارت كوفيته الحرير ساقطة إلى الخلف منه ، وأصبح عارى الرأس وراحت جدائل شعره البدوية تهفهف فى الهواء ، وهو حافى القدمين ، وعارى الذراعين ، وراح يعدو بفرسه هنا وهناك ؛ وراح يطعن طعنًا وهميًا فى الجمع الغفير ، ويطارد ، ويطارَد ، ويصيح كما لو كان غير عابئ بأى شىء ، أو يرتكب أى جرم فى حياته .

وجدنا أنفسنا وحيدين مع شخص غريب صغير الحجم ، سبق أن رأيناه يقف إلى جانب الأمير ، واتضح أنه لا ناقة له ولا جمل مثلنا فى تلك التسلية الرائعة التى تجرى

أمامنا . كنت أتمنى ألا يكون مثله مدعاة للسخرية والاستهزاء . كان ذلك الرجل يركب فرسًا كديشًا صغيرة الحجم ، ويرتدى ثيابًا من طراز الثياب التى كان الأطفال البريطانيون يرتدونها قبل خمسين عامًا، كما كان يرتدى صدرية ، لها ثنيات من أعلى، وبنطالاً قصيراً يصل إلى ركبتيه ، كما كان يلبس شبشبًا فى قدميه ، ويضع غطاء رأس بنى اللون على رأسه ، وكان وجه الرجل مستديراً وحليقًا ، كان ذلك الذى يجلس شبيهًا بصبى كبير، لكنه فى واقع الأمر كان شخصية رئيسية من بين الحجاج الفرس. هذا الشخص اسمه على كولى خان ، ولد خان بكتيارى العظيم ، الذى كان يلقى من الأمير أكرم معاملة ، إكرامًا لخاطر والده . كان على كولى هو وبقية الحجاج ، فى طريق عودته من مكة ، وأن الموكب الحالى جرى تنظيمه لإحداث أثر فى نفسه عن عظمة الأمير وأبهته .

لم نبق وحدنا فترة طويلة ، وإن هى إلا دقائق معدودات ، حتى توقف العدو بعدها ، ورحنا بعد ذلك نمشى فى وقار مثلما كنا من قبل لنصل فى الوقت المناسب إلى النخيل ، الذى اتضح أنه من ممتلكات الأمير ، وأن ذلك النخيل كان ضمن حديقة يحيط بها سور عال . وهنا دعينا للنزول من فوق دوابنا وكان قد جرى فرد سجادة تحت الأشجار ، وجلسنا جميعًا على الأرض . وسرعان ما قام العبيد بتقديم غداء من المُسَكَّرات ، وطلب إلى الصبية تسلق الأشجار ، أشجار الليمون ، وراحوا يهزون الأشجار لإسقاط الثمار ، وجرى صب القهوة وتوزيعها على الحاضرين ثم قامت الجماعة بأداء الصلاة فيما عدا ولفريد وأنا وكذلك الرجل الفارسى ، الذى لم يصلِّ معهم بحكم أنه شيعى ، ثم ركبنا دوابنا وعدنا إلى المنزل . لكننا فى هذه المرة شاركنا فى عملية العدو ، التى سرعان ما بدأت بين الخيول ، وتمتعت فرستانا تمامًا بهذه الرياضة ، وهكذا عدنا إلى حائل بهذه الطريقة .

فى اليوم التالى زار ولفريد هو ومحمد على كولى فى خيمته ؛ وكان محمد قد تحول من جديد إلى رفيق وتابع معقول . الواقع أن مزاعم محمد عن النبالة من جانبه جرى ضربها بعرض الحائط فى المخيم الفارسى ، وسبب ذلك أن الفرس لا يعيرون

النبالة العربية اهتماماً ولا يولونها بالاً ؛ بل إنهم يعاملون الجميع على قدم المساواة من منطلق أنهم جميعًا من البدو وغير متحضرين . وعلى الرغم من أن على كولى كان أصغر أبناء كولى خان ، فقد كان مسافراً فى موكب رسمى ؛ إذ كانت معه والدته ، وعدد كبير من الخدم ، الذكور والإناث ، إضافة إلى مقاوله الخاص ، هو والعرب الذين يقومون على أمر ماشيته ودوابه . كان كبير مترجمى على كولى شخصية رفيعة ، وكان أتباعه يرتدون ملابس من اللباد ويضعون عمائم على رءوسهم ، الأمر الذى كان يضفى على الرجل مظهر رئيس من الرؤساء المهمين. كانت خيمة على كولى من النوع التركى، المبطن ببطانة جيدة ومريح أيضًا، كما كانت الخيمة مفروشة بالسجاد الإيرانى الفاخر، وكان فيها ديوان أيضًا . وجد ولفريد على كولى جالسًا فى خيمته مع واحد من أصدقائه ، يدعى عبد الرحيم ، وهو أحد أبناء تجار كرمنشاه ، الذى يعمل وكيلاً للقنصل البريطانى فى حائل . كان الشبان الفارسيون أنيسين ؛ لكن تعارض سلوكيات وتصرفات هؤلاء الشبان الفارسيين مع تصرفات وسلوكيات العرب الودودين استرعى انتباه ولفريد على الفور . لم يكن هؤلاء الشبان الفارسيون يعرفون شيئًا عن المجاملات اللطيفة وأساليب الطلب الرقيقة التى تعودنا عليها فى حائل ، كانوا أجلافًا فى طريقة استقبالهم للغير . طلبوا من ولفريد أن يجلس مستريحًا فى الديوان ، ونادوا على الشاى ، الذى جرى تقديمه فى سماور (*) ، وعلى الفور راح هؤلاء الشبان يروون له قصة معاناتهم الطويلة أثناء الحج . حكوا هذه القصة بلغة عربية مكسّرة غير سليمة ، وبلهجة تستنفر السخرية والضحك ، نظراً لأن الفرس يتشدقون أثناء الكلام ، وهذا شىء غريب تمامًا على العرب . يقول على كردى إن لغته الطبيعية هى الكردية ، لكن نظراً لأنه من المتعلمين ، ونظراً أيضًا لأنه ضابط فى جيش الشاه، فهو يتكلم الفارسية أيضًا بطلاقة . تلعب اللغة العربية فى بلاد فارس الدور الذى لعبته اللغة اللاتينية فى التعليم فى أوروبا قبل أن تصبح اللغة اللاتينية لغة ميتة . كان كل من على الكولى وعبد الرحيم يجأرون بالشكوى من كل ما هو عربى ، وعلى الرغم من وجود محمد

(*) السماور : إناء لإعداد الشاى . (المترجم)

بصحبة ولفريد ، راحوا يسيئون للجنس العربى كله ، وراحوا أيضًا يسبون فقر المدن العربية ، وجهل المواطنين ، والسرقات التى يقوم بها البدو ، والأتعاب المبالغ فيها التى يحصل عليها المترجمون العرب ، هم ومقاولو الإبل ، كما تكلموا أيضًا عن المصاعب التى لاقوها فى السفر عبر الصحراء . " لم نر أبأس من سوق حائل ؛ أنت لا يمكنك الحصول على كيس من المسكّرات من باب الحب أو حتى مقابل النقود ، العرب عبارة عن برابرة غير متحضرين ، يشربون القهوة بدلاً من الشاى . " يضاف إلى ذلك أنهم بين الحين والآخر يدخلون فى حوار مستخدمين فى ذلك لغتهم العربية . استلطف ولفريد على كولى ، وافترقا وهما صديقان ، مع دعوة من الشبان الفارسيين الصغار لنا على السفر معهم إلى مدينة مشهد على نهر الفرات ، حيث ينهى الفارسيون رحلة الحج بزيارة ضريحى كلٍّ من (سيدنا) على و (سيدنا) الحسين . وقد اتضح أن تلك كانت فرصة سانحة ، وبعد أن تشاورنا مع الأمير ، الذى وافق تمامًا على الخطة ، قررنا نحن أيضًا السفر مع موكب الحج عندما يبدأ تحركه .

كانت أواخر أيامنا فى حائل لا تشرح الصدر . وفى دليل أخير على حسن نية الأمير وثقته بنا ، أعلن الأمير أن بوسعنا القيام بزيارة عقدة ؛ وعقدة هذه عبارة عن قلعة فى الجبال تبعد عن حائل بضعة أميال ، وأنه لم يسبق له أن فرّج غريبًا على هذه القلعة . وأنا لست فى حل أن أقول بالضبط أين تقع هذه القلعة ، ذلك أننا أرسلنا لزيارة هذه القلعة بناء على كلمة شرف ، وعلى الرغم من أنى أتعشم ألا يتعرض ابن الرشيد إلى خطر الغزو الأجنبى ، فإنى لن أعطى أية معلومات يمكن أن يفيد منها العدو. يكفى القول إن قلعة عقدة تقع فى الجبال ، فى موقع طبيعى حصين ، زادوا من حصانته عن طريق بعض محاولات التحصين البدائية ، وأن المكان يعد بحق واحداً من الأماكن الغريبة فى العالم .

الإنسان يستطيع الوصول إلى قلعة عقدة عن طريق وادٍ ملتو ، يذكرنا تمامًا بوديان جبل سيناء ، الذى ترتفع فيه أحجار وصخور الجرانيت فجأة على الجانبين بارزة من بين وادٍ من الرمل الخالص . محفور على صخرة من هذه الصخور الجرانيتية نقش باللغة العربية قمنا بنسخه ، ويمكن قراءته على النحو التالى :

هذه خرابة سنحريب

هذا هو معنى هذا النقش على حد قول السيد صابونجي ، الباحث الكفء فى اللغة العربية ، على الرغم من أنى لا يمكن أن أتجرأ وأقول شارحة ما هى المناسبة التى شق فيها سنحريب طريقه إلى نجد ، أو لماذا كتب سنحريب بالعربية بدلاً من كتابته المسمارية .

فى داخل الدفاعات نجد أن الوادى يتسع ليشمل مسرحًا للعمليات يتكون من نقطة اتصال ثلاثة أو أربعة وديان ؛ وفى هذه النقطة توجد قرية واحدة وبستان نخيل . وبجوار هذه النقطة تمتلئ الوديان بالنخيل البرى ، الذى يروى "من الله" على حد قول العرب ، أى أن هذا النخيل لا تمتد إليه أيدى البشر لترويه . هذا النخيل شديد الجمال إذ يشكل تناقضًا واضحًا بين الخصوبة الخضراء والصخور الجرانيتية الجرداء التى تتطاول على ارتفاع هذا النخيل من كل جانب . هذه الصخور الجرانيتية يصل ارتفاع الواحدة منها إلى حوالى ألف قدم وتنحدر انحدارًا حادًا نازلة إلى أرض الوديان الرملية ، الأمر الذى يذكر الناظر إلى هذه الصخور بوادى الماس الذى تعيش فيه الأفاعى ، والذى يلقى فيه التجار قطعًا من اللحم كى تنزل طيور الرخ (النسور) لجمعها، حسبما هو وارد فى حكاية السندباد البحرى. الأفاعى لا وجود لها فى عقدة ، ولا تعيش فيها ، وإنما الذى يعيش فى عقدة هم جماعة من الشمر المخلصين جدًا ، الذين رحبوا بنا ترحيبًا كريمًا وقدموا لنا كمية كبيرة من التمر والقهوة ، ولا نعرف كيف نوفيهم حقهم من الشكر والثناء . كنا قد أرسلنا إلى عقدة بصحبة اثنين من خيالة الأمير الشمَّر ، اللذين نالا شرف هذه الزيارة ، نظرًا لأن عقدة هى وكل ما فيها تعد من ممتلكات ابن الرشيد الخاصة . هذان الخيالان هما والقرويون أعطونا قدرًا كبيرًا من المعلومات عن التلال التى كنا فيها ، وأرونا المكان التى دارت فيه معركة كبيرة بين والد محمد وعمه عبيد من جانب ضد ابن علىّ على الجانب الأخر ، أبناء على هذا كانوا من قبل أمراء على جبل شمر ويبدو أن عقدة هى أقدم ممتلكات أبناء الرشيد ، الذين تألب عليهم أولاد علىّ عندما استولوا على حائل ، وتراجعوا إلى قلعتهم ، وتراجعوا عن

القتال وأنزلت الهزيمة بقرية كيفر، الأمر الذى جعل يد ابن الرشيد هى العليا بعد ذلك . أرانا هذان الخيالان أيضًا ويتفاخر كبير سورًا بناه عبيد ليسد به الوادى الضيق ، وجعلانا ننظر إلى كل شىء ، الأبيار ، والحدائق ، والمنازل ؛ الأمر الذى جعلنا نمضى بقية النهار فى عقدة . حدثونا أيضًا عن ذلك الوحش الكاسر الذى يأتى من التلال أثناء الليل ويتسلق النخيل طلبًا للتمر.

هذا " الوحش يصل حجمه إلى حجم الأرنب البرى ، وله ذيل طويل ، ولحمه طيب المذاق ".

هذان الحارسان يصفان هذا الوحش وهو جالس على قدميه الخلفيتين ، وهو يصفر ، الأمر الذى جعل ولفريد يحسب ذلك الوحش مرموتًا (*). وسبب ذلك أن المرموت هو الوحيد القادر على التسلق ، لكنهم يطلقون على هذا الوحش اسم الوبِّر .

تمتعنا بعدو جميل بالخيل بصحبة البدويين (لم يكن محمد معنا) ونحن فى طريق عودتنا إلى القصر ؛ وقد عرفنا من هذين البدويين واحدة من أغانى الحرب الشمريّة ، وأنشودة الحرب هذه تسير على النحو التالى :

" ما أريد أنا أركب دلول ،

لو زيفولى شدادها ،

بدّى أنا حمراء الشنوف

حمراء سريعة أريدها "

هذه الأنشودة بلهجة البدو ومعناها على النحو التالى :

"أنا لا أريد ركوب مجرد دلول(*)

(*) المرموت : حيوان من القوارض . (المترجم)

(**) الدلول : هى الناقة ، وفى بعض الأحيان قد تعنى الجمل . (المترجم)

" على الرغم من أن شدادها قد يبدو لى جميلاً ؛

" اسمحوا لى أن أركب فرسًا ،

" فرس كوميت ، سريعة ، وسريعة المناورة " .

كان البدويان يركبان مهرين شديدى الجمال ، لكنهما لم يستطيعا مسايرتنا فى العدو بالخيل . لو كنا فى تركيا ، أو فى أى مكان آخر غير الجزيرة العربية ، لتعين علينا إعطاء بقشيش معتبر بعد رحلة من هذا القبيل ؛ لكن فى حائل لا ينتظر الناس شيئًا من هذا القبيل . الواضح أن هذين الشمريين كانا أذكياء تمامًا ويعرفان كيف يتصرفان ، معنى ذلك أن الروح عند هذين الشمريين كانت أسمى من النقود . هذا يعنى أيضًا أنهما كانا يؤديان عملهما للأمير بوصفه شيخًا ، ولنا بوصفنا أغرابًا ، وكانا فعلاً يؤديان عملهما بحماس .

تقع عقدة على ارتفاع يقدر بحوالى ٣٧٨٠ قدمًا فوق مستوى سطح البحر، أما ارتفاع حائل فيصل إلى حوالى ٣٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ؛ هذا يعنى أن عقدة أعلى من حائل .

ربما كان ذلك أحلى الأيام التى أمضيناها فى حائل ، وسيبقى معنا ذلك اليوم بمثابة ذكرى طيبة تسر الخاطر . تقرر لنا الرحيل فى اليوم التالى . كان محمد يقوم ، أثناء غيابنا على أمر الترتيبات المطلوبة . فقد جرى شراء جملين جديدين ، كما جرى أيضا شراء مؤن وتموينات من التمر والأرز تكفى شهرًا كاملاً ، فضلاً عن هدية ممتازة من البن اليمنى أرسلها لنا الأمير . وجاء آخر لقاء لنا بابن الرشيد لقاءً مشهودًا . لم يكن ابن الرشيد فى القصر ، وإنما كان فى منزل قريب من بوابة مكة ؛ إذا كان يستطيع من خلال نافذة صغيرة فى ذلك المنزل ، دون أن يلاحظه أحد من الناس يستطيع مراقبة ذلك الذى يحدث فى مخيم الحج الموجود على مستوى منخفض عن مستوى المنزل . وجدنا الأمير وحدة ، لأنه ضاع منه الآن كل تخوفاته من أن نكون قتلة أو مغتالين ، يطل من النافذة مثل طريدة من الطير ، وكان يحسب ويحصى عدد القطع

الفضية التى سيحصل عليها من الحجاج الفرس قبل أن يفروا من قبضته . كان الأمير يطل من النافذة بين الحين والآخر ، وبخاصة أن النافذة كانت محجوبة بشيش فى جزء منها ، وينادى واحداً من رجاله الذين كانو ينتظرون فى الأسفل ليعطيه رسالة معينه خاصة بالحجاج . يبدو أن الأمير كان يتمتع بمباهج سلطته على هؤلاء البشر ، وأن هذه السلطة كانت مطلقة .

كان الأمير أنيسًا معنا وحلو المعشر ، إذ راح يجدد لنا براهين الصداقة والاحترام ، ويعرض علينا إعطاءنا كل ذلك الذى يمكن أن نسأله إياه ، سواءً أكان ذلك إبلاً للرحلة ، أم فرسًا من أفراسه . وكان من الطبيعى أن نرفض كل هذه العروض ، وعلى الرغم من ميلنا إلى قبول العرض الأخير ، إذ قام ولفريد بإلقاء خطبة قصيرة على الطريقة العربية، قال فيها إن كل ما نطلبه هو رضا الأمير عنا واحترامه لنا، وتمنى ولفريد للأمير طول العمر ، والتمس ولفريد إلى محمد بن الرشيد أن يكون وكيلاً له فى أوربا ، إذا ما كان بحاجة إلى أية مساعدة أو عون من هناك ، وشكر ولفريد الأمير على كل العطف والحنان الذى لقيناه من الأمير . وهنا اقترح الأمير علينا تأخير رحلتنا ، وأن نقوم معه بعملية الغزو التى يزمع القيام بها فى غضون أيام قلائل ، وذلك عرض جذاب جداً ويصعب رفضه لو كنا قد علمنا به من قبل ، لكن تحتم علينا رفض هذا العرض فى الظرف الحالى . لقد أصبح رأسانا بين فكى الأسد منذ فترة طويلة ، وأصبح هدفنا فى الوقت الحالى يتمثل فى الخروج بهدوء وسلام من عرين الأسد . تعللنا بضيق الوقت ، وقلنا إن إبلنا بدأت بالفعل السير على الطريق ؛ وهنا ودعنا الأمير واستأذنا من الرحيل .

لم يتبق أمامنا سوى زيارة واحدة تعين علينا القيام بها ، من باب احترام الصداقة وليس من باب الحفاوة . بينما كنا نسير بخيولنا خلال المدينة توقفنا أمام منزل حمود ووجدناه هو وعائلته كلها فى المنزل ، كانت تعبيرات وداعنا لحمود هو وأسرته تفصح عن أسى الافتراق ، وأسدى إلينا حمود بعض النصائح المهمة جداً حول مسألة مرافقتنا للحج الفارسى إلى مدينة مشهد على ، بدلاً من العبور مباشرة إلى

البصرة. قال حمود ، إن المطر يسقط على طريق الحج ، وإن الأسبلة كلها (تلك الموقعة على الخارطة باسم خزانات زبيدة) كانت مليئة بالماء ، الأمر الذى سيسهل من رحلتنا على هذا الطريق ، فى حين أن ذهابنا من هذا الطريق إلى البصرة سوف يحتم علينا المرور خلال منطقة خالية تمامًا من الماء ، دون أن يكون هناك شىء مهم فى هذا الطريق لتعويضنا عن هذه المشقة . لكننا سوف ننظر فى هذا الأمر أثناء مضينا في رحلتنا ؛ إذ إن ما يهمنا بالدرجة الأولى هو الابتعاد عن هذا المكان ومغادرته ، كما سبق أن قلت ، وأننا سيكون أمامنا فيما بعد متسع من الوقت نناقش خلاله تفاصيل خط السير .

كان ماجد موجوداً فى بيت حمود ، وتلقى من ولفريد ، على سبيل التذكار ، سكينًا إسبانيًا مقبضه من الفضة ، وعليه أرسل ماجد فى طلب عباءة سوداء مطرزة بالذهب عند ياقتها وقدمها لى على سبيل الهدية . كانت هدية مناسبة ، إذ لم يكن عندى مثيل لها ، لم تكن عندى عباءة محترمة على الإطلاق ، لكن هذه العباءة محترمة ومحتشمة ولائقة المظهر. أنا على يقين أن ماجد ، فى أضعف الأحوال ، نادم على رحيلنا ، وإذا ما شاءت الأقدار لنا العودة إلى حائل مرة ثانية ، فقد يكون من حسن طالعنا أن نجد ماجد أو والده على عرش حائل، وهما يعدان وريثين طبيعيين للشياخة، يضاف إلى ذلك أن عمر ابن الرشيد لن يدوم طويلاً .

ركبنا بعد ذلك فرسينا ، وفى غضون خمس دقائق بعد ذلك أصبحنا خارج مدينة حائل . وعندما نظرنا إلى الخلف أخذ كل منا نفسًا طويلاً ، نظرًا لأن حائل بكل سحرها وغرابتها ، وبكل سكانها المهمين ، أصبحت كما لو كانت سجنًا لنا ، وفى تلك المرة التى حدثت فيها مشادة كلامية بيننا وبين محمد كانت حائل تبدو كما لو كانت مقبرة لنا .

غادرنا حائل من البوابة نفسها التى دخلناها منها ، بعد ذلك الذى بدا لنا على أنه سنوات مضت ، لكننا سرنا من الاتجاه صوب الجبال، يممنا مسيرنا حول سور المدينة فى اتجاه حدائق النخيل التى تعد استمرارًا لسور المدينة ، ومشينا مسافة ثلاثة أميال

فى وادٍ يشبه النهر . ثم بدأنا نسير فى السهل من جديد ، وعند آخر دغل من أدغال أشجار الأثل توقفنا للمرة الأخيرة كى ننعم بشىء من الظل ، نظراً لأن حرارة الشمس كانت شديدة ، وذلك قبل أن نلحق بقافلة الحج التى كنا نراها على شكل خط طويل من النمل يعبر السهل فى المنطقة فيما بيننا وبين السلسلة الرئيسية من جبل شمر .

كان ذلك أجمل المناظر قاطبة التى شاهدتها فى حياتى ، وسوف أحاول وصف هذا المنظر . وقبل أن أبدأ الوصف ، يتعين أن نفهم ونعى أن الهواء النقى دومًا فى جبل شمر ، كان فى ذلك اليوم شديد النقاء ، الأمر الذى يجعله متفوقًا على أى شىء من الأشياء التى نراها فى الصحراء العادية ، أو فى الإقليم والمناطق العالية من جبال الألب ، أو حتى فى القطب الشمالى ، أو فى أى مكان آخر باستثناء إذا ما كنا على القمر . لأن هذه المنطقة هى مركز الصحراء ، إذ تبعد عن البحر مسافة تقدر بحوالى أربعمائة ميل ، ويصل ارتفاعها إلى حوالى أربعة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر . أرى أمامى فى طليعة المنظر أرضًا من الرمل الخشن الذى يميل لونه إلى الاحمرار ، هو عبارة عن حبيبات الصخور الجرانيتية فى جبل أجاع بعد أن انجرفت إلى الأسفل بفعل مياه الأمطار والسيول ، كما أرى هنا وهناك أدغالاً رائعة من أشجار الأثل ، كما أرى أمامى أشجاراً قُطعت رؤوسها ويصل محيط جذع كل منها إلى ما يتردد بين عشرين وثلاثين قدمًا (*) ؛ هذه الأشجار مقطوعة الرؤوس تنمو فوق جبال صغيرة ، بنى الناس عليها بيوتًا فى يوم من الأيام – تمامًا مثلما هو حادث مع أشجار الأرو فى مقاطعة سسكس Sussex – والسبب فى ذلك أن المدينة تبدو كأنها انتقلت من هذا الجزء من الواحة إلى المكان التى هى فيه حاليًا . يمتد على هذا الرمل حزام طويل من الشعير الأخضر ، ربما يصل طول هذا الحزام إلى حوالى فدانين ، وهذه هى عيدان الشعير شديدة الخضرة وقد نبتت إلى ارتفاع يكاد يغطى خطوط الرى . خلف حقل الشعير الأخضر هذا ، وعلى امتداد ميل أو نحو ذلك أرى أن سطح الصحراء أحمر

(*) قسنا جذعًا من هذه الجذوع ووجدنا أن محيطه ستة وثلاثون قدمًا وذلك على ارتفاع خمسة أقدام من سطح الأرض .

اللون يذوى متحولاً إلى اللون البرتقالى إلى أن يقطعه ذلك الذى يبدو كأنه ملاءة براقة من الماء تعكس لون السماء الأزرق الغامق - هذا سراب بطبيعة الحال ، لكن هذا هو أشد أنواع الوهم التى يمكن أن يتصورها الإنسان - عبر هذا السطح المائى الوهمى رأيت طابوراً طويلاً من إبل الحجاج وهى تغوص فى ذلك الماء ، بحيث تنعكس صورة كل جمل من الجمال على السراب الموجود أسفله وتتلون باللون الأزرق أو الأحمر أو الأخضر أو الوردى ، عاكسة أو ممثلة بذلك الصندوق أو الخيمة التى يحملها ذلك الجمل . وقد يصل طول طابور ذلك الموكب من الإبل إلى حوالى خمسة أميال أو أكثر ؛ لم نستطع تبين نهاية ذلك الطابور . من خلف هذا الطابور من الإبل بدأت ترتفع من جديد كتلة صخور جبل أجا غير المنتظمة التى لها لون الياقوت الأزرق الضارب إلى الخضرة ، والتى هى أجمل سلاسل الجبال التى يمكن أن يشاهدها الإنسان ؛ منظر جميل حقًا .

بعد التمتع بذلك كله ، وبعد أن رسمت له مخططًا ، لأننا لم نكن فى عجلة من أمرنا ، ركبنا أفراسنا من جديد ، ورحنا نشاركها الحرية ، ورحنا نعدو بفرسينا ونحن نردد الأنشودة الشمرية : "ما أريد أنا أركب دلول ، لو زينوا لى شدادها ، بدِّى أنا حمراء الشنوف ، حمراء سريعة أريدها " ، هذه البهجة كانت تشجع الفرسين أكثر مما لو استعملنا أى سوط من السياط ، أو مهمازًا من المهامين؛ هذه الأنشودة جعلت الإبل تثب وتقفز عندما اقتربنا من قافلة الحجاج ، كما أدهشت الحجاج وولدت لديهم فكرة أن بدو قبيلة حرب إنما بدءوا فى الهجوم عليهم مرة ثانية . ومضينا على هذا الحال ومن خلفنا محمد ، إلى أن وصلنا إلى طليعة قافلة الحج حيث يوجد البيرق الأخضر فى الأحمر الذى يتعين أن يكون فى مقدمة القافلة . وجدنا إبلنا بالقرب من ذلك البيرق وعلى الفور خيمنا معهم ، على بعد مسافة لا تزيد على عشرة أميال من حائل فى جزء من الوادى الذى زرعت فيه تلك الراية (البيرق) .

تبعد خيامنا حوالى مائتى ياردة عن مخيم الحجاج ، المتداخل بعضه مع بعض تحسباً لأخطار الصحراء . كان مؤذنو الحجاج قد أذنوا لصلاة العشاء ، وكان الناس

يصلون بالفعل . هذه هى خيولنا تأكل الشعير وهذا هو صقرنا (ذلك الطائر المدرب الذى اشتريناه بالأمس نظير ستة مجيديات ، من أحد البدو فى حائل) ، جالس فوق مجسمة أمامنا . هذه أمسية باردة ، لكن يالنظافة الخيمة من الداخل !

اليوم الثانى من شهر فبراير : أولاً وقبل كل شىء ، يبدو أن حوالى نصف الحجاج فقط هم الذين غادروا حائل بالأمس . يقول البعض إنه كانت هناك بعض المشكلات فيما يتعلق بالإبل ، ويقول بعض آخر من الناس : إن ابن الرشيد لم يكن موافقًا على رحيل الحجاج ، هذا يعنى أن الأمر يتعلق بالنقود فى الحالين . وعليه بعد أن قطعنا قرابة الميلين صدر أمر بالتوقف من أمير الحج المدعو عنبر ، ذلك العبد الأسود من عبيد ابن الرشيد ، وبقيت الإبل هى وركابها مُجمَّعين إلىٰ بعضهم البعض فوق قطعة من الأرض المرتفعة لا لشىء سوى لإحصاء عددهم . واصل الدراويش هم والحجاج السائرون على الأقدام مسيرهم على هواهم وفعلنا نحن الشىء نفسه ، لأننا لا نقيد أنفسنا بأية قاعدة من القواعد التى تحكم قافلة الحج، وكانت لدى عبد الله أوامر تقضى بأن يسحب إبلنا بعيداً إلى خارج مجموعة قافلة الحج . لم نر مدقًا أو أثرًا لأقدام فى ذلك اليوم ، وواصلنا مسيرنا بحثًا عن الماء الذى قالوا لنا إنه أمامنا فى مكان قريب ، وعبرنا أرضا وعرة ووديانًا وعرة أيضًا ، وكلها كانت عبارة عن وهاد ضيقة . ها نحن قد تعودنا على الصحراء ، إذ استطعنا من مسافة بعيدة تبين مكان الماء ، الذى عرفنا مكانه من لون الأرض البيضاء المحيطة به والقريبة منه . هذا الابيضاض ناتج عن رسوبيات شبيهة بالحجر يحدثها الماء عندما يستقر فترة طويلة فى أى مكان ؛ وفى مثل هذا الحال يكون الماء موجوداً على شكل خزان طبيعى أو سلسلة من الخزانات فى مجرى وادٍ من الوديان الضحلة . هذه الخزانات لابد أن تكون قد امتلأت فى وقت ما خلال فصل الشتاء بفعل الأمطار، وهنا سارعنا إلى ملء قرابنا من تلك المستودعات فى الفترة التى كان ماؤها ما يزال نظيفًا ، نظراً لأن الحجاج سوف يشربون ذلك الماء ويلوثونه . هذه الخزانات ليست سوى برك صغيرة . وقد وجدنا عواد بالفعل عند تلك البرك ، فقد سبق إيفاد الرجل ومعه دلول ليكون فى مقدمة الجماعة

والتأكد من وجود الماء ، وعليه أمكن ملء قراب الماء قبل وصول الدراويش الذين يؤثرون السير فى مقدمة قافلة الحج . هؤلاء الدراويش لديهم عادة سيئة إذ يستحمون فى الماء أولاً ثم يشربونه بعد ذلك ، وقد قيل لنا إن ذلك طقس من طقوس هؤلاء الدراويش الدينية .

كانت الريح شديدة العنف طوال النهار ومحملة بكمية كبيرة من الرمل ، لكن هاهى الريح قد هدأت . كان مسارنا منذ مغادرة حائل يتجه شرقًا ثم شمالاً ، قاصداً جبل جلدية ، الذى يعد علامة أرضية واضحة . مخيمنا هذه الليلة أجمل من مخيم الليلة السابقة ، إذ إنه بعيد عن مخيم الحجاج ، وكنا وحدنا فى وادٍ صغير ، عامر بالحطب ، وعلف الإبل .

اليوم الثالث من شهر فبراير : على الرغم من شب النار عند الساعة الرابعة من صباح هذا اليوم ، كما لو كنا نستعد لرحيل مبكر ، فإننا لم نتحرك طوال اليوم . وهم يقولون لنا إن نصف الحجاج لا يزالون فى حائل ، ويتعين علينا انتظارهم . وهذا هو ولفريد قصد اليوم مخيم الحجاج بحثًا عن صديقنا على كولى خان ، لكن لا على كولى خان ولا عبد الرحيم أو أى أحد آخر كانوا قد وصلوا بعد .

الحجاج الفرس على الرغم من عدم لطفهم كأشخاص أو من حيث العادات (إذ إنهم يفتقرون إلى معنى الكياسة الذى يتسم به العرب) ، ودودون جداً ، ونحن إذا ما استطعنا الحوار والتحدث معهم سيكون ذلك الحديث والحوار مهمًا على حد زعمى لكننا عندما نقارن الفرس بالعرب نجد أنهم أجلاف وأسوأ طبعًا . السواد الأعظم من الفرس شقر البشرة ، والكثيرون منهم لهم شعر أشقر وعيون زرقاء ؛ لكن ملامح الفرس واضحة ، وهذا الفارق نفسه نجده أيضًا بين الفرس والشمَّر الذين يرافقون هؤلاء الفرس ، وهذا الفرق واضح وضوح الفرق بين حصان الجر الهولندى وبين فرس من أفراس ابن الرشيد . وعلى الرغم من اغتسال الفرس بمناسبة وغير مناسبة طوال اليوم فإن القذارة والأوساخ تظهر على ملابسهم المدهنة المصنوعة من اللباد ، وهذا لا يحدث مطلقًا لأى أحد من العرب حتى أولئك الذين لا يغتسلون . كان عواد هو

والرجال الآخرون يتجادلون مع الفرس عندما كانوا يقتربون من خيامنا طلبًا لشيء من الحطب ، والواضح أن الحب والوئام لا يعرفان لهما طريقًا بين الفرس والعرب .

أنفقت نهارى فى عمل نافع فى المنزل إذ رحت أعيد حشو السرج ، الذى كان بحاجة ماسة إلى هذه العملية . وعاد محمد تمامًا إلى ما كان عليه من قبل ، فلم يعد يتباهى أو يتظاهر مثلما كان يحدث من قبل ، وعلى حد قوله ، فإن هواء حائل لم يكن على هواه . ويبدو أنه قلق ويود محو الذكريات الماضية ، وقد أفلح فى أن يجعل نفسه أنيسًا لدينا إذ راح يحكى ويروى لنا أشياء تتصل بالسباع وبخيولهم ، وهذه الأشياء منها ما هو عامر بالمعلومات ومنها ما هو مسلّ أيضًا .

اليوم الرابع من شهر فبراير : يوم آخر من أيام الانتظار ، الحجاج ونحن معهم نشعر جميعا بالقلق لكن القلق لا يفيد . هذا هو ولفريد قام من باب تزجية الوقت برحلة استكشافية ، قام بها وحده بصحبة فرسه وكلاب صيده . اتجه شمالاً سالكًا خطًا مستقيمًا ، قاصداً خطًا من التلال الخفيضة التى نراها هنا من الأرض المرتفعة . هذه التلال الخفيضة تبعد عن هنا حوالى اثنى عشر ميلاً. لم يلتق ولفريد أحداً سوى اثنين من البدو يركبان دلولين ، متجهين إلى عطوة ، التى قالوا له إن فيها بئرًا . كانوا ينظرون إليه هو وبندقيته نظرة شك ولم ترق لهم استجواباته لهم . اكتشف ولفريد بعد ذلك أن الصحراء خالية من الحياة تمامًا وأنها عبارة عن سلسلة متتالية من السهول الرملية ، وكتل خشنة من الحجر الرملى ، يزاد على ذلك أن التلال نفسها التى وصل إليها قبل عودته كانت هى الأخرى من الحجر الرملى أصفر اللون الذى تحول لونه إلى اللون الأسود فى بعض أجزائه بسبب عوامل الطقس ، كما استطاع ولفريد رؤية النفود التى بدت له كما لو كانت بحرًا أحمر اللون . وقد عدا ولفريد بفرسه إلى أن وصل حافة سلسلة الجبال المرتفعة ثم عاد منها خلال ثلاث ساعات . وجاءت هذه الجولة مفيدة لأنها مكنته من الحصول على مواقع بعض التلال الرئيسية : يعطب ، وجلدية ، وبعض التلال الأخرى ، كما تمكن أيضًا من توقيع تلك التلال على خارطته . لم يخبرنى ولفريد بالمكان الذى انتوى الذهاب إليه ، لكن الواقع أنه عاد قبل أن يساورنى القلق عليه .

فى هذا الوقت نفسه كان كل من عواد وعبد الله يعلمان الصقر درساً عن طريق شىء جذاب صنعاه من المخلاة . هذا الصقر يبدو أليفًا جدًا ، ويأتى إلى عواد عندما يناديه ويصيح الصقر قائلاً : " آشو ، آشو " ويفسر عواد ذلك بأنه اختصار لاسم رشْم الذى هو تحريف للاسم راشمون Rashmon الذى معناه لامع مثل الضوء ، ونحن نأمل فى وجود رشم وعونه لنا فى الحصول على اللحم ، نظراً لأن الأرانب البرية موجودة هنا بأعداد وفيرة .

جاءنا زوار فى فترة العصر ، كان البعض منهم من بدو الشمر من أسرة ابن دوالة ، هؤلاء البدو فضلوا التخييم بجوارنا ، باعتبارنا الأقرب توافقًا معهم من الفارسيين . هؤلاء البدو فى طريقهم من حائل إلى خيامهم فى النفود ويحملون رسالة من الأمير مفادها أن الأمير بحاجة إلى المزيد من الإبل ؛ وسوف يواصلون مسيرهم مع قافلة الحج إلى مشهد على أو ربما إلى سماوة على نهر الفرات لشراء الأرز (التِّمن)، والقمح . وقبائل جبل الشمر لا تتواصل مع العالم الخارجى سوى مرتين فى العام ؛ وهاتان المرتان هما مجىء قافلة الحج وعودتها . فى هذا الوقت بالذات تشترى هذه القبائل المؤن التى تكفيها عامًا كاملاً. أكبر هذه القبائل هى قبيلة ابن دوالة الذى يبلغ من العمر ستين عامًا وطيب السلوك وحلو المعشر ، وقد تناول ذلك الرجل غداءه مع محمد هو والخدم فى خيمته ، ثم جاء ليجلس معنا فى خيمتنا بعد ذلك . نحن نفكر فى ترك هذا الحاج حاليًا وأن نواصل مسيرنا معه غدًا . لكن خيام هذا الحاج على بعد مسافة بعيدة عن طريقنا من الناحية اليسرى .

إلى جانب أبناء دوالة هناك أيضًا بعض البدو المساكين ومعهم إبلهم التى تركوها فى الوادى الذى نحن فيه لكى يكونوا بعيدين عن الأنظار . وهم يخافون أن يدرجوا ضمن الحجاج ، فى بداية الأمر كان من الصعب علينا فهم السبب الذى دفعهم إلى الاقتراب من الحج . لكنهم أوضحوا لنا أنهم يتطلعون إلى الضياع بين الجماهير ، وكانوا يتمنون الحصول على ميزة مرافقة الحج ، وبالتالى عدم الاستيلاء على إبلهم . هؤلاء البدو المساكين كانوا أيضًا فى طريقهم إلى مشهد على لشراء القمح .

هناك تقرير يفيد أن الأمير سيصل غداً قادماً من حائل ، وسوف يرافق الحج مدة ثلاثة أيام ، ثم يقوم بعد ذلك بشىء ما ، لا يعرف أحد إلى أى مكان، وغالباً ما سيكون غزواً . ستكون هذه عملية متعبة لنا لأننا سبق أن ودعناه وكل ما نريده هو الذهاب إلى حال سبيلنا .

اليوم الخامس من شهر فبراير : تحركنا فى نهاية المطاف ولكننا لم نقطع سوى عشرة أميال أخرى ، لنصل إلى وادٍ أكبر ، يبدو أن البلاد كلها تصرف ماءها فيه والناس هنا يسمون هذا الوادى وادى البناصر (أى الأصابع الصغرى) ، أما لماذا سمو الوادى بهذا الاسم فهذا ما لا أعرفه. هنا فى هذا الوادى توجد أبيار متعددة ومرعى كبير من مراعى الإبل ، وهذا المرعى من النوع الذى يسمونه الرِّمح . هذا الغطاء النباتى عامر بالأرانب البرية ونحن بدورنا قمنا بصيد بعض من هذه الأرانب باستعمال كلاب الصيد وبفضل كلب آخر شبيه بكلاب الصيد ألحق نفسه علينا أثناء سيرنا فى الطريق . والخدم يطلقون على هذا الكلب الشبيه بكلاب الصيد اسم "مرزوق" وهو حيوان غير جذاب ولكن حاسة الشم عنده قوية جداً .

بعد ساعتين من المسير وصلنا إلى تل عجيب يقف منعزلاً وسط السهل ؛ هذا التل شأنه شأن بقية الأماكن من الحجر الرملى ، وسعدنا جداً عندما وجدنا ذلك التل مغطى بالنقوش(*) وصور الطيور والحيوانات من النوع الذى سبق أن رأيناه ، لكنها أفضل بكثير من حيث التنفيذ وعلى نطاق واسع. هذه النقوش أياً كان اسمها شديدة الأناقة ،

(*) يقول لى السيد رسّام Rassam، وهو أحد المنقبين فى بابل ، إن هذه النقوش من الكتابة الفينيقية القديمة ويبدو أن الفينيقيين الذين كانوا أمة من أصحاب المحلات والدكاكين ، كان من عادتهم أن يوفدوا مندوبين تجاريين يحملون عينات من بضاعتهم إلى سائر أنحاء آسيا وفى الأماكن التى كان هؤلاء المندوبون يتوقفون فيها على الطريق ، إذا ما تيسرت لهم قطعة مناسبة من الصخر ، فإنهم كانوا ينقشون عليها أسماءهم ويرسمون عليها صور الحيوانات . هذا التفسير قد يكون حقيقياً ، لكن كيف يتأتى لهؤلاء التجار استعمال واختيار أشياء صحراوية فى هذه الأعمال الفنية مثل الإبل والنعام والوعول والخيالة والحراب . أنا أتخيل أن هذه الأشياء من عمل العرب أو من يمثلون العرب ، فى تلك الأيام البعيدة والأرجح أن هذه الأشياء من عمل أناس يعيشون فى هذا المكان ، ومع ذلك أنا لست عالمة آثار .

كما أنها واضحة ، وتقوم على التوازى كما هو الحال فى الأحرف الكبيرة فى كل من اللغتين الإغريقية واللاتينية ، صحيح أن بعض الرسوم بدائية الطابع لكنها لها ميزة فنية حقيقية . هذه الأحرف هي والنقوش لا يمكن أن تكون من عمل أناس غير متحضرين ولا يمكن أن تكون أى شيء آخر سوى أبجدية من الأبجديات . ويجب أن نلاحظ هنا أن الحيوانات الواردة فى هذه النقوش هى حيوانات من الجزيرة العربية ، مثل الغزال والجمل والوعل والنعامة . لاحظت أيضًا ضمن هذه النقوش نخلة مرسومة بطريقة تقليدية ، لكنى لم ألاحظ فى هذه النقوش شيئًا شبيهًا بالمنزل أو الخيمة . الموضوع الرئيس عبارة عن تكوين من جملين بعنقين متقاطعين ، وهذه ميزة ليست بالصغيرة . هذا التكوين مرتبط بنقش محفور بطريقة شديدة الانتظام . مسألة قدم هذه الأشياء تتأكد بفعل الألوان ، الصخر من الحجر الرملى الذى يميل لونه إلى الاحمرار ، وقد تحول إلى اللون الأسود بفعل العوامل الجوية ومن الواضح أن هذه الأحرف وتلك الرسوم عندما كتبت أو رسمت أول مرة كانت حمراء اللون على خلفية سوداء ، أما الآن فإن الكثير من هذه الأحرف والرسوم تغيرت تمامًا بفعل عوامل الطقس ، وهذه العوامل قد يستغرق حدوثها قرونا فى هذا المناخ الجاف .

كنا فى مقدمة الحج عندما وصلنا إلى هذا التل الذى يسمونه تل (السيلية) ، وانتظرنا فوق قمة ذلك التل إلى أن تجاوزنا الموكب كله، وقد استغرق ذلك ساعة أو أكثر من ساعة . كان المنظر عجيبًا بحق ومن هذا الارتفاع الذى كنا عليه ، استطعنا رؤية المنطقة الخلفية لمسافة ثلاثين أو أربعين ميلاً عبر السهل ، أى أننا تمكنّا من رؤية جبل أجا ، الذى تقع حائل عند سفحه . كان الموكب الذى يبلغ طوله ثلاثة أميال مكونًا من حوالى أربعة آلاف جمل (لم يكن هذا هو الحج كله) ومعها عدد كبير من الرجال الراجلين الذين يمشون بجوار هذه الإبل . فى البداية جاء الدراويش وكانوا يمشون بخطى سريعة تشبه الجرى إلى حد بعيد ، صحيح أن هؤلاء الدراويش شعث وأقذار ، لكنهم مع ذلك يتمتعون بحلاوة المعشر وهم دائمًا على استعداد للكلام والحوار إذا ما كانوا يعرفون اللغة العربية ؛ ومن بعد الدراويش تجيء مجموعة من البشر المهندمين يمشون

فى وقار واحترام مبعثه الدين ، من بينهم رجل يلبس عمامة زرقاء كبيرة ، أعتقد أنه من الأفغان ؛ وهذا شاب نحيل أنيق المظهر يبدو أنه كاتب أو مساعد لتاجر من التجار ، يقرأ من لفافة أثناء السير ، وهؤلاء شبان آخرون يحملون فى أيديهم زجاجات من الجلد مليئة بالماء الذى يستعملونه فى الوضوء ، الذى يتوقفون من أجله بين الحين والآخر . فى بعض الأحيان أسمعهم يغنون وينشدون ، وفى أحيان أخرى يدعون ويصلون . هؤلاء المتدينون كلهم يتصرفون معنا بطريقة وقحة ، ولا يردون على التحية إذا ما ألقيناها عليهم ويتضايقون أشد الضيق إذا ما اقتربت منهم كلاب الصيد ، مخافة أن تلمسهم وتصيبهم بالنجاسة . واحد من هؤلاء الشباب ، وبخاصة ذلك الذى كان يقرأ من لفافة ، توقف صباح اليوم عند النار التى شببناها لكى يدفئ يديه أثناء مروره علينا ، وقدمنا له فنجاناً من القهوة لكنه قال لنا : إنه تناول إفطاره بالفعل ، وتحول إلى الحديث مع الخدم ، إخوانه من المسلمين ، لكن الخدم طلبوا منه المضى فى طريقه . رفض فنجان القهوة عند العرب يعد من أكبر الأخطاء التى يرتكبها الإنسان ، بل إن الأمر قد يصل إلى حد إعلان الحرب . العرب لا يفهمون التحامل الدينى والإساءات الدينية التى يوجهها إليهم الشيعة الفارسيون .

بعد مسافة من هؤلاء الذين يمشون فى مقدمة الموكب ، يجىء البيرق (الراية) المحمول وسط جماعة من الجمَّالة الذين يركبون إبلهم ، ويمشون سراعاً وهم يحملون الراية فيما بينهم . هذه المخلوقات رائعة الجمال عليها معاطف من الحرير الساتان وعيونها شبيهة بعيون الغزال ، وتتحرك حركات رشيقة أنا عاجزة عن وصفها . الحصان العربى يختلف عن هذه الحيوانات الأصيلة . الناس هنا يطلقون على هذا النوع من الإبل اسم النَّعمية ، نظرا لأن الإنسان يمكن أن ينام وهو راكب فوق هذه الإبل دون أن يحس أى نوع من الاهتزاز أو الإزعاج .

البيرق ، علم ابن الرشيد ، قطعة مربعة الشكل من قماش الحرير أرجوانى اللون عليه شعار باللون الأبيض فى الوسط ، وله حافة خضراء . هذا البيرق يحمله واحد من الخدم يركب جملاً عالياً ، ويجرى فرد البيرق أثناء المسير . وعنبر الزنجى أمير الحج ،

عادة ما يكون بصحبة جماعة البيرق . عنبر يركب فرساً صغيرة بيضاء اللون ، يقتادها عبد يمشي خلف عمبر ، ونحن لم نر هذا العبد راكباً إلى الآن .

بعد البيرق تجيء جماعة الحجاج الذين يركبون فى بعض الأحيان ، ويكون كل اثنين منهم على جمل واحد وأحياناً فى صندوقين كل صندوق منهما على جانب من جانبى الجمل ، وقد يجرى تحميل أمتعة المنزل على الجمل أيضاً. هذه الإبل مملوكة للبدو الذين يكون معظمهم من الشمر، ولكن الكثيرين منهم يكونون من ظافر، ومن الشرارات، ومن الحويسن . هؤلاء البدو يتبعون إبلهم سيراً على الأقدام ، ودائماً فى عراك مع الحجاج ، على الرغم من أنهم إذا ما أوشكوا على التطاول بالضرب ، تقوم شرطة ابن الرشيد الراكبة على إبل بالتدخل لفض النزاع بطريقة ودية .

الفارسى الذى يركب جملاً يصبح منظره مدعاة للسخرية . وهو يصر على الجلوس ممدداً ، ويبدو كأنه غير قادر على تفهم طبيعة المخلوق الذى يركبه ؛ ويتحدث إلى الجمل بصوت ولغة لا يفهمها الجمل العربى . ومن هنا نجد أن النكات التى يطلقها العرب على الفرس لا تنقطع مطلقاً من الصباح إلى المساء . الطبقات الراقية من الحجاج الفارسيين ، والنساء بطبيعة الحال ، فيما عدا الفقيرات منهن يسافرن فى محامل أو صناديق ؛ والجمل يمكن أن يحمل صندوقين من هذه الصناديق ، هذه المحامل أو الصناديق تسقف من أعلى مثل عربات التجار بقطعة من قماش قلاع المراكب أزرق أو أحمر اللون . ومن بين هؤلاء الحجاج قد نجد واحداً أو اثنين يسافران فى تخت روان ، " والتخت روان " هذا وسيلة مكلفة من وسائل النقل ، تحتاج إلى بغلين أو جملين أحدهما فى الإمام والثانى فى الخلف لحمل هذه الوسيلة . فى كل صندوق من هذين الصندوقين يستطيع المسافر الجلوس فيه ممدداً أو قد ينام فيه ، والإبل التى يجرى اختيارها للمحامل تكون من السلالات القوية هادئة الخطى ؛ بعض من هذه الصناديق يجرى تزويدها بمظاهر الترف والأبهة الفارسية مثل السجاد والستائر والذى يقود الجمل يكون واحداً من الرجال الثقات ، كما يسير الخدم بجوار الجمل أيضاً . هذا واحد من الحجاج يجعل واحداً من رجاله يمشي فى المقدمة ، وهو يحمل النارجيلة

(الشيشة) ، التى يروح يدخنها من خلال أنبوب طويل يمتد إلى الصندوق الموجود فى الأعلى . عدد الخيل فى الموكب قليل جداً ولا يتجاوز عددها ستة خيول . أحد هذه الخيول كحيلان حركان أبيض اللون ؛ اشتراه حاج ثرى منذ أيام قلائل من أحد البدو الشمر المرافقين للموكب . الحصان يبدو كأنه من النوع الأصيل ، وذلك من واقع رأسه وذيله وكفله ؛ أما بقية الحصان فمغطاة بسرج مزرقش كى يركبه المالك الجديد . بقية الخيول التى رأيتها لا تستحق الكلام عنها أو الإتيان على ذكرها .

مر علينا الموكب بكاملة ونحن جالسون على قمة تل السيلية الذى يعلو رؤوس الحجاج .

تعرفنا بعضًا جديداً من البشر ، أو بالأحرى بعض الحجازيين من المدينة (المنورة)، الذين جاءوا اليوم إلى خيمتنا وجلسوا معنا بطريقة ودية لتناول القهوة معنا وعلى الرغم من أن الحجازيين يقال إنهم من العرب الخلص ، فهم سود البشرة مثل الزنوج ، وملامحهم تختلف عن ملامح الشمر والأعراق النقية الأخرى التى سبق أن رأيناها . الحجازيون أيضًا يفتقرون إلى الكرامة واحترام الذات ولهم سمعة خاصة فى هذا الجزء من الجزيرة العربية ، هؤلاء الحجازيون كانوا صرحاء تمامًا . كبير هؤلاء الحجازيين هو صالح بن بنجى ، وهو من سدنة الحرم النبوى فى المدينة المنورة ، وهو الآن على سفر إلى إيران لجمع التبرعات للمسجد النبوى فى المدينة المنورة . أبلغنا أنه على الرغم من أنه يود صداقتنا هنا وشرب القهوة معنا ، فإنه لا يمكن أن ينصحنا بزيارة المدينة المنورة . لم يكن ذلك من منطلق أن الإنجليز بصفتهم إنجليز هم أصحاب سمعة طيبة فى المدينة المنورة ؛ وإنما هذه الزيارة إن حدثت ستكون ضد الحكم الدينى الذى يقصر الوجود داخل المدينة المنورة على المسلمين فقط . لو دخلناها بوصفنا مسلمين فسوف يكون ذلك مقبولاً ، أما إن كنا نصارى فلن يفلح ذلك أو يصلح. وأنه هو نفسه سيكون أول من يحاول العمل على إعدامنا . لقد أمسكوا بيهودى فى المدينة المنورة فى العام الماضى وقتلوه . وقد غضب أهل المدينة المنورة عندما أوفد السلطان مهندسًا من الفرنجة لعمل مسح لهذه المنطقة وقد أشاع أنه مسلم . هذا الحكم الدينى

لا ينطبق إلا على المدينتين المقدستين: مكة والمدينة المنورة ، ولا ينطبق على بقية المدن . رعايا الملكة المسلمين الذين جاءوا من الهند ، كانوا يستقبلون استقبالاً طيبًا (على الرغم من أنهم من الشيعة) ؛ وسوف ينطبق ذلك علينا إذا ما دخلنا فى الإسلام . وعلى الرغم من تسامح الحجازيين مع الفرس ، فهم لا يطيقون الفرس كفرس ومهرطقين ، كما يجرى ضربهم فى المدينة المنورة . كان صالح ذاهبًا ليجمع صدقات من الفرس ، الذين بلغوا من الغباء حدًا جعلهم يعطونه هذه الصدقات ومع ذلك لم يكن صالح مهتمًا برفقة هؤلاء الفرس .

سوف ينضم إلينا صالح بعد وقت قصير وربما قمنا كلنا بهذه الجولة عبر بلاد فارس ، الشيء الوحيد الذى لم يفهمه صالح عن الحكومة الإنجليزية هو اهتمام هذه الحكومة بوقف الاتجار فى العبيد ، قلنا له إن ذلك يحدث منعًا للقسوة لكن صالح أصر على أن الاتجار فى العبيد ليس فيه قسوة ، تساءل صالح قائلاً : " من ذا الذى رأى عبداً تساء معاملته؟ " لم نجرؤ على أن نقول له إننا فعلنا ذلك فقط فى الجزيرة العربية؛ ومن العدل أن نقول إن العبيد مع العرب يشبهون الأطفال المدللين أكثر منهم خدمًا . وكان علينا أن نوضح لصالح أن العبيد فى البلدان الأخرى تساء معاملتهم ؛ لكن نظرًا لعدم اقتناع صالح لم يكن أمامنا سوى إنهاء الحوار بملاحظة عامة مفادها أن ذلك التدخل من جانب الحكومة الإنجليزية هو " شغل حكم "، بمعنى أنه أمر يخص الحكومة وأننا لا شأن لنا به . وقد ظهر لنا أن صالح كان على علم تمامًا بما يجرى فى العالم ، بعد أن سمع عن الحرب الروسية ، لكنه لم يكن على علم تام بما آلت إليه هذه الحرب ؛ ولم يكن لديه علم بمسألة قبرص التى قال عنها : إن الملكة الإنجليزية أُعطيَت قبرص على سبيل البقشيش من قبل السلطان . كانت آخر كلمات صالح : " الصراحة هى الأنفع والأجدى ، أنا صديقكم هنا ؛ لكن يجب ألا يغيب عنكم أننا لسنا فى المدينة (المنورة) ، وذلك احترامًا للدين . "

الفصل الرابع عشر

" هيا ، ميرها ، دعينا نواصل إلى الفرات ".

بيرون

المضى بحثًا عن المغامرة – الطيبية Taybetism – صيد ضبع – طريقه طهو الجراد – التصقر – أبيار (أسبلة) زبيدة – حكايات وأساطير – تطور مفاجئ ومثير يؤلف قصيدة .

اليوم السادس من شهر فبراير: سئمنا التجوال مع الحج ، ولم نعد مهتمين بلقاء ابن الرشيد المتوقع حضوره اليوم . من الحكمة ألا يطيل الإنسان الترحيب به أكثر مما ينبغى ، وبخاصة بعد الوداع . وعليه ، وبعد أن اكتشفنا عدم وجود دلائل على تحرك الحج اليوم ، قررنا مواصلة السير وحدنا وليس بصحبة الحج . لم نقطع مسافة كبيرة ؛ لأننا فى واقع الأمر ، نستطيع من فوق الأرض المرتفعة التى نخيم فوقها ، رؤية دخان المخيم يتصاعد إلى الأعلى عند حافة السهل. المكان هنا فيه مرعى كبير؛ والمنظر جميل من أمامنا فى اتجاه الجنوب والغرب ؛ هذا هو جبل جلدية فى جنوبنا ، وهذا هو جبل أجا فى اتجاه الجنوب الغربى، وهذه حائل تبعد عنا قرابة أربعين ميلاً ؛ فى شمالى النفود ، وإلى الخلف منا وفى اتجاه الشرق من سلسلة الجبال التى تعلو مستوى مخيمنا نرى سبخة تبعد عنا مسافة تتردد بين ستة وسبعة أميال ، فيها واحة البقعة أو الطيبية (هذه الكلمة تعنى السعادة) التى تقع على شواطئ هذه السبخة – هذا المكان، على حد قول الناس هنا ، كان يطلق عليه دائماً اسم البقعة إلى وقت قريب جداً، إلى أن حسبه الناس اسماً غير حظيظ فقاموا بتغييره ، على الرغم من عدم معرفتى أى سبب لذلك ، نظراً لأن كلمة " بقعة " تعنى المكان الذى يمكن أن يتجمع فيه الماء .

طيَّرنا صقرنا اليوم، وبعد محاولتين فاشلتين، اصطاد لنا أرنبًا بريًا . الوديان هنا عامرة بالأرانب البرية، لكن كلاب الصيد تعجز عن رؤيتها فى الأدغال العالية ، والأرنب الذى اصطدناه كان هو الوحيد فى العراء . كنا قد خيمنا فى ساعة مبكرة ولذلك نحن هنا نتمتع بالوحدة والتفرد . سيكون القمر بدرًا فى هذه الليلة ؛ وأنا اشعر بالضيق عندما استشعر ذلك الذى ضاع منا من ضوء القمر بسبب التأخير. والمعروف أن القمر بعد أن يصبح بدرًا يصبح عديم النفع بعد ذلك فى السير فى الصحراء أثناء الليل .

اليوم السابع من شهر فبراير: على الرغم من عدم نقل مخيمنا اليوم، فقد قمنا بجولة طويلة على ظهور الخيل ، وصلنا خلالها إلى قرية الطيبية (*) أو أن شئت فقل البقعة ، التى تستحق الزيارة . الطيبية مكان عجيب جدًا ، يشبه قرية جُبَّة من حيث الموقع . يبدو أن السواد الأعظم من المدن النجدية بينها ملمح مشترك هو أن هذه المدن تقع فى تجاويف ينساب إليها الماء ، وبذلك يسهل فى هذه المواقع حفر الآبار بلا تعب أو مشقة. والطيبية مثل جبة فيها سبخة ، لكنها تعد واحة أهم بكثير من جبة ، نظرًا لأن النخيل يكاد يحيط بالبحيرة كلها ، وعلى الرغم من عدم استمرارية أو تواصل النخيل ، فإنه يمتد لمسافة تتردد بين أربعة وخمسة أميال . منازل الطيبية تبدو مبعثرة على شكل مجموعات بطول هذه المسافة ، وليست هناك بلدة خاصة أو محددة . جيولوجيا هذه المنطقة مهمة جدًا . ذلك أن صخور الحجر الرملى الموجودة عند حافة السبخة تشكل قممًا رائعة غريبة الشكل . بعض هذه القمم على شكل عيش الغراب ، مما يؤكد أن هذه السبخة كانت بحيرة مهمة فى يوم من الأيام بدلاً من هذا الحوض الجاف الذى هى عليه الآن . قمنا بقياس أكبر هذه القمم ووجدنا طولها حوالى أربعين قدمًا وعرضها حوالى خمسة وعشرين قدمًا عند القمة ، وساق يصل طوله إلى حوالى خمسة أقدام ، والكتلة كلها ترتكز على قاعدة شبيهة بقاعدة العمود أو التمثال . بدت لنا

(*) الطيبية هى المكان الذى هرب إليه عبد الله بن سعود قبل عشر سنوات فى إثر طرد أخيه له من العارض ، ومنها أيضًا أرسل عبد الله أيضًا رسالته الخائنة إلى مدحت باشا فى بغداد التى أسفرت عن دخول الأتراك إلى الإحساء وتفكيك الدولة الوهابية .

الصخور الأخرى كما لو كانت قد برزت فجأة عندما كانت تغلى فى درجة الاحمرار ، إذ إن آثار الفقاقيع ما تزال موجودة فى الصخر . شاهدنا ألواحًا عريضة من الحجر وردى اللون الذى يشبه لون الفراولة المخلوطة بالقشدة ، بعد أن جرى سكب المزيد من القشدة ، ولم يجر خلط هذه الأشياء بعضها ببعض ، ولذلك تبدو معرقة بخطوط من اللون الوردى واللون الأبيض . كنا نرى هنا وهناك أجزاء من رمال النفود مع أشجار العدر التى تنمو فى هذه الرمال ، كما شاهدنا أيضًا مجموعات من النخيل البرى وأشجار الأثل التى بينها بركة أو اثنتان ماؤهما مر المذاق. هذه السبخة كانت تبدو لنا، على الرغم من جفافها ، كأنها بحيرة ، نظرًا لأن السراب بلغ مرحلة الكمال من الماء الأزرق الصافى الخالى من التموجات ، عاكسة بذلك النخيل والمنازل التى على الجانب الآخر . قصدنا بعضًا من هذه المنازل ، فوجدنا حدائق غناء جميلة ومزارع طيبة فيها مناطق من الشعير الأخضر . هذه المزارع والحدائق تروى من أبيار يصل عمق الواحد منها إلى خمسة وأربعين قدمًا ، تنتج ماءً طيبًا سائغًا قام الناس بجلبه كى تشرب منه أفراسنا . مررنا على القصر مربع الشكل المملوك لابن الرشيد لكننا لم ندخله ، فى حين كان هناك ستة من دراويش الحج يحومون حول القصر . سألونا عن الأخبار والعلوم – سألونا إن كان الأمير قد جاء أم لا . لم يكن القسم الأكبر من هؤلاء الدراويش من الفرس ، على الرغم من أنهم يعتنقون المذهب الشيعى ، وإنما كانوا من بغداد ومشهد على ، أى أنهم كانوا من العرق العربى .

مررنا فى طريق عودتنا على مجموعة من البدو الشمّر ومعهم إبلهم التى جاءوا بها طلبًا للسقيا من النفود القريبة من هذا المكان . أعطونا شيئًا من اللبن ، وهذه هى أول مرة نتذوق فيها طعم الحليب هذا العام . كان بصحبتهم بعض النساء . التقينا أيضًا رجلاً وحيداً يركب دلولاً (ناقة) شديدة الهزال . أبدى محمد بعض الملاحظات السيئة عن ذلك الحيوان ، ولكن صاحب الدلول رد على تلك الملاحظات ساخرًا ، أن هذا الدلول من بنات عديهان أحسن سلالات الإبل فى الجزيرة العربية ، وأن محمداً لو عرض عليه مئة جنيه إنجليزى ثمنًا لها فإنه لن يبيعها ، وقال أيضًا : إن هذه الدلول هى الحيوان

الوحيد الذى كان يوفده ابن الرشيد دوما بالرسائل العاجلة . وهنا راح الرجل يعدو بالدلول ، وعلى الرغم من شكلها البائس ، استطاعت أن تخفى الرجل عن الأنظار .

عاد كل من عواد وإبراهيم القصير إلى مخيم الحج طلبًا لشىء من الماء ، وجاءا إلينا بخبر عودة الأمير أو وصوله ، وحملا لنا رسالة منه مفادها أننا إذا ما واصلنا السير إلى أبيار شايبة فسوف يلتقينا هناك .

اليوم الثامن من شهر فبراير: قطعنا اليوم خمسة عشر ميلاً من نقطة إلى أخرى، مشكلين بذلك دائرة من حول الطيبية ونحن الآن مخيمون فوق النفود . هذا صبى شمرى اسمه عزّار ومعه ثلاثة دلل رجع من مخيم الحج بالأمس بصحبة عواد ، وتعهد الصبى بأن يرينا الطريق إذا ما أردنا مواصلة سيرنا فى المقدمة . وقال إنه سيسارع إلى السفر معنا بدلاً من الحج ، نظرًا لأن نياقه نحيفة ، كما أنه يخشى أن يأخذها ابن الرشيد لخدمة الحج والحجاج . وهو يود اقتياد تلك النياق بلا أحمال إلى مشهد على ، حتى يمكن أن تسمن على الطريق ثم يقوم بتحميلها بعد ذلك بالقمح فى رحلة العودة إلى موطنه . هذا الصبى يتحدث عن حوالى ستة أو سبعة أيام قبل الوصول إلى مشهد على ، لكن ولفريد مُصِرٌ على أننا لم نقترب بعد من مشهد على مسافة تزيد على عشرين ميلاً منذ مغادرتنا حائل ، وسبب ذلك أننا كنا نتجه شرقًا بدلاً من الاتجاه شمالاً ، وأننا ما يزال يتبقى أمامنا مسافة أربعمائة ميل يتحتم علينا قطعها . وهذا سوف يستغرق منا حوالى عشرين يومًا فى أضعف الأحوال . لكن الخدم لن يصدقوا ذلك. وسوف يتبين لنا الصح من الخطأ . الخدم هم ومحمد لا يودون المسير قبل الحج ، لكن بعد أن توفر لنا عزّار فقد عقدنا العزم على عدم البقاء . ونحن إذا ما تأخرنا سوف تنتهى مؤننا وتموينَاتنا ، وسيكون ذلك أسوأ ما يواجهنا . وهذا هو عوّاد يقول : إن الحجاج يصيحون ويشتكون بصوت عال بأنهم سيموتون جوعًا إن طال انتظارهم على هذا النحو . لقد جلبوا معهم تموينات تكفيهم بضعة أيام ليس إلا ، ولا يوجد مكان قريب يمكن أن يشتروا منه التموينات المطلوبة . أردف عواد قائلاً : " الحجيج جالسون حول النار غاضبين ".

دبت الحياة فى مسيرنا اليوم بفضل الصيد الذى مارسناه ولم يسفر عن شىء . كان الكلبان صياد وشيخة يطاردان قطيعًا من الغزال، وقد نجحا فى تغيير اتجاه القطيع، لكنهما لم يستطيعا الإمساك بأى فرد من أفراد القطيع ، على الرغم من أن فردًا من هذا القطيع مر بالقرب من محمد الذى فتح عليه النار من بندقيته ولكنه لم يصب الهدف – فر قطيع الغزال هاربًا إلى النفود . وطيرنا الصقر يطارد الحبارى ، لكن الحبارى انتصرت عليه وصدته نظرًا لأن عمره لم يتجاوز العام إلا بأيام قلائل ، ولم يسبق إطلاقه إلا على الأرانب البرية فقط . هذا الصقر رشم ليس سوى وسيلة من وسائل التسلية ، وهو يجلس على مجثمه أمام خيمتنا . هذا المكان جميل ومنعزل ، ويبعد مسافة مائة ياردة عن حافة النفود .

اليوم التاسع من شهر فبراير : بعد أن أوفدنا عزّار إلى نقطة عالية لإلقاء نظرة أخيرة على الحج لكن بلا جدوى ، تخلينا عن الحج ، وصممنا على المضى قدمًا بدون الحج . ومع ذلك نحن نشعر بالضيق لأننا مازلنا نتجه شرقًا بدلاً من الاتجاه شمالاً . ورحنا نمشى حول النفود بدلاً من عبورها، لكننا لا يمكن أن نجرؤ على دخول النفود إلا إذا قال لنا عزّار بشكل مؤكد إن ذلك هو الطريق الوحيد . التربة هنا ينتشر فيها الجبس (حجر التلك) الذى يختلط فى بعض الأماكن بنبات الشمام البرى السام . تجاوزنا بئر البيوض (*) Beyud الذى يصل عمقه إلى ثلاثين قدمًا ، ومشينا ست ساعات ونصف الساعة أى قطعنا ما يقرب من ثمانية عشر ميلاً ، إلى أن وصلنا إلى مكان مخيمنا الحالى دون أحداث . عندما نظر محمد إلى النجوم أثناء الليل ، قال لى إنهم يطلقون على برج الجبار Orion اسم الميزان ، ويقولون للنجم القطبى " الجدى " بمعنى " التيس الصغير " . نحن اليوم نحصل على الحليب يوميًا من ناقة عزّار ، وهذا ترف كبير .

(*) واحدة بُيض ، والجمع بيوض . (المترجم)

اليوم العاشر من شهر فبراير : عند الساعة الثامنة وصلنا إلى أبيار شايبة ؛ يصل عدد هذه الابيار إلى أربعين بئراً قريبة من بعضها البعض فى منتصف المساحة الجرداء الكبيرة ، كما توجد بعض تلال الرمل الأبيض إلى الشمال من هذه الأبيار. كانت الريح تهب عنيفة ، محملة بالرمال، وبدا المكان غير مناسب للإقامة إلى حد بعيد ، وهذه مبررات كافية لرفض كل الأفكار الداعية إلى التوقف فى هذا المكان ، أى انتظار الأمير .

تقع شايبة على طريق الحج القديم ، الذى يمر على شرقى حائل ، متجهاً مباشرة بعد ذلك إلى بريدة فى منطقة القصيم والسبب وراء سفرنا إلى هذه المسافة فى اتجاه الشرق يمكن توضيحه فيما يلى : نحن الآن نسير فى اتجاه زاوية قائمة فى اتجاه الشمال ، وأمامنا مدق واضح المعالم . مما سيسهل علينا السير فى هذا المدق (الطريق) ، حتى وإن ضاع منا مرشدنا الشمرى . بعد أن غادرنا الأبيار قطعنا بضعة أميال بين سلاسل من الرمل الأبيض التى كانت تتشكل بفعل الريح : شأنها فى ذلك شأن أكاليل الرمل فى أعالى جبال الألب ، وقد لاحظت أن الرمل الأبيض يكون أنعم من الرمل الأحمر من حيث القوام ، وأنه سهل التأثر بفعل الريح . يضاف إلى ذلك أن الرمل الأبيض لا يتحمل سوى غطاء نباتى صغير ، الأمر الذى يجعل الجبال والسلاسل الصخرية أقل ثباتاً من مثيلاتها فى النفود . بينما كنا نراقب هذه الجبال وتلك السلاسل الصخرية تغيرت الريح ، وكان مهماً أن نلاحظ تغير قمم السلاسل الجبلية تغيراً متدرجاً مع تغير الريح ، كما لاحظنا أيضاً أن الجانب غير المعرض لهبوب الريح يكون دوماً شديد الانحدار ، أما الجانب الذى يتعرض لهبوب الريح يكون مستديراً . رحنا نرتقى بصورة متدرجة تلك الأرض المكسرة إلى أن وصلنا إلى حافة سهل زلطى مستو واستطعنا أن نرى على بعد مسافة أربعة أميال تقريبًا خلف هذا السهل الخط الأحمر لصحراء النفود الحقيقية . وما إن غيرنا ذلك الخط حتى رأينا حيواناً على بعد مسافة نصف ميل وراح ذلك الحيوان يعدو ومن خلفه محمد يطارده ، ظننت هذا الحيوان ذئباً فى بداية الأمر أو بقرة برية، لكننا بعد أن اقتربنا منه اكتشفنا أنه ضبع ، وظهر أنه كان يحمل شيئاً فى فمه . انطلقت الكلاب تطارد ذلك الضبع الذى راح يعدو

بكل ما أوتى من سرعة متجهاً صوب الأرض المكسرة التى كنا قد تجاوزناها منذ فترة وجيزة ، والتى يحتمل أن يكون فيها جحر ذلك الضبع أو عرينه ، وترتب على سرعة ذلك الضبع أن سقط من فمه جزء من الفريسة ، هذا الجزء كان عبارة عن رجل غزال ، كان ذلك الضبع قد جلبه من النفود ، راحت كلاب الصيد الثلاثة تهاجم الضبع بجرأة وشجاعة ، وقد نجح الكلب الصياد فى الإمساك بالضبع من كتفه ، لكن الكلاب لم تستطع إيقاف الضبع وراح يجرى مصراً على الوصول إلى الأرض المكسرة . كان بوسع هذا الضبع أن يهرب لو لم نقف أمامه وسددنا الطريق عليه وهنا استدار الضبع متجهاً إلى الخلف من جديد، وأفلحنا فى طرده لكى يكون أمامنا فى اتجاه المكان الذى تركنا فيه إبلنا وأنا لم يسبق لى رؤية حيوان أجبن من الضبع ، لأنه على الرغم أنه أكبر من أى كلب من الكلاب ، فإنه لم يحاول الاستدارة إلى الخلف للدفاع عن نفسه مثلما يفعل ذكر الخنزير البرى أو ابن آوى ، يزاد على ذلك أن الكلاب كانت شرسة وعنيدة فى هجومها إلى حد أن ولفريد لم يفلح فى توجيه طلقة مباشرة إليه ، ولكنه أفلح فى ذلك فى النهاية الأمر الذى أسفر عن سقوط الضبع مترنحاً عند أقدام إبلنا .

عم الفرح الجميع ، وعلى الرغم من أن كلاً من محمد وعواد أعربا عن شيء من الاشمئزاز فإن عبد الله أعلن بكل شجاعة وعلى الفور أن الضبع (خوش لحم) بمعنى أن (لحم الضبع لحم طيب) وعليه جرى سلخ الضبع وتقسيمه إلى أربعة أقسام وأنا أقر وأعترف أن منظر جسم الضبع لم يكن فاتحاً للشهية ، إذ كان الدهن الذى يغطى الجسم أصفر اللون ومع ذلك فإن الضباع ليست هى المخلوقات الشبيهة بالغول فى المناطق المجاورة للمدن ، وعندما فحصنا معدة الضبع وجدناها مملوءة بالجراد ولحم الغزال الطازج ، وهنا قال ولفريد إن لحم الضبع من الأنواع التى تؤكل ، لكنى بعد أن تذوقت قطعة صغيرة من لحم الضبع لم تطاوعنى نفسى على إكمال وجبتى من ذلك اللحم . وعلى الرغم من احتجاجى بأن هذا الطعام غير نظيف فإن أتباعنا أتوا تماماً على لحم هذا الحيوان الكبير . وأنا لست على يقين من مسألة القرار الذى اتخذه محمد بالامتناع عن الأكل من لحم الضبع .

يشكل الجراد معنا حاليًا قسمًا منتظمًا من تموييناتنا اليومية ، والجراد فى واقع الأمر أداة ممتازة من أدوات الحمية الغذائية . وأنا بعد تجربة الجراد فى صور متعددة توصلت إلى نتيجة مفادها أن الجراد يكون فى أحلى صوره إذا ما كان مسلوقًا . ويتعين نزع الأرجل الطويلة التى يستعملها الجراد فى القفز، ويجرى الإمساك بالجرادة من جناحيها وغمسها فى الملح ثم أكلها بعد ذلك ، وفيما يختص بالنكهة أقول إن نكهة الجراد شبيهة بنكهة الخضروات أكثر منها بالسمك أو اللحم ، وهى لا تختلف عن نكهة القمح الأخضر فى إنجلترا ، ونحن نستعملها عوضًا عن الخضروات التى نحن هنا فى حاجة ماسة إليها والجراد الأحمر أفضل فى الأكل من الجراد الأخضر(*) ، يقول ولفريد إن الجراد سيكون من بين فاتحات الشهية فى المطعم الفرنسى ، وأنا لست متأكدة من ذلك، لأنى قررت فى الرحلات السابقة أن أطباقًا ممتازة أخرى يجب إدخالها فى بلادنا لكن فى وسط ذلك الحشد الهائل من أطباق المقبلات اكتشف الناس أن قيمة الجراد لا تساوى الجهد المبذول فى تحضيره، ذلك لأن الإمساك بالجراد يكون فى فترة الصباح عندما يكون الجراد شبه مخدر بفعل البرد وتكون أجنحة الجراد مبتلة بفعل الندى الأمر الذى يمنعها من الطيران ، يمكن الحصول على الجراد بالمئات على شكل مجموعات تحت الأدغال الصحراوية وبالتالى يجرى جمع الجراد بلا مشقة ، أى بمجرد تعبئته فى جوال أو سلة . بعد ذلك تجفف الشمس أجنحة الجراد وهنا يصعب الإمساك به، إذ يبلغ الجراد من الذكاء حدًا يجعله دومًا بعيدًا عن متناول يد من يطاردونه الجراد وهو طائر يكون شبيهًا إلى حد بعيد بذبابة شهر مايو ، بمعنى أن الريح تأخذه فى اتجاهها ، الجراد يستطيع توجيه نفسه هنا وهناك مثلما يفعل السمك الطائر ، ويمكن للجراد أن يهبط فى المكان والزمان الذى يريده ، واقع الأمر أن الجراد لا يترك نفسه ينجرف ناحية الإنسان أو الإبل ، ويبدو أن لديه القدرة على إدراك وصول العصا إليه . الجراد يخيم هذا العام على البلاد كلها ، وعلى شكل جحافل كبيرة أثناء النهار ،

(*) يقال إن الجرادة الحمراء هى الأنثى أما الخضراء فهى الذكر ، لكن البعض يقولون إن الجراد كله يكون أخضر اللون فى البداية ثم يتحول لونه إلى الأحمر بعد ذلك .

وفى الليل يوجد على شكل مجموعات كبيرة تحت الأدغال الصحراوية . والجراد يلتهم كل ما هو أخضر ، وتلتهمه الحيوانات كلها : قبّرات الصحراء ، والحبارى ، والنسور ، والغربان وكذلك الصقور الجرّاحة أو إن شئت فقل : الصقور الحوّامة . مررنا اليوم بقطعان من الغربان النوحية والصقور الحوّامة ، وهى واقفة على الأرض وهى متخمة بالجراد . والإبل هى الأخرى تلتهم الجراد وهى تتناول غذاءها وكلاب الصيد تتسلى به طول اليوم بأن تروح تأكل من الجراد ما تشاء والبدو يطعمون خيولهم الجراد ، وعواد يقول: إن كثيراً من القبائل ليس لديها ما تأكله سوى الجراد وألبان الإبل، ومن هنا يمكن القول إن الجراد وإن كان يشكل وباء من الأوبئة إلا أن الناس يستهلكونه ويأكلونه .

نحن مخيمون هذه الليلة فى النفود مرة أخرى ، بين الأعشاب وعند حافة فلك من الأفلاك التى اعتدنا على رؤيتها ونحن نغادر الجوف ومع ذلك نجد أن النفود متقطعة ، حيث توجد قطع من الأرض الجرداء بين سلاسل التلال الرملية التى تمتد هنا وبشكل واضح شرقًا وغربيًا. عمق الرمل هنا لا يزيد بحال من الأحوال على ثمانين قدمًا والأفلاك تصبح عديمة القيمة إذا ما قارناها بتلك الأفلاك التى شاهدناها فى أقصى الغرب .

اليوم الحادى عشر من شهر فبراير : انضم إلينا الليلة الماضية بعض الصبية الصغار ومعهم إبلهم ، هؤلاء الصبية بدو من قبيلة عابدى أحد أفرع قبيلة الشمّر ، هؤلاء الصبية فى طريقهم لملاقاة قافلة الحج ، وذلك تنفيذًا لأوامر ابن الرشيد . أعطانا هؤلاء الصبية بعض المعلومات عن الطريق . ابن دوالة يبعد عنا مسير خمسة أيام ، لكننا سوف نلتقى الظافر ، ومعهم شيخهم ابن سويدى فى اليوم الثانى يقول هؤلاء الصبية : إن ابن سويدى لديه نوع من العُطفة ، شبيهة بعطفة ابن شعلان ، لكن هذه العطفة يجرى نصبها مثل الخيمة فى حال خوض أية معركة من المعارك . والعجمان بالقرب من الكويت لديه عطفة حقيقية مزودة بريش النعام وفتاة تروح تشدو أثناء القتال(*) . حكى لنا هؤلاء الصبية الحكاية الشيقة التالية :

(*) قارن هذه الرواية بالرواية التى وردت عند بالجريف عن الحدائية .

يقول هؤلاء الصبية : فى الصحراء وعلى بعد مسير خمسة أيام من هذا المكان فى اتجاه الشرق ، وعلى بعد مسير عشرة أيام من سوق الشيوخ على نهر الفرات يوجد قبر هو مثوى نبى يدعى الريفى، هذا المكان يسميه الناس تلّتين الخراب (*) وبالقرب من هذا القبر توجد بركة أو خزان ملىء دومًا بالماء. القبر له باب مفتوح ولكن من حول هذا الباب ينام ليلاً ونهارًا ثعبان ضخم ، ويكاد فمه وذيله أن يلتقيا ، ولا يتركان سوى فتحه تسمح بمرور من يريد المرور . هذا الثعبان الضخم يمنع دخول الشخص إلا إذا كان درويشًا ، وكثير من الدراويش يدخلون ذلك القبر لأداء الصلاة ، وداخل هذا القبر توجد بئر وهؤلاء الذين يدخلون هذا القبر يزودون (من عند الله) بالطعام مدة ثلاثة أيام بواقع ثلاث مرات فى اليوم لكن فى اليوم الرابع يتعين عليهم الرحيل ، كما أن هناك داخل القبر أسدًا مربوطًا من عنقه .

البركة الموجودة خارج القبر تكون دومًا مليئة بالماء لكن شواطئها تسكنها الثعابين التى تبخ السم فى البحيرة لكى لا يشرب أحد منها لكن فى الماء يأتى الآريل (ذلك الوعل الخرافى) الذى يضرب الماء بقرنه ، وبذلك يصبح ماء البركة عذبًا سائغًا للشاربين وهنا تتبعه بقية حيوانات الصحراء وطيورها وتشرب من الماء ، وشيخ المنتفق يضطر إلى إرسال الإبل والمرشدين مع كل الدراويش الذين يأتون إليه فى سوق الشيوخ طلبًا لزيارة الريفى . ولكن هؤلاء الصبية لم يقولوا لنا إنهم هم أنفسهم رأوا ذلك المكان .

نحن الآن لسنا على الطريق الرئيسية ، فقد تركناها وانحرفنا بضعة أميال فى اتجاه اليمين ، وكان القسم الأكبر من مسيرنا هذا اليوم خلال صحراء النفود . جحافل الجراد نقابلها فى كل مكان ، كما نلتقى أيضًا قطعانًا من الطيور نفسها وبخاصة الصقور السوداء الحوامة ، التى حرص عبد الله على الحصول على واحد منها إذا ما تهيأت الفرصة لذلك ، وعبد الله يقول إن عظام جناح ذلك الصقر تشبه

(*) بمعنى : تلّتا الخراب . (المترجم)

العاج ، وهى تستخدم فى تطعيم خزائن البنادق وسيقان النايات لكن عبد الله لم يفلح فى الحصول على واحد من هذه الصقور على الرغم من أنه فتح نيران بندقيته عليها مرات عدة . كان ولفريد أوفر حظًا فى الحصول على ما كنا نعلق عليه قيمة أكبر ، فقد اصطاد واحدة من الحبارى واتضح أن لحم هذا الطير هو أفضل اللحوم التى أكلناها وعلى الرغم من كثرة الحبارى هنا فمن الصعب اصطيادها ، لكن هذا الطائر كان يهرب من الصقر فاضطر إلى المرور من فوق رؤوسنا .

عند الظهيرة وصلنا إلى مبنى منعزل يقف وسط النفود ويطلق الناس عليه اسم قصر تربة . هذا القصر مربع الشكل وارتفاع سوره يقدر بحوالى عشرين قدمًا وفى كل زاوية من زوايا السور يوجد برج من الأبراج . هذا القصر يحرسه أربعة رجال هم من جند ابن الرشيد الذين رفضوا رفضًا قاطعًا دخولنا إلى ذلك القصر وهددوا بفتح النار علينا إذا ما جلبنا الماء من البئر الخارجية وفى لحظة خطر ببالنا اقتحام المكان الذى كنت أرى أن اقتحامه عملية سهلة وبلا مصاعب نظراً لأن الباب كان متعفنًا فضلاً عن أننا جميعًا كنا عطشانين وغضبانين فى ذات الوقت ؛ لكن التفكر والتدبر فى الجزيرة العربية أمران مطلوبان وضروريان ، وبعد أن تدبرنا الأمر كتمنا غيظنا ومضينا لحال سبيلنا .

بعد ذلك مباشرة أدركنا شاب هو وأمه كانا مسافرين ومعهم ثلاثة من الإبل (نياق) فى الاتجاه الذى كنا نسير فيه . كان الرجل وأمه يقظين وقالا لنا إنهما يبحثان عن أهلهما الذين كانوا فى مكان ما من النفود ، لكنهما لم يكونا يعرفان المكان على وجه التحديد . ومع ذلك ، لم تكن هناك آثار أقدام فى أى مكان ولذلك أمضيا الليل معنا . شخصان لطيفان ، الشاب مطيع لوالدته وحانٍ عليها إذ صنع لها مأوى تحت أجمة من الأجمات مستخدمًا فى ذلك سرج الإبل . هذا الشاب هو وأمه من الشمر وكانا فى حائل لقضاء أمر ما .

اليوم الثانى عشر من شهر فبراير : اضطرتنا خيبة الأمل التى منينا بها بشأن الماء فى الأمس إلى العودة إلى طريق الحج وإلى أبيار خضرة التى تبعد بمسافة تقدر

بحوالى ثلاثة عشر أو أربعة عشر ميلاً شرقى مخيم الليلة الماضية . على كل حال ، مارسنا هواية الصيد ونحن سائرون على الطريق . فى البداية أزعجنا أرنبًا وأطلقنا الصقر فى أثره . النفود عامرة بالأدغال إلى حد أنه فى غياب مساعدة الطائر تعجز الكلاب عن الإمساك بالفريسة إذ تستطيع الكلاب تتبع حركة الأرنب واقتفاء أثره عن طريق مراقبتها لحركة الصقر أثناء الطيران . كان المنظر جميلاً بحق ، الصقر فى الأعلى يروح هنا وهناك والأرنب البرى فى الأسفل يروح هو الآخر هنا وهناك والكلاب الثلاثة تتبع الأرنب وأنوفها مشرعة فى الهواء . وكنا نحن بدورنا نتابع الكلاب ولكن عمق الرمل هو الذى أدى إلى اختفاء الكلاب عن أنظارنا . وفجأة وجدنا أنفسنا عند حافة النفود ، وعند هذه الحافة وعلى بعد حوالى مائة ياردة من سفح آخر ضفة من الضفاف الرملية شاهدنا الصقر هو وكلاب الصيد جالسين على شكل دائرة على الأرض ، يراقبون جحرًا كبيرًا دلف الأرنب داخلاً إليه . بدا على المطاردين الأربعة الحيرة والحماقة إلى حد أننا على الرغم من الضيق الذى أصابنا جراء ضياع الصيد رحنا نضحك ولم نستطع منع أنفسنا من الضحك . الأرانب البرية فى الصحراء تلوذ دائمًا بالأرض طلبًا للفرار . كان محمد وعواد ومعهما عبد الله يتوقون شوقًا إلى إخراج ذلك الأرنب من الجحر وراحوا كلهم يعملون بطريقة ساذجة طوال مدة تزيد عن ساعة ونصف الساعة إلى أن غرقوا فى الرمل إلى أكتافهم (الأرض هنا ليست رخوة) ، لكن جهودهم باءت بالفشل ؛ إذ كان الجحر يتسع لضبع من الضباع وكان نازلاً إلى الصخر الموجود أسفل الرمل ومع ذلك لقينا حظا أوفر ، وبعد أن أزعجنا أرنبًا آخر وحاصرناه فى جحره لم نخرجه هو وحده وإنما أخرجنا معه أيضا ثعلبًا صغيرًا لون شعره رمادى فضى ، حيث كان الاثنان يختفيان معًا . أنا لا يخطر على بالى أن الأرانب يمكن أن تحفر لنفسها جحورًا ، وإنما هى تفيد من أى جحر من الجحور إذا ما اضطرت إلى ذلك . طاردنا أيضًا بعض الغزال .

خُضْرَة فيها أربع عشرة بئرًا ، هى عبارة عن ثقوب فى الأرض بدون أية حواجز أو أى شىء يحدد موقع البئر ، وعندما اقتربنا من هذه الأبيار انزعجنا عندما وجدناها محتلة من قبل جماعة كبيرة من البدو ، كانت تلك الجماعة تشبه الغزو نظرًا لوجود عدد

كبير من الرجال والإبل ، حوالى ثلاثين أو أربعين رجلاً مسلحون بالرماح والحراب ، يزاد على ذلك أن الإبل كان عليها شداد (*) بدلا من السَّرج . لم يضايقنا أحد من هؤلاء الناس على الرغم من اختلاف نظراتهم إلينا قالوا لنا إنهم من الظّافر وكانوا ينتظرون وصول بقية الحجيج ، وقالوا لنا أيضًا إن شيخهم ابن سويدى كان لا يزال على بعد مسافة تقدر بمسير يومين فى اتجاه الشرق وإلى الخلف من قرية لينا التى هى عبارة عن مجموعة أخرى من الأبيار الشبيهة بهذه الأبيار ، وأضافوا قائلين : إنهم سمعوا عنا وعن هدايانا التى قدمناها للأمير ، وبخاصة البندقية التى تطلق اثنتى عشرة طلقة وكذلك باقى الهدايا . غريب جدًا مسرى الأخبار فى الصحراء على هذا النحو . لاحظت أيضًا أن محمد أجاب عندما سألوه بأنه من الموصل ، وقد أوضح لنا فيما بعد أن أهل تدمر عليهم دم (ثأر) قديم مع الظّافر ، نتيجة غزو حدث قبل زمن طويل وجرى فيه قتل عشرين رجلاً من الظّافر(**) وهذا هو السبب وراء قرارنا بعدم زيارة ابن سويتى . يبدو أنه قد دارت مؤخرًا معركة بين الظافر والعمرات (فرع من العنزة) قتل فيها عضو من أعضاء أسرة ابن هدّال ، هذا يؤكد أن العنزة فى غزواتهم يصلون فى بعض الأحيان إلى النفود فى أقصى الجنوب . هذه الأبيار يصل عمق الواحد منها إلى سبعين قدمًا ، والماء الذى يجلب منها يكون له فى البداية رائحة البيض الفاسد ، لكن هذه الرائحة تختفى بعد تعرض الماء للهواء .

الضوء الزاوى واضح تمامًا هذه الليلة ، هذا الضوء يصل قمة بريقه بعد ساعتين من غروب الشمس ، وأنا لم يسبق لى رؤية ذلك الضوء الزاوى فى الصباح قبل طلوع الشمس . هذا الضوء الزاوى يشكل ظاهرة شهيرة وجميلة فى ذات الوقت ولا يرى إلا فى الجزيرة العربية ، وهو عبارة عن مخروط من الضوء يمتد من الأفق إلى منتصف الطريق المؤدى إلى السمت ، وهو أكثر وضوحًا من طريق اللبانة .

(*) شداد : يقصد بها عدة الجمل وهى تختلف عن السرج وتستخدم فى ركوب الإبل .

(**) راجع رواية فتح الله عن الحرب بين المصنة والظافر بالقرب من تدمر فى بداية القرن الحالى . (المترجم)

اليوم الثالث عشر من شهر فبراير : قطعنا اليوم حوالى أربعة وعشرين ميلاً ولم يكن هناك ما يبعدنا عن التركيز على الطريق وبالتالى وصلنا إلى أول سبيل من أسبلة زبيدة .

أدهشنى أن أرى هذا السبيل فوق قمة تل من التلال بدلاً من أن يكون على أرض منخفضة ، وتحتم علينا صعود حوالى مائة قدم كى نصل إلى ذلك السبيل ، على الرغم من وجود أرض مرتفعة وراء ذلك السبيل . هذا السبيل مبنى عبر واد ، وهو عبارة عن كتلة خرسانية ضخمة سمكها حوالى ستة أقدام ، وهو مربع الشكل تقريبًا ، طوله ثمانون قدمًا وعرضه خمسون قدمًا ، والسبيل من الداخل مزود بسلم يساعد أولئك الذين يأتون إلى السبيل لجلب الماء ، لكن هناك شقًا كبيرًا فى المبنى أدى إلى تسرب القسم الأكبر من الماء إلى الخارج ، ولم يعد يتبقى فى السبيل سوى حفرة من الطين مليئة بالماء القذر فى وسط السبيل . وجدنا بعض العرب مع إبلهم بالقرب من ذلك السبيل وهؤلاء العرب ذهبوا لحال سبيلهم عندما رأونا ، لكننا أرسلنا فى طلبهم لنستفسر منهم عن بعض الأشياء وعرفنا أنهم من بنى وهرى ، الذين هم من قبيلة جديدة مركبة تركيبًا مصطنعًا من الشرارات والشمر وبعض القبائل الأخرى ، وقد شكل ابن الرشيد هذه القبيلة وجعل عبداً من عبيده شيخًا على هذه القبيلة . هذه القبيلة يجرى استخدامها فى رعى الإبل والخيول الخاصة بالأمير . بنى وهرى هؤلاء يتحدثون عن رحلة طولها حاليًا يصل إلى مسير ثمانية أيام وصولاً إلى مشهد على ، لكن ولفرد يقول إن هذه الرحلة لا تقل عن خمسة عشر أو ستة عشر يومًا .

وهذا هو محمد الذى كان قلقًا تمامًا من الكشف عن شخصيته ، أصبح حاليًا بعيداً جداً عن تأثيرات حائل ونفوذها وهو يحكى لنا الآن بعض القصص والأساطير ، كلها تتعلق بمحل مولده فى تدمر . محمد هذا لديه موهبة القص وله ذاكرة ممتازة ، كما أن لديه موهبة أخرى تتمثل فى أنه يصدق ذلك الذى يرويه أو يقوله ، وأنا أورد هنا واحدة من حكاياته التى تعد مثالاً ممتازًا على المزج الغريب بين الخرافة والموروث التاريخى الذى يمكن الوقوف عليهما فى حكايات هذا الرجل كلها :

أحب سليمان بن داود نصرانية اسمها الست بلقيس (*) ، هذه النصرانية أرادت أن يكون لها منزل بين دمـشق والعـراق (بابل) ، نظـرًا لجـودة هواء الصـحراء لكن لم يُمْكن العثور على بيت كهذا . هنا أرسل سليمان الذى كان ملكًا للطير وملكًا للبشر أيضًا فى طلب الطير ليخبره بالمكان الذى يبحث فيه عن المكان الذى تريده بلقيس ، وأجاب الطير كله على سؤال سليمان ما عدا النسر، الذى لم يأت بالمرة. وسأل سليمان الطير إن كان أحد منهم يعرف مكانًا جيد الهواء بين دمشق والعراق لكن الطير أجاب بأنه لا يعرف أيًا من هذه الأماكن . وراح سليمان يعد الطير ليتأكد من وجود الجميع ووجد النسر غائبًا وهنا أرسل سليمان فى طلب النسر الذى أحضروه لسليمان وسأله سليمان عن سبب رفضه للاستدعاء الأول ورد النسر أنه كان يرعى والده النسر العجوز الذى بلغ من الكبر حدًا فقد معه ريشه ولم يقو على الطيران أو تقوية نفسه إلا فى وجود ولده ، وسأل سليمان النسر إن كان يعرف المكان الذى تريده بلقيس ، ورد النسر بأن والده يعرف ذلك المكان لأنه يعرف كل أماكن الدنيا إذ يبلغ من العمر أربعة آلاف عام وأمر سليمان بإحضار ذلك النسر العجوز أمامه فى صندوق نظرًا لأن النسر كان عاجزًا عن الطيران ، لكنهم عندما حاولوا حمل النسر وجدوا أنه ثقيل على نحو يصعب معه حمله ، وهنا أعطاهم سليمان مرهما وطلب إليهم أن يدعكوا الطير بذلك المرهم وأن يضربوه على النحو الفلانى والعلانى ، وأنه سيعود شابًا من جديد ، وفعلوا مثلما قال سليمان ونما الريش على ظهر النسر وعلى أجنحته ، وطار النسر إلى سليمان وحط أمام عرشه وسأله سليمان : " أين المكان الذى تريده الست بلقيس فى ما بين دمشق والعراق فى الصحراء حيث الهواء الجيد " ؟ وأجاب النسر قائلا : " إنه تدمر ، المدينة التى تقع أسفل الرمل " وأراهم النسر المكان وطلب سليمان من الجن إزالة الرمل ، وبعد أن أزال الجن الرمل وجدوا تدمر بحطامها الجميل وأعمدتها الجميلة .

لم يكن فى تدمر ماء نظرًا لأن الماء كان محبوسًا فى كهف فى التلال بواسطة ثعبان طوله عشرون ألف ذراع ، كان يسد مدخل ذلك الكهف وطلب سليمان من الثعبان الخروج من الكهف لكن الثعبان قال إنه خائف . ووعد سليمان بعدم قتل الثعبان لكنه

(*) بلقيس هو الاسم الذى يطلق عادة على ملكة سبأ .

ما إن خرج الثعبان إلى منتصفه من الكهف – وعرفوا ذلك من علامة سوداء على جسم الثعبان كانت تحدد نصف طوله – وضع سليمان خاتمه عليه ونفق الثعبان وهنا سحب الجن الثعبان كله إلى خارج الكهف لينساب الماء بعد ذلك . كان الماء ما يزال مسمماً بفعل سم الثعبان ، ولم يستطع الناس الشرب منه ، وهنا تناول سليمان الكبريت وألقى به فى الكهف وصار الماء بعد ذلك عذباً ، ولا يزال الكبريت موجوداً فى تدمر إلى يومنا هذا .

يقول محمد أيضاً : العفاريت تشيع بين أنقاض تدمر ، والأغرب من ذلك أن هناك رجلاً فى تدمر يزيد عمره على المائة عام وأنه عندما وصل إلى العام المائة من عمره ظهرت له أسنان جديدة كاملة وأنه يستطيع الآن أن يأكل كما لو كان شاباً صغيراً (*) . وهكذا مرر محمد علينا المساء .

اليوم الرابع عشر من شهر فبراير : مررنا على كثير من البرك التى بحالة أفضل من البركة الأولى ، ونظراً لأننا أصبحنا بجوار الماء ، فقد بدأنا نرى عدداً كبيراً من البدو على الطريق . جذور ذلك الشمرى (هو وأمه اللذان مازلنا نسافر ونتنقل معهما واللذان بدأنا نحبهما حباً خالصاً) يعرف كل الناس هنا ومن حسن حظنا أنه معنا نظراً لأن بعض هؤلاء البدو لهم وجوه عابسة ، ولهم وجوه تحمل طابع الذّلة (وبخاصة الظافر والسلّم) ولا نحبها أو نستسيغها . اليوم وبينما كنت مع ولفريد نتجول بفرسنا بعيداً عن القافلة جرى نحونا بعض الرجال دون أن يلقوا علينا السلام وبدءوا ينادون علينا ويطلبون منا التوقف لكننا لم نسمح لهم بالاقتراب منا ورجوناهم أن يطرحوا علينا أسئلتهم وهم بعيدون عنا . يتعين علينا الحرص هذه الليلة . أصبح الطريق معلماً ومحدداً بسور مزدوج، وقِيلَ لنا إن زبيدة أمرت بتعليق تنده أو مظلة كيما يتحرك الحجاج فى الظل . لكن هذا هراء وكلام فارغ والأرجح هو أن يكون هذا السور ناتجاً عن تمهيد الطريق وإخلائه من الأحجار الكبيرة التى تغطى السهل .

* * *

(*) قال لى أطباء الأسنان إن مسألة ظهور مجموعة جديدة من الأسنان فى الشيخوخة أمر لا يعرفه العلم إلى يومنا هذا .

بعد أن كتبت هذا الكلام بدأ يحدث شيء عجيب . خيمنا في ساعة مبكرة داخل بركة (سبيل) مهدمة ورتبنا كل شيء استعداداً لليل ، وعندئذ لاحظنا ستة رجال كانوا يركبون إبلاً وقادمين من الشمال الشرقي في اتجاهنا مباشرة ، سرى كثير من الشك والتكهنات فيما بيننا جميعاً حول ماهية هؤلاء الرجال الستة وهل هم أمناء أم لصوص، وهل هم من الشمر أم من الظافر . الواضح أنهم لم يكونوا مجرد جماعة من جماعات الحج ، نظراً لأن كل دلول من هذه الدلل كان يركبه رجل مسلحٌ بحربة وأنهم كانوا يتجهون ناحيتنا وإبلهم تجري وتعدو . اتجهوا مباشرة إلى المكان الذي كنا فيه ، وتركوا جمالهم ، وأنزلوا خُرُجهم ، كما أنزلوا الشداد عن الإبل ، وراحوا ينظمون أمورهم استعداداً لليل . ثم جاءوا بعد ذلك إلى خيامنا ، وحيُّوا كلا من محمد والخدم ، الذين دعوهم للجلوس وتناول القهوة . وفي الحال جاء إلينا محمد ليهمس لنا أنه تأكد أن هؤلاء الرجال من الظافر ، وأننا يجب أيضاً أن نتأكد من ذلك . جلس الرجال الستة وراحوا يتحدثون في أمور عامة ، كما هو الحال إلى أن يجري تقديم القهوة ، لكن بعد شرب القهوة سألهم محمد عن المكان الذي جاءوا منه والمكان الذين يريدون الذهاب إليه. أجاب الرجال إنهم كثيريون موفدون من قبل شيخهم الذي سمع أن ذلك الغريب موجود في ضيافة ابن الرشيد ، وأنهم سيدعون ذلك الغريب للحضور إلى خيامهم . ربما نكون قد سمعنا عن ذلك الغريب ، وأن اسمه محمد أبو عروق . وما اسم شيخهم؟ مطلق ابن عروق ! هذا تطور مفاجئ ومثير ! قرابة محمد الضائعة منذ زمن بعيد ، الأخ الثالث من الإخوان الثلاثة الذين تركوا العارض في القرن الثامن عشر وافترقوا في الجوف ، هذا الأخ الثالث جرى اكتشافه من خلفه والذي خدمه معنا حالياً في مخيمنا . ولنا هنا أن نتخيل مدى فرح محمد ، والنصر المترتب على هذا الاكتشاف واللحظة المناسبة لإعادة التغني بقصيدة ابن عروق . قوافي هذه الأسطورة ذائعة الصيت التي راح محمد ينشدها ويرددها ومن خلفه هؤلاء القادمون الجدد ، هذه القوافي كانت بمثابة أول تنويه لنا عن ذلك الذي حدث منذ زمن بعيد . بعد ذلك جرى إحضار سفراء الكثيريين إلى خيمتنا وقصوا علينا قصتهم . وهنا تخلينا عن كل أفكارنا عن البصرة

وعن مشهد على وعن الحج ، ولم يعد أمامنا حاليًا أية خطة سوى القيام بزيارة عاجلة لهؤلاء الأقارب الجدد . وكان أحد الكثيريين قد شرع عائدًا إلى موطنه ليعلن على أهله ذلك الخبر السعيد ، أما باقى الكثيريين فسوف يعودون معنا صباح باكر . خيام الشيخ مطلق لا تبعد سوى مسير يوم واحد عن المكان الذى نحن فيه حاليًا ، وسوف نلتقى قبل غروب شمس الغد أبناء العم الذين ضاعوا منذ زمن بعيد . وهنا تعجب محمد وهو يطير فرحا " يا الله " !

اليوم الخامس عشر من شهر فبراير : بدأنا رحلتنا إلى الشيخ مطلق متأخرين ، نظرًا لأن محمد فقد صوابه من جديد وراح يلعب دور الجنتلمان ، مثلما فعل فى حائل من قبل ، إذ كان يخشى أو يخجل من أن يراه معارفه الجدد وهو يقوم بأى عمل من الأعمال . وبدلاً من أن يساعد فى حزم الأشياء أو تحميل الإبل جلس الرجل على الأرض وراح يتلاعب بمسبحته ويطلب من عواد أن يجهز له دلوله . هذه مظاهر وأفعال يسعدنى أن أراها وهى تلقى على الكثيريين الذين لا يهتمون بمباهج الحياة بحكم بداوتهم . وحتى عندما بدأنا المسير لم نقطع سوى مسافة قصيرة وهنا بدأت السماء ترعد وتبرق ، بل وبدأ المطر ينهمر غزيرًا إلى حد أن ولفريد أمر بالتوقف عند الساعة العاشرة والنصف . لقد وصلنا الآن إلى البرك (الأسبلة) الكبيرة المليئة بالماء . هذه البرك تقع فى وادٍ يسمونه وادى الروسة وهذا الاسم مشتق من اسم زهرة تحمل هذا الاسم تنمو فى هذا الوادى ، كما أن الناس يمتدحون هذا الوادى لأنه مرعى جيد لكل من الإبل والخيل . يوجد بالقرب منا سبيلان ، أحدهما مستدير والثانى مربع ، وكلاهما مثل السبيل الأول الذى سبق أن شاهدناه . درسنا إنشاء هذه الأسبلة واكتشفنا أن جدرانها بنيت مجوفة ومن الحجر ثم ملئت بعد ذلك بالخرسانة . هذه الجدران صلبة حاليًا مثل الجرانيت ولها سطح لامع . الماء فى هذه الأسبلة رائق تمامًا وجميل وجيد أيضًا . أكبر هذه الأسبلة طوله أربع وستون ياردة وعرضه سبع وثلاثون ياردة وربما يصل عمقه إلى اثنى عشر قدمًا . وهناك خان قديم مدمر يرجع إلى التاريخ نفسه، وهو قريب من السبيل ، كما اكتشف ولفريد بئرًا ضخمة يصل عرضها إلى عشرة أقدام عند

أعلى فتحة البئر ، وهى بئر عميقة جداً . كل هذه الأبيار أو الأسبلة أنشأتها زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد التى كادت تموت عطشاً أثناء رحلة عودتها من مكة مما دفعها إلى حفر هذه الأبيار والخزانات . ولفريد يرى أن أحداً من الأوروبيين لم يسبق له زيارة هذه الأبيار من قبل على الرغم من أنها موقعة على خارطة كسنى Chesney هذا اليوم غير العادى انتهى بغروب شمسه غروباً جميلاً. لم يكن العشاء من لحم الثور ولا من الأعشاب وإنما كان عبارة عن جراد مسلوق وأرز ، مع نوع من الخبز صنعناه من دقيق مخلوط بالرمل .

أما محمد الذى كان يعانى أوجاع التأليف الشعرى منذ حوالى أسبوع ، فقد خلَّص نفسه أخيراً من تلك الأوجاع بالقصيدة التالية التى أحسب أنها تقليد لقصيدة أبناء عروق الأصلية ، التى تأكد من أننا أصبحنا نملها .

قصيدة ابن عروق الجديدة

نهارنا من الشام ، البلاد البعيدة

نمشى مع الوديان والبك الخلاوة

وطبيت على الجوف دار جديدة

يا عز ما تلقى أبروك الخلاوى

نهاريت أبو تركى علومى بعيدة

وباخه للخطار حيلو سمائه

يا مرحبا بالبك والست خاتون

طلبت بنته جال جال جاءتك عطية

والصياغة من البك خمسين ميّة

خاتون يا بنت الأكرام والجوادى

خاتون يا بنت الأمراء والكبار

يا رب سلم لى أخوى البك والست خاتون

يا رب وصلهم ديار السلامة

ودار العجم وبلاد هاد وهنود

ويطب ع البحور السبعة خلاوى

ويطب على لندرا ويكلم الأفنون

ويهاج الصحاب على ما صار جارى

هذه القصيدة من الشعر النبطى ويمكن أن يكون معناها على النحو التالى :

قصة غنائية شعرية شعبية جديدة

خرجت من دمشق البلاد البعيدة

مشيت خلال الوادى المعزول ومعى البك وحده

نزلت فى الجوف أمام بناية جديدة

عزيزة الأرواح التى يأويها . " ضيوف " قال " اجلسوا "

ناديت " مفهوم أبو تركى ، مفهوم " " أقاربك "

" أحضر لهؤلاء أولاً جملاً سميناً ، صاح منادياً

" يا مرحبًا بالبك ، يا مرحبًا بالست خاتون ،

" يا مرحبًا بالقريب البعيد ، فى بيتك "

سألته عن ابنته " خذها بلا مهر "

" مهرها سيكون هذه ، خمسة آلاف " قال البك

يا ست ، يا ابنة العظيم الكريم !

يا ست يا ابنة العرق الأميرى !

يا رب سلم أخى وخاتون ،

سلم وصولهم إلى مساكن الراحة ،

أرشدهم فى فارس وفى الهند ووصلهم

عن طريق البحار السبعة إلى بلدهم سالمين

اجعلهم يرون أصدقاءهم ولندن ،

اجعلهم يحكون عن الأشياء التى عملوها .

الفصل الخامس عشر

" سأرقد هنا وأقيس قبرى

وداعًا أيها السيد الحنون "

شكسبير

مطلق بن عروق والكثيريون – خيولهم – تبنى القبيلة لنا – الحج مرة ثانية – عمبر يجمع الصدقات فى اجتماع عام – مسيرة إجبارية طول مائة وسبعين ميلاً – خسارة جسيمة فى الإبل – النجف .

اليوم السادس عشر من شهر فبراير : وصل إلى هنا ليلة أمس اثنان من أصلان الشمر ، وتعرفا علينا كنا فى مخيم فرحان باشا ، فى العام الماضى ، فى بلاد الرافدين ، كان لقاءً ممتازًا على الرغم من أننا لا نذكر جيدًا أيًا من هذين الرجلين الشمريين . حكوا لنا أحد أنباء الجزيرة السياسية ؛ وقالا لنا إن فرحان وشقيقه فارس فى حرب معلنة ، على الرغم من أن فرحان ليس محاربًا وأنه يترك تسيير الأمور لولده الأكبر عاصى ، وقالا لنا أيضًا إن شمر الجزيرة كلهم يقفون إلى جانب فارس باستثناء حاشية فرحان هم والعابدى والأصلان ، ورجال المطنى قنا القديم سمير بن زيدان . وأكدا لنا أيضًا أن فارس وجدعان أصبحا صديقين وسعدنا لسماع ذلك .

فى هذا الصباح تركنا جدور هو وأمه نظرًا لأنهما لن يواصلا سيرهما معنا فى الطريق الذى نسير عليه . أنا أحبهما وكان ينبغى أن أكون سعيدة إذا أعطيت الأم تذكارًا صغيرًا لرحلتنا مع بعضنا البعض لكن كما هى طبيعة العرب رحل الرجل هو وأمه دون أن يودعونا . كانت مسيرتنا اليوم قصيرة إلى حد ما ، حوالى تسعة

أو عشرة أميال، وما زلنا نسير فى وادى الروسة الذى ما يزال الماء يجرى فيه منذ هبوب العاصفة الأخيرة ، ولا تزال فى الوادى برك هنا وهناك ، كما كان هناك مستنقع كبير ملىء بالبط وطيور اللقلق وطيور الشّنقُب ، كانت تلك أول المياه التى نراها على سطح الأرض منذ أن غادرنا وادى الراجل أى قبل شهرين تقريبًا . الحشائش الخضراء كثيرة هنا أيضًا فى الوادى ويصل ارتفاع الحشائش هنا إلى بضع بوصات وهذه هى خيولنا الجوعانة تتمتع بهذه الحشائش تمامًا . وعندما كنا نتوقف لنترك الخيول والإبل ترعى هذه الحشائش فى هذه المنطقة الواعدة شاهدنا فجأة حوالى ثلاثين دلولاً وعليها ثلاثون راكبًا يمشون عبر التل عن يميننا . وعلى الرغم من احتمال أن يكون ذلك مطلق فإننا جميعًا اتخذنا وضع الدفاع بأن برّكنا الإبل وأمسك كل واحد منا بسلاحه المفضل، أمسك ولفريد بالمسدس فى حين أمسكت أنا بالبندقية فى حين أمسك محمد مسدسه الكبير ، أما عواد فقد وقف مستعدًا شاهرًا سيفه فى يده، فى حين قام عبد الله على أمر بندقيته الطويلة وصوبها ناحية القادمين الجدد ، أما البقية باستثناء عزار الذى يملك سيفًا فكانوا يحملون عصيًا ومع ذلك كان مظهرهم شرسًا .

لم يكن هناك مبرر للذعر أو الخوف إذ سرعان ما انفك واحد من الجماعة التى كانت تقترب منا وراح يجرى نحونا وهو راكب جمله وحيانا بصوت عال وعرفنا أنه هزام ذلك الرجل الذى كان قد سبق ليبلغ مطلق خبر مجيئنا . وفى خلال خمس دقائق كان الشيخ قد نزل عن جمله . كان هناك بطبيعة الحال قدر كبير من الأحضان والقبلات والعناق بين كل من محمد وأقاربه الذين عثر عليهم بعد غياب طويل ودخل ولفريد لينال هو الآخر نصيبًا من تلك القبلات والأحضان . مطلق رجل متقدم فى السن بهى الطلعة هادئ جدًا ومتواضع تمامًا لكنه معتد بنفسه إلى حد بعيد جدًا . وجهه يوحى بالطيبة والحنان الشديدين ، طيبة هذا الشيخ شىء جذاب تمامًا ، وقد استلطفنا ذلك الشيخ استلطافًا كبيرًا على العكس من أقارب محمد الذين فى الجوف وتدمر ، هذا الفرع من العائلة ظل محافظًا على بداوته ولم يختلط بالفلاحين بأى شكل من الأشكال . هذا يعنى سقوط ادعاءات محمد الكاذبة بالأصالة والكرامة فقد أحس محمد

بالخجل أمام بساطة هذا الرجل الطيب كبير السن ، الذى يعد مثلاً حقيقياً لأبناء عروق الذين جاءوا من العارض وعلى الرغم من أن القصيدة جرى التغنى بها مرة أخرى وعلى الرغم أيضًا من سرد سلالة العائلة النسبية ومقارنتها بالسلالات الأخرى فإن هذا التغنى كان يتسم بالتواضع واللباقة ، فضلاً عن الحزن الذى دائمًا ما يلازم الحظ العاثر . لم يكن هنا أى تساؤل حول من يجب أن يحتل المكانة الأعلى إذ كان الشيخ مستعدًا دومًا لاحتلال أو شغل المكانة الأدنى . ونحن نرى هذا الشيخ صاحب جاذبية خاصة فى اهتماماته كما أن تشكراته للهدايا الصغيرة (*) كانت خالية من الزيف والطلاء . سيبقى الشيخ معنا هذه الليلة وسوف يصاحبنا غدًا إلى خيامه .

كان مطلق قد أحضر لنا معه على سبيل الهدايا ثلاثة خراف وكان بصحبته أيضًا صقر شديد الأناقة ، شبيه بالصقر الذى معنا لكنه أكبر منه قليلاً .

اليوم السابع والعشرون من شهر فبراير : تركنا مخيمنا فى وادى الروسة قال لنا مطلق إن المرعى هناك أفضل وأحسن من المرعى التى سنجدها عند خيامه . وركبنا فرسينا كى نزور الشيخ مطلق فى الصباح ونعود فى الليل . كان مطلق يصحب معه فرسه الصغيرة التى كانت مقابلة للشيخ من حيث كبر السن ، وبدون أى تباه سوى بعراقة الأصل . الفرس كحيلة من كحيلات أم الجراس (بمعنى أم الأجراس) ، وكانت ذات يوم ضمن خيول إسطبل ابن سعود . يصعب وصف هذه الفرس صغيرة الحجم نظرًا لأن مزايا هذه الفرس ليست ظاهرة للعيان وأنا على يقين أن تسعة من بين كل عشرة من تجار الخيول الإنجليز سيمرون مر الكرام على هذه الفرس فى سوق تاترسيل Tattersall أو سوق بارنت Barnet للخيول ، ويحسبونها مجرد مهرة صغيرة الحجم عديمة القيمة . هذه الفرس صغيرة الحجم ولا يزيد ارتفاع قامتها على ثلاث عشرة قبضة، ذلك أن مهرة محمد تبدو أطول منها إذا وقفت إلى جوارها والمهرة كستنائية اللون ولها أربعة أرجل بيضاء ورأس الفرس مقبول ولكنه ليس جيدًا تمامًا

(*) جرى العرف دومًا على تقديم هدايا شرفية للشيوخ .

أما ذيلها فجميل بحق . هذه الفرس من سلالة عريقة ولم يسبق ركوبها إلا فى المناسبات الرسمية التى من قبيل هذه المناسبة ، ومن عادة العربى فى نجد أن يركب دلولاً فى المناسبات العادية . وعلى حد قول مطلق : " إذا ما أعطاك الله فرسًا أصيلةً ، فهى ليست للركوب وإنما هى لإنجاب الخيول " وركب الرجل المتقدم فى السن دلوله ، فى حين ركب الفرس صغيرة الحجم ولد عمه الشطى الذى رافقناه وأعطانا بعض المعلومات القيمة . الكثيريون شأنهم شأن بقية قبائل نجد كانوا من قبل تحت حكم ابن سعود ، والكثيريون فرع من بنى خالد الذين هم بدورهم فرع من بنى لام ، تلك القبيلة القديمة العريقة الذى يوجد الجزء الرئيسى منها فيما بين العارض والقطيف ، فى حين هناك فرع آخر من هذه القبيلة استقر منذ قرون مضت خلف نهر دجلة ، على الحدود الفارسية . الكثيريون قل عددهم وأدت الظروف إلى تحللهم وانكسارهم لكن الشطى قال لنا بشىء من الفخر والمباهاة إن الكثيريين بوسعهم الآن تجهيز مائة خيال إذا ما تطلب الأمر ذلك ، هذا يعنى أن ذلك يحدث إذا ما جرى الهجوم عليهم واضطروا إلى القتال . وهذا يوضح أكثر من أى شىء آخر قلة عدد الخيول التى تمتلكها القبائل النجدية . سألت الشطى عن القبائل التى ما تزال تحت حكم ابن سعود ، وتشتهر بتربية الخيول وقال لى : إنهم المطير أو الدوشان نظراً لأن هذه القبيلة تتمتع بهذين الاسمين الذين يستطيعان تجهيز أربعمائة خيال . وأحسن سلالات المطير والدوشان هى الكحيلان العجوز ، والكحيلان القروش ، والعبيان الشرّاك ، والمنيغى الحدروك ، والربيضان ، والكشيبان ، والمطير ليس لديهم خيول صقلاوية مطلقًا ، الأفراس القروشية التى لدى ابن الرشيد جاءت أصلاً من عند المطير ، إذ سبق أن اشترى فيصل بن سعود هذه الخيول من المطير . قال الشطى : يجب ألا نسلم أن أفراس الدوشان كلها أصيلة ، والدوشان شأنهم شأن أية قبيلة أخرى من القبائل النجدية ، وفى أى مكان آخر لديهم ما يسمى (المحسّنة) أو أن شئت فقل المهجنات ، التى يطلق العنزة عليها اسم بنى أو بنات الحصان ، هذا يعنى أن هذه الخيول فيها بقعة فى سلالتها النسبية ومن ثم لا تكون أصيلة ، على الرغم من أنها تبدو جيدة وجميلة مثل الخيول الأصيلة ، هذا يعنى أن السلالات التى لدى الكثيريين هى من : الودنان ،

والريشان ، والربدان Rabdan ، والشويمان . وعندما اقتربنا من خيام الكثيريين التقينا رجلين على دلول ، يقتادان حصاناً صغيراً كوميتى اللون ، واحداً من أجمل الخيول التى شاهدتها فى حياتى ، وقال لنا الشطى إنه من سلالة ودنان الحرسان .

بعد ركوب دام ثلاث ساعات وصلنا إلى بيوت شعر ، وجرى استقبالنا بفيض من الكرم . جرت العادة هنا كما هى فى الصحراء ، على أن يقوم الشيخ باستقبال الغرباء المهمين ، لا فى خيمته وإنما فى خيمة أعدت خصيصاً لهذا الغرض . هذه الخيمة مكان بسيط الحال لا يزيد كثيراً عن كونه مظلة أو تندة ، ومع ذلك كان الاستقبال ودياً وصادقاً . فى هذا المكان تجمعت الشخصيات المهمة فى القبيلة فور انتشار خبر وصولنا ، وأقيمت وليمة على الفور من التمن (الأرز) والزبد الطازج ولبن النياق . من عادة العرب ألا يذبحوا خروفاً إلا فى وجبة المساء (العشاء) .

بعد هذا الاستقبال دخلت للسلام على أسرة الشيخ مطلق وعندما عدت من زيارة العائلة وجدت ولفريد يتفحص الفرس والخيول التى شاهدناها ترعى بالقرب من الخيام. كان هناك حوالى ستة خيول كلها حيوانات متوسطة الحال لكن ليس من بينها خيل من الدرجة الأولى أو جميلة جمال المهر ودنان، ولم يكن بين هذه الخيل حصان يزيد ارتفاعه على أربع عشرة قبضة . كنا ننظر إلى هذه الخيول نظرة إحباط وخيبة أمل ، عندما فاجأنا هزام بن عروق وهو راكب على فرس جميل بحق قال لنا إنها صقلاوية جردان وإنها الفرس الوحيدة المتبقية فى نجد وأردف هزام قائلا : إنهم اضطروا لإخفاء اسم الفرس بضع سنين من باب درء خطر الاستيلاء عليها بالقوة فى الأزمان السابقة، يوم كان الوهابيون أقوياء كان يجرى مصادرة الأفراس الشهيرة والاستيلاء عليها لصالح إسطبلات الرياض . كان ابن سعود يعلن الحرب على قبيلة من القبائل لا لسبب سوى تجريد هذه القبيلة من أفراسها . وابن الرشيد فى الوقت الراهن يمارس ضغوطاً كبيرة على أصحاب الأفراس القيمة حتى يجبرهم على بيع هذه الأفراس لكنه كان يدفع ثمن ما يأخذه . هذه الفرس جرى السؤال عنها من قبل ابن الرشيد ومن قبل ناصر الأشقر وشيخ المنتفق (أو بالأحرى أخوه فهد الحالى) الذى لديه أفضل مجموعة خيول بعد مجموعة ابن الرشيد وابن سعود . هذه الفرس لونها كوميتى براق ومطلقة اليمين ولها

نغز أبيض على الأنف وتتحرك بطريقة رائعة إذا ما ركبها أحد من الناس ، حركتها شبيهة بحركة فرس حمود من حائل ، وتبدو عليها الأناقة أكثر من خصائص السباق . رأس الفرس جيد والعين لامعة وكبيرة والجبهة مسطحة وعظم الفك الأسفل عميق ، كاهل الفرس مرتفع، وظهرها قصير والكف مستدير مثل أكفّ الخيول النجدية كلها ، والعضلات جيدة والحوافر كبيرة ومستديرة .

فرس هزام طولها أقل من أربع عشرة قبضة كلها تقف فوق مساحة كبيرة من الأرض ، ويجب أن يناسب طولها وزنها ، إذ إن الفرس من النوع المدمج الذى يثير العجب . كان يراودنا شيء من الأمل فى شراء هذه الفرس نظير ثمن جيد ، وأعتقد أننا كنا قد وصلنا إلى تقديم العربون بالفعل ، نظراً لأنهم جميعاً كانوا يتطلعون تماماً لشيء من هذا القبيل . لكن لم تكن لدينا النقود الكافية لشراء تلك الفرس ، كما أن الشيك المسحوب على بغداد سوف يصعب عليهم صرفه . الكثيريون يعانون فى هذا العام من كرب عظيم نظراً لعدم سقوط الأمطار فى فصل الخريف وإلى شهر مضى لم يكن لدى الخيول ما تأكله . والخيول حالياً بلا قمح أو تمر ولولا توفر الجراد بكميات كبيرة طوال فصل الشتاء لماتت تلك الخيول جوعاً . وما يزال الجراد المادة الرئيسية فى تغذية هذه الخيول ، وتغذية الحيوان والإنسان أيضاً . ويرى الرائى فى كل مكان كميات كبيرة من ذلك الجراد الذى جرى تجفيفه على النار .

وسط حشد كبير من الأمنيات والتمنيات الطيبة ، استأذنا فى نهاية المطاف فى مغادرة هؤلاء الناس الطيبين . قالوا لولفريد : " ستكون شيخاً علينا عندما تعود إلينا . لن يغار مطلق من ذلك . وسنشن لك حرباً على أعدائك كلهم ، وسوف نصادق أصدقاءك " ، وقد وعدنا مطلق أنه سيكون هناك مجلس عام ينعقد الليلة لتحديد ما إذا كانت القبيلة سوف تتحرك أم لا تتحرك شمالاً حسبما تم الاتفاق عليه ، وإذا ما تقرر الرحيل فسوف ينضم إلينا مطلق فى صباح الغد ، ويصحبنا إلى مشهد على للاتفاق مع القبائل المتداخلة هناك ، إذ يتحتم أولاً وقبل كل شيء الحصول على موافقة هذه القبائل . غريبة حقاً تلك الصداقة التى أقمناها خلال سويعات قلائل مع هؤلاء الناس

أصحاب القلوب الطيبة . نحن أول أوروبيين يراهما هؤلاء الناس وهم ينظرون إلينا على أننا من عالم أسمى وأرقى من عالمهم .

عندما وصلنا إلى عرف التل المطل على وادى الروسة شاهدنا عن بعد فى اتجاه الجنوب دخانًا يتصاعد – إنه الحج .

اليوم الثامن عشر من شهر فبراير : نزلنا إلى البركة نحاول الإمساك وصيد بعض من البط ، وهنا وصلت إلينا طلائع الحج ، ثم بعد ذلك الحج نفسه ، وبذلك يزداد حجم الموكب إلى ضعف ما كان عليه ، ومر ذلك كله علينا ونحن فى الوادى . فى الوقت نفسه ظهر لنا مطلق راكبًا دلوله ومستعداً لمرافقتنا . وقد انشرحت صدورنا لذلك . لقد حصل مطلق على موافقة قبيلته ، والأهم من ذلك موافقة آل بيته من النساء ، على الذهاب معنا إلى مشهد على والتوصل إلى بعض الترتيبات مع شيوخ العنزة حول نزوح الكثيرين فى اتجاه الشمال . أنا أتصور أن النزوح الذى من هذا القبيل حدث مراراً وتكراراً بين بدو الجزيرة العربية فى كل العصور ، هذا يعنى أن الإفتقار إلى المرعى بصورة مستمرة هو الذى يطرد هؤلاء البدو من وسط الجزيرة العربية إلى الصحراء الأكثر غنى بالمراعى فى كل من الشام وبلاد الرافدين . وبهذه الطريقة استطاع كل من الشمر والعنزة الحصول على ميراثيهما الحاليين من الحمد (السهل) والجزيرة ، وبهذه الطريقة وفى أزمان سحيقة هجر الطىء نجد ونزحوا عنها .

كانت معدات مطلق لهذه الرحلة غاية فى البساطة ؛ إذ لم تتعد الملابس التى كان الرجل يرتديها . كان الرجل ومعه مرافق واحد يركبان دلولاً أسود كبير السن ، وكان الشيخ يركب منحنيًا على سرج الجمل ، فى حين كان المرافق يركب فوق كفل الدلول فى الخلف ، وكان سلاحهم عبارة عن عصى ، وكانا يقودان الدلول باستخدام حبل جرى تمريره خلال فتحة أحدثوها فى فتحة أنف الدلول ، وهذه طريقة بدائية . قلنا لحمد : " إذن هذه هى الطريقة التى اتبعها أسلافك فى النزوح عن نجد " . الرجل المتقدم فى السن (مطلق) شديد الورع ، وذلك على العكس من العنزة وقبائل الشمال الأخرى ، بدو نجد هؤلاء يواظبون على الصلاة ، ويدينون بالإسلام ، وكان أول عمل

يفعله مطلق مساء هذا اليوم عندما نزل عن دلوله هو ومرافقه أداء الصلاة . لا يزال محمد وعبد الله يصليان بين الحين والآخر على الرغم من تناقص حماسهما المرة بعد الأخرى مع طول المسافة من حائل. تعبد عواد من نوعية مختلفة تماماً، وقد لا يلاحظها أحد فى بعض الأحيان ، وقد تكون مزعجة فى أحيان أخرى . ولقد لاحظت أن أى ضغط من ضغوط العمل فى تحميل الإبل فى الصباح أو عند نصب الخيام أثناء الليل كان يستنفر فى الناس نوبة من الحماس الروحى . فى الأوقات التى من هذا القبيل يتزايد ترديد عواد لعبارة لا اله إلا الله طوال الوقت ، وقد يسمعها من يكون على بعد مسافة تقدر بحوالى ربع الميل .

عنبر أمير الحج الزنجى ، أحضر لنا معه رسالة من ابن الرشيد ، لقد جاء محمد ابن الرشيد مع الحج إلى خضرة ، ثم رجع إلى حائل ، وعليه لم نخسر شيئًا من عدم مصاحبتنا له فى الغزو الذى كان يزمع القيام به .

بعد أن خيمنا فى ساعة مبكرة أرسلنا كلا من عبد الله وحنا إلى الحج للبحث عن أصدقائنا الفرس هناك ، ودعوتهم لتناول الغداء معنا ، حيث إننا ذبحنا خروفًا ، وقد وصل الفرس إلينا قبل غروب الشمس مباشرة ، على كوليخان وحسين كوليخان وعبد الرحيم الكرمنشاهى . أجلسناهم كلهم على سجادة خارج خيمتنا الصغيرة ، نظراً لأن فترة المساء كانت دافئة ثم جرى تقديم العشاء بعد ذلك ، لكن الذى ضايقنا كثيراً وعلى الرغم من ترتيبنا للأمور ترتيبًا جيداً أن الفرس رفضوا أكل أى شىء متعللين فى البداية بأنهم تناولوا عشاءهم بالفعل ، ثم تعللوا بعد ذلك أن الملالى المرافقين لهم فى السفر منعوهم من الأكل معنا أثناء الحج . كان الفرس مؤدبين جداً ، وقدموا مختلف الأعذار بل إن كل واحد منهم ملأ فمه بالطعام من باب تحاشى وقاحة التصرف ، قال على : إنه لولا المُلا الخاص بأمه لدعانا لتناول العشاء معه نظراً لأن معه طباخ جيد لكن هذا لا يمكن أن يتأتى فى ظل الظروف الراهنة . أما حسين ، وهو ولد وزير سابق فقد تظاهر بأنه يتكلم الفرنسية لكن العبارة الفرنسية الوحيدة التى كانت لديه والتى يبدو أنه استعارها من كراسة من الكراسات هى (العرب L'arabe) مشعوذ Estcharlatan

وراح حسين يكرر هذه العبارة الفرنسية بمناسبة وغير مناسبة ، كلما توقف الحوار فترة وجيزة . هؤلاء الفرس كعادتهم دائمًا يجأرون بالشكوى من العرب ، ونظراً لأن حسين يعد حاليًا خارج ممتلكاته فقد راح يشكو من الأمير الذى اتهموه بأنه سلبهم ونهبهم بشكل مريع ، كما اشتكى الفرس أيضًا من سوء معاملة مقاولى الإبل لهم .

يبدو أن كل حاج فارسى إذا ما شرع فى الذهاب إلى مكة يضع نفسه بين يدى مقاول من مقاولى الحج العرب وغالبًا ما يكون هذا المقاول من مواطنى مشهد على ويتعهد بتوفير النقل إما عن طريق ركوب الإبل أو فى صناديق (شقاديف) أو فى بعض الأكياس أو عن طريق البغال أو الخيول . هذا المقاول يقوم بهذا العمل نظير عربون متقبلاً للأخطار كلها ويتعهد أيضًا بإيجاد البديل عن أى حيوان من الحيوانات التى يحدث أن تنفق أو تصاب بكسور على الطريق وأن يتم ذلك على وجه السرعة وهذه العملية تدعو إلى التأمل والتفكر كما لو كان كل شىء يسير على ما يرام فى الحج . والمقاول يجمع من ذلك ثروات طائلة ، وإذا لم تسر الأمور على ما يرام فقد يخسر الرجل الكثير أيضًا ؛ ففى بعض السنوات تنفق أعداد كبيرة من الحيوانات وهنا يصاب المقاولون بالخراب والدمار ، لكن بشكل عام يجمع أو يحقق المقاولون فوائد كبيرة من هذه العملية نظراً لارتفاع الأجور التى يطلبونها . هؤلاء المقاولون شديدو الثراء وهم أنفسهم يركبون أفضل الإبل أثناء الحج كما يلبسون أيضًا أفضل الثياب . فى الوقت الراهن يصاحب الحج عشرون من هؤلاء المقاولين وهم يتقاسمون الألفى حاج فارسى فيما بينهم. إلى جانب الفرس ، هناك أيضًا حوالى مائة شيعى من بغداد والبصرة لكنهم لا يختلطون بالفرس، وهناك أيضًا حرس خاص قوامه ألف من البدو وهم من رجال ابن الرشيد . وصل إجمالى موكب الحج إلى حوالى ثلاثة آلاف شخص وحوالى خمسة آلاف جمل ، هذا الموكب لابد أن يكون شبيهًا برحلة بنى إسرائيل إلى جبل سيناء .

غادر على كولى خان حائل بصحبة الأمير بعد أسبوع تقريبًا من رحيلنا ، وعليه لم نكن فى عجلة من أمرنا لكننى أرى أننا كنا على صواب عندما قررنا الابتعاد ما دام ذلك كان بإمكاننا .

اليوم التاسع عشر من شهر فبراير : بدأنا فى ساعة مبكرة قبل طلوع الشمس على الرغم من وجود بعض المتخلفين حتى الساعة السابعة . كنا آخر من غادر المكان لكننا كنا قد أرسلنا إبلنا للرعى نظراً لوجود عشب جيد ، وكنا نود لأفراسنا أن تتغذى على غذاء طيب . كان يأتينا بين الحين والآخر حاج من الحجاج ليجلس لحظة إلى جوار نارنا كى يدفئ يديه . نحن الآن قد غادرنا النفود نهائيًا ونمشى حاليًا على أرض حجرية مكسرة . موكب الحج يسير بسرعة تصل إلى ثلاثة أميال فى الساعة الواحدة دون توقف فى الطريق ، توقفنا هذا المساء عند آخر سبيل من أسبلة زبيدة ، هو الذى يسمونه بركة جميمة ، فى هذا المكان توجد أنقاض كثيرة وبئر كبيرة جداً .

يؤسفنى القول إن الصبى عزار تركنا وهو أيضًا كان فى غاية الأسف . كان عزّار خدومًا وأنيسًا ومع افتقادنا له افتقدنا أيضًا حليب ناقته الذى كنا نشربه صباح كل يوم . (ملحوظة : لن نسافر مطلقًا بعد اليوم إلا ومعنا ناقة طلبًا للحليب) لكن جمال عزّار جرى الاستيلاء عليها لقافلة الحج . أعطينا عزار ثلاثة مجيديات (حوالى عشر شلنات) نظير خدماته التى أداها لنا على امتداد عشرة أيام وقد جلب لنا ذلك المبلغ دعاء ودعوات ذلك الصبى لنا . ولا أعتقد أن الرجل كان ينتظر أى شىء منا .

اليوم العشرون من شهر فبراير : توقف الحج من جديد ، بسبب غضب واستياء الحجاج ، هذا هو اليوم العشرون محسوبًا من يوم مغادرتهم حائل ولم يقطعوا أكثر من نصف الرحلة هذا يعنى أن الطريق ما يزال يتبقى منه مائتا ميل . وأن مؤنهم وتمويناتهم التى اشتروها كى تكفيهم ثلاثة أسابيع قد قاربت على النفاد . والذى أدى إلى تفاقم هذا التأخير الجديد هو أنه جاء بناء على طلب من الزنجى المدعو عنبر كيما يتمكن من استجداء الصدقات لتكون مساهمة خاصة لمصلحته هو ، وقد أعلن عنبر على الجميع أنه يتوقع الحصول على مجيدين عن كل رأس وأن القافلة لن تتحرك إلا إذا وصله ذلك المبلغ . هذا المبلغ سوف يشكل كيسًا نقديًا لطيفًا لذلك الزنجى ، إذ ستصل قيمة ذلك الكيس إلى حوالى ثمانمائة جنيه إنجليزى ، ومع ذلك فنحن لنا أسطول فى البحر الأحمر لقمع تجارة العبيد وذلك من منطلق دوافع إنسانية ! والفرس لا حول لهم

أو طول ولا يستطيعون مقاومة ذلك ؛ إذ لا يستطيع أى جمل من الجمال التحرك بدون أمر من هذا الرجل الأسود . ونحن بصفتنا ضيوفًا على ابن الرشيد نصبح معفيين من المكوس والضرائب على اختلاف أنواعها ، لكننا نود المضى قدماً والاستمرار فى الرحلة ، ومن حسن حظنا أننا عندما كنا فى حائل اشترينا تموينًا يكفينا شهراً كاملاً .

كان النهار شديد الحرارة إلى حد أننا رفعنا أجناب الخيمة كلها إلى الأعلى الأمر الذى جعلها شبيهة بمظلة عملاقة . كانت الخيمة منصوبة على تل يطل على موكب الحج وجذبت إليها عدداً كبيراً من الزوار ؛ كان أول هؤلاء الزوار شخصًا يدعى سيد مصطفى أحد مواطنى شستار فى بلاد الفرس لكنه كان يجيد التحدث بالعربية ، هذا الرجل سيد مصطفى كان مسافراً بصحبة على كوليخان ليكون له مترجماً وقد أعطانا الرجل بعض المعلومات عن البلاد الواقعة بين بغداد وبلده الذى كان يقيم فيه . كان على كولى خان قد اقترح علينا مرات عدة أن نواصل السير معه من بغداد حتى يتسنى لنا زيارة والده فى جبال بختيارى وكان ولفريد موافقًا تماماً على ذلك .

كان على كولى خان سيطوف حول النهر إلى أن يصل إلى البصرة ، ثم بعد ذلك إلى قارون ومنها إلى شستار ، ولكن هذه الخطة لم تكن تناسبنا ، لكن سيد مصطفى يقول: إنه سوف يرافقنا عن طريق البر ، على الرغم من وعورة هذه الرحلة . الحدود فيما بين تركيا وبلاد فارس يحتلها بنو لام الذين لا يعترفون بالسلطان أو الشاه ومع ذلك يتعين على بنى لام استقبالنا استقبالاً طيبًا بحكم علاقتنا بأبناء عروق ، كما أن القيام بزيارة لهم يمكن أن تكمل تعرفنا بالقبائل العربية فى شمال نجد .

بعد ذلك جاءتنا امرأتان مسكينتان إحداهما متقدمة فى السن والأخرى شابة ، ترتديان أسمالاً بيضاء اللون ، هما من بغداد ، وقد أديا الحج سيراً على الأقدام وتسألان الناس الخبز والطعام . كانت إحداهما تحمل كويا من الصفيح كان شخص ما قد وضع فيه حفنة من الشعير ؛ أعطيتهما رغيفًا من الخبز انصرفتا به وراحتا تدعوان لى بالخير والبركة وتبدو عليهما القناعة والرضا .

زارنا بعد ذلك بعض البغداديين ، كان واحد منهم يعمل بالجندية من قبل ، أما الآخرون فكانوا من أصحاب المحلات ومع ذلك كانوا يؤدون فريضة الحج ولم يكونوا قائمين بأى أعمال مالية أو تجارية مثلما يفعل السواد الأعظم من العرب هنا .

جاءنا بعد ذلك صبى من الظافر ومعه جمل وقربة مليئة بالزبد الطازج يود بيع هذه الأشياء ، كان الزبد مختلطًا بقراب التمر والشعير وكان أصفر اللون بفعل نبات الزعفران وبعد كثير من التراجع (نظرًا لأن البخل من جانب المشترى يوحى بالاحترام) اشترينا الحمل والزبد نظير مجيدين أى أربعة شلنات .

جاءنا بعد ذلك واحد من جنفانة الشمر ، ومعه حصان كوميت يعرضه للبيع ، والحصان كحيلان عجوز طوله أربع عشرة قبضة وله لغد جميل وكتف جيد وذيل جميل، لكن عينيه كانتا صغيرتين وأنفه غليظًا وعجيزته غير متناسقة وقوى البنية وكمية كبيرة من العظام ، والحصان مُسن بل متقدم فى العمر جداً ونحن لا نريد هذا الحصان .

جاءنا بعد ذلك واحد من أبناء دوالة ومعه فرس وادنة لونها كوميت طولها حوالى ثلاث عشرة قبضة وثلاث بوصات ، أو إن شئت فقل: أربع عشرة قبضة – لها رأس جميل وجبهة بارزة وعجيزة شديدة الجمال وكتف لا بأس به لكن أنفها غليظ وعجيزته غير متناسقة وعالية إلى حد ما بسبب أقدامها وكمية كبيرة من الشعر على رسغها (*) . يبدو أن الخيول كلها هنا فيها هذا العيب نفسه .

سألت جنفانة الشمر عن بئر الوكيزة الموقع على خريطة شيزنى على أن عمقه يصل إلى ثمانمائة قدم ، لكن الرجل ابتسم وقال : " هنا أربعون بئر من هذا النوع " وفرد الرجل ذراعيه وأكد مطلق هذه المقولة ، هذا يعنى أن البئر يرجح أن يكون عمقها مائتين وأربعين قدمًا إذا ما كان العمق بالذراع حسبما قال جنفانة .

(*) العرب يطلقون على ذلك الشعر الكثيف الذى ينمو على رسغ الحصان اسم (ثنّة) بضم الثاء وتشديد النون وفتحها. (المترجم)

كان ولفريد قد ذهب مع كل من سيد مصطفى ومحمد إلى قافلة الحج وشربوا الشاى مع حسين كولى خان ، كما زاروا أيضًا كلا من عنبر وعلى كولى خان ، لكنهما لم يكونا فى خيمتيهما . كان السواد الأعظم من الحجاج مستلقين على ظهورهم نيامًا فى الشمس . كان الجو شديد الحرارة . كانت فرس عنبر البيضاء صغيرة الحجم قد جرى إحضارها لترعى بالقرب من خيامنا ، وسبب ذلك أننا اخترنا أفضل المراعى لنقيم عليها مخيمنا . يقول العبد المرافق للفرس إنها قروشية الفرس رمادية اللون ومتقدمة جداً فى السن وصغيرة الحجم لكنها قوية بالقياس إلى حجمها ورأسها لا بأس بها على الرغم من عدم جمالها ، وكتف الفرس شديد الجمال وغاربها مرتفع وعجيزتها هى العجيزة النجدية المعتادة ولها ذيل مقنطر وأرجل مثل الحديد . وتكملة للصورة أقول : إن لها ركبة متورمة ، وأرجلها الأربع ليست متناسقة بسبب طول وقوفها فى الحظيرة فى حائل وكعوبها عليها شعر كثيف . توجد ضمن قافلة الحج مجموعة من الأمهار الصغيرة اشتراها المقاول لكى يبيعها فى بغداد ، وهذه الأمهار تشبه الماعز أكثر من الخيول .

كانت الريح قد جلبت معها عنكبوتًا سامًا ضخمًا من الرمل إلى مكان قريب من خيمتنا وذلك هو أول الزواحف السامة التى شاهدتها فى هذه الرحلة .

اليوم الحادى والعشرون من شهر فبراير : يبدو أن عنبر مصمم على تعويض الوقت الضائع وقد تعجل الرجل موكب الحج كله طوال النهار ، الأمر الذى جعلنا نقطع ما يزيد على ثلاثين ميلاً .

كان الطريق يمر فى أرض مكسّرة يسمونها وادى البطن ، الذى شاهدنا فيه ثعلبًا وبعض الأرانب البرية التى استطاعت الكلاب الإمساك بواحد منها بعد مطاردة شرسة وهرس أرنب آخر فى الأرض . رافقنا عبد الكريم الكرمنشاهى طوال جزء من النهار وهو يركب أجمل دلول شاهدته فى حياتى ، هذه الدلول (ناقة) كستنائية الوبر البراق لها معطف يشبه الحرير اللامع ، ولها أيضًا عرف جميل أغمق قليلاً عن بقية الجسم ، وعيناها أجمل من عينى الغزال ، وطريقة فى المشى لم أر لها مثيلاً بين الإبل الأخرى .

هذه الدلول قادرة على الجرى وعلى العدو ، وقد لحقت بنا وسايرتنا ونحن نطارد الأرنب البرى على الرغم من أنها لا تستطيع مواكبة خطى الخيل . عبد الرحيم هو وعلى كولى خان يركب كل واحد منهما حاليًا دلولاً ، وهم يرتدون الملابس العربية التى كلها من الحرير والذهب ، وبذلك تحول ذلك الكردى الوضيع صغير الحجم إلى جنتلمان بحق وحقيقة . يضاف إلى ذلك أن السرُج هى والمقاود كلها توحى بالمرح ، وقد حصلا عليها على الرغم من ارتفاع كلفتها . لقد استأجرا ناقتيهما من ابن الرشيد للقيام بهذه الرحلة ، ولقد نسيت تمامًا المبلغ الذى دفعاه نظير ذلك لكن المؤكد أنه كان مبلغًا كبيرًا . يضاف إلى ذلك أن الفرس لا يأكلون الأرانب البرية ، أما على كوليخان الذى يسافر بصحبة مُلا خاص فلن ينضم إلينا فى عملية الصيد . يبدو أن الرجل يحاول الابتعاد عنا لكن عبد الرحيم لا تساوره مثل هذه الشكوك ، بلغنا أن خطبة دينية ألقيت فى المخيم ليلة أمس عن خطيئة التقاء الكافرين والتحاور معهم .

كانت تلك المسيرة متعبة ومرهقة ؛ فقد أنهكت اثنين من إبلنا وكنا قد وصلنا إلى نهاية تموينatنا من الدقيق ولم يعد يتبقى سوى مقدار صغير من الدقيق سيجرى استهلاكه على الطريق . ما يزال ولفريد يقول : إن أمامنا مسافة تقدر بحوالى مئة وأربعين ميلاً نصل بعدها إلى مشهد على .

اليوم الثانى والعشرون من شهر فبراير : مشينا بالأمس فى منطقة منخفضة تحيط بها قمم صخرية شبيهة بقمم الجوف (الناس هنا يسمونها البطن) وفى صباح هذا اليوم وبعد استئنافنا المسير وصلنا إلى نهاية هذه المنطقة المنخفضة وتحتم علينا الصعود إلى مسافة مائتين أو ثلاثمائة قدم وجاءت العقبة الأخيرة شديدة الانحدار .

حدث هنا ارتباك شديد ؛ إذ ضاق الطريق إلى أن أصبح مسارًا واحدًا ، الأمر الذى حتم على قافلة الحج السير على شكل طابور واحد وذلك على العكس مما هو متبع فى الأسفار . زاد انحدار القمة الصخرية من تعب وإرهاق الكثير منا وبخاصة أن هذه الإبل عانت الكثير من رحلة الأمس من ناحية ونقص الغذاء من ناحية ثانية . كان من بين هذه الإبل ذلك الجمل الذى يسمونه شنوان ، وهو أيضًا الجمل القبيح الوحيد من

بين إبلنا ، هذا الجمل استسلم وخر ساقطًا على الأرض . الجمل ليس كبيرًا فى السن لكنه يشكو من المرض منذ مدة وطوال الأسبوع الماضى لم يحمل هذا الجمل سوى سرجه وتحول إلى مصدر لإقلاقنا وانشغالنا كما أن تركنا له وتخلينا عنه يسبب لنا كثيرًا من وخز الضمير . هذا الجمل كان مصابًا بالمرض منذ بداية الرحلة ، واقع الأمر أن هذا كان هو الجمل الوحيد من بين الإبل الذى اشتراها لنا محمد ، وكنا معترضين عليه منذ البداية واستطاع محمد بحججه التغلب على اعتراضاتنا ، وأكد لنا أنه من خلال قوة هذا الجمل وشبابه سوف يتغلب على المرض ، ولكن ما حدث هو العكس ؛ إذ لم يستطع هذا الجمل استرداد قوته ، كما لم ينجُ من التعب الذى أصابه بسبب النفود . هذا المسكين كان ضعيفًا على نحو يصعب معه أن نتركه ، وحاول جاهدًا إلى أن وصل معنا إلى هذا التل الذى صعب عليه تسلقه ، تركنا هذا الجمل شنوان وأنا سعيدة بذلك فى حفرة فى الوادى كان بها شيء من العشب والحشائش ، لكنى أخشى وأخاف أن تكون فرصته فى الحياة صغيرة . معروف أن الإبل يندر أن تستعيد عافيتها بعد الوصول إلى مرحلة معينة من الإرهاق ، ومعروف أن الإبل مثل الغزال تدمر قلوبها ثم تنفق . مسكين يا شنوان ! ليس من السهل علىّ نسيان وجه ذلك الحيوان وهو ينظر شذرًا إلى رفاقه وهم يختفون عند قمة التل . شنوان هو الأول من بين جماعتنا الصغيرة الذى سقط من بين صفوف الجماعة، ونحن مكتئبون لأن شنوان ربما لا يكون هو الأخير .

عند أعلى القمة الصخرية وصلنا إلى سهل شديد الاستواء تنتشر فيه قطع جميلة من حجر الصوّان وسرنا فى هذا السهل المستوى طوال النهار . كان ارتفاع ذلك السهل عن مستوى سطح البحر يقدر بحوالى ألف وأربعمائة قدم ، ونحن هنا نلاحظ أننا منذ أن غادرنا شايبة ، التى تحول الطريق عندها إلى اتجاه الشمال ، بدأنا ننزل بمعدل يقدر بحوالى عشرة أقدام فى كل ميل ، لكن هذا النزول لم يكن منتظمًا بسبب تلك القمم الصخرية التى وصلنا إليها والتى كانت على النقيض تمامًا من انحراف الأرض التى نسير عليها . وعند الظهر وصلنا إلى بركة من ماء المطر سقينا منها إبلنا وملأنا منها قرابنا وذلك حادث سعيد وقطعنا فى هذا اليوم أربعة وعشرين ميلاً .

اليوم الثالث والعشرون من شهر فبراير : هذا السهل الصوانى يسميه الناس هنا محمية ، وهو ووادى البطن يشكلان أرضًا محايدة بين الشمر والعنزة الذين يمثلهم هنا العمرات ، ممثلين فى شيخهم ابن هدّال . فى موقع ما من هذا المكان دارت المعركة بين الظافر والعمرات وانتصر فيها الظافر وقتل فيها بعض بنى هدّال ونظرًا لأن هذه المنطقة محايدة فقد غطت الحشائش الجافة أرض المحمية منذ العام الماضى لأن هذا العشب لم تأكله القطعان ، الأمر الذى جعل منه غنيمة لنا ، حيث لا توجد حشائش طرية أو خضراء فى الوقت الراهن .

وصلنا إلى ما بعد المحمية حيث توجد أيضًا بعض التلال التى عثرنا بينها على أبيار شيراب ، وخلف هذه التلال وجدنا الأرض تنحدر نحو الأسفل إلى أن وصلنا إلى وادٍ منتظم أمضينا فيه فترة العصر سائرين بين منحنياته . هذا الوادى هو وادى الشبيكة ، الذى يضيق فى أحد أجزائه إلى أن يصبح وهدة ضيقة عميقة . من الواضح أن الماء فى وادى الشبيكة لم يعد قديمًا ؛ إذ عثرنا على بعض البرك الرائقة الجميلة التى كان الحج يخيم بجوارها ونحن أيضًا نبعد عن هذا المكان مسافة ميلين حيث يوجد مرعى جميل . هذه إبل الحج بدأ يظهر عليها الضعف والوهن . من الواضح أن هذه المسيرات الإجبارية المفروضة على هذه الإبل (قطعنا اليوم حوالى ثمانية وعشرين ميلاً) بدأت آثارها تظهر بشكل واضح على هذه الحيوانات ، وها هم أصحاب هذه الحيوانات يجأرون بالشكوى بصوت عال . هؤلاء الحجاج الذين استأجروا هذه الإبل لا يعبؤون أو يهتمون بها ولن يسمحوا بإطلاقها ترعى أثناء الرحلة نظرًا لأن ركوب جمل وهو يأكل أثناء الرحلة يعد عملاً متعبًا، يضاف إلى ذلك أن الخيام يتعين نصبها فى المساء فى مكان يتسع لإقامة مخيم كبير ، وبغض النظر عن اعتبارات المرعى فإن هذه الحيوانات المسكينة يتعين أن تقطع مسافة ميلين أو ثلاثة أميال لتصل إلى أماكن المرعى ، أما نحن فنتصرف على نحو أفضل ونختار مكان التخييم قريبًا جدًا من المرعى ومع ذلك لدينا اثنان من إبلنا متعبين ، لكن جمالنا تحمل أحمالاً تقل بكثير عن أحمال إبل الحجاج .

جرى بيننا هذه الليلة حوار جاد مع مطلق عن قبيلة الكثيريين ، ونحن الآن لا مصلحة لنا فى هذا الحوار . وعد مطلق بأنه سوف يأتى إلى الشمال فور توصله إلى بعض الاتفاقات والترتيبات مع السباع ، ووعدناه نحن بدورنا بأننا سنبنى معهم " بيتًا من الشعر " ، وسوف نحتفظ عندهم ببضع نياق وفرس أو فرسين فضلاً عن قطيع صغير من الأغنام . إن حدث ذلك سيكون شيئًا جميلاً ، وسوف يكون محلاً لإقامتنا فى الصحراء ، ومستقلاً تمامًا عن العالم بأسره .

اليوم الرابع والعشرون من شهر فبراير : العقبة الثانية التى كان يتعين علينا تسلقها اليوم – طريق متعرج آخر يمر خلال سهل آخر مفتوح . الشىء العجيب هو حتمية التواء الطريق فى مكان ليس فيه أى عقبة يمكن تحاشيها ، وليس هناك هدف يمكن الوصول إليه عن طريق اللف والدوران . لكن هذا هو الحال هنا بصورة مستمرة ، كل الناس كان يبدو عليهم عدم الرضا عن العمل الشاق ، الذى كانت تُبَثُّ فيه الحياة من حين لآخر عن طريق أرنب برى كان ينطلق فجأة ويروح يجرى بين الحجاج ، ويدور شجار بين الدراويش حول تملك هذه الطريدة . الدراويش الذين يأتون من بغداد ، على استعداد لأكل الأرانب البرية أو أى شىء آخر تصل أيديهم إليه ، وواقع الأمر أن الجميع يعانون آلام الجوع ، الشخص الوحيد متهلل الأسارير من بين جماعتنا هو إبراهيم ، الذى بدأ يظهر من جديد عن طريق إصدار الأوامر . اليوم ، وأثناء مسيرنا ، مررنا على رجل فارسى متين يركب حمارًا صغيرًا جدًا ، وراح إبراهيم يناغش ذلك الفارسى ، لكنه هرب عندما وجد أن الفارسى لم يفهمه ثم جرى بعد ذلك وأمسك بالرجل ، ثم رفع الحمار وصاحبه بين ذراعيه . لم أكن أصدق أن ذلك ممكن ، لولا أنى شاهدت بنفسى أرجل الحمار الأربعة وهى مرفوعة عن الأرض . لم يفهم الفارسى النكتة شأنه فى ذلك شأن بقية الجماعة ، لكنهم أناس متبلدو الحس ، ولهم خبره طويلة فى الصبر جمعوها خلال الأشهر الأربعة الأخيرة .

عثرنا على مكان آمن نقضى فيه الليل ، وبه مرعى جيد ، وعامر " بالجلة " التى تستخدم فى شب النار . هذه هى الشمس قد غربت ، لكن السماء الصافية الباردة كان فيها قمر جديد ، يعكس شيئًا من الضوء .

هذا هو ولفريد مشغول بوضع خطه لقضاء فصل الربيع فى بلاد فارس ، وفصل الصيف فى الهند ، وذلك بغض النظر عن الأنباء التى يمكن أن تطالعنا فى بغداد سواء أكانت من بغداد نفسها أم من أى مكان آخر .

هذه الخطط على الرغم من طلاوتها عند وضعها فهى لا يمكن الاعتماد أو التعويل عليها . لابد أن يكون هناك الكثير والكثير الذى حدث طوال الأشهر التى انقطعنا خلالها عن الاتصال أو التواصل مع أوروبا ، أو مع أى جزء من العالم خارج الجزيرة العربية ، يزاد على ذلك أن الرحال الذى ينفصل عن معشوقاته أو عن أفكاره عن بلده البعيد ، يكون معرضاً لحنين مفاجئ ، إلى منظر الحقول الخضراء والزهور الجميلة اليانعة . هذا يعنى أن مجرد نغمة عابرة تصدر عن طائر مغرد ، ومجرد رائحة تصدر عن زهرة من الزهور ، كل ذلك يمكن أن يؤدى إلى قلب أى خطة من الخطط رأساً على عقب .

اليوم الخامس والعشرون من شهر فبراير: قطعنا بالأمس سبعة وعشرين ميلاً ، أما اليوم فقد قطعنا ثلاثين ميلاً .

الإبل عاجزة عن مسايرة هذا المعدل فى السير ، لكن موكب الحج يمارس نوعًا من الضغط والعجلة لأن الناس يكادون يموتون جوعًا . يقال إننا سنصل غداً إلى قصر رحيم، أول المواقع المتقدمة فى منطقة الفرات ، ويحتمل أن يكون فيها بعض التموينات ، لكن مازالت المسافة كبيرة بيننا وبين تلك القرية ، هذا إن قدر لمعرفتنا أن تكون غير صحيحة . ولفريد لا يحتفظ سوى بمعارف ميتة منذ مغادرتنا لدمشق ، فهو لا يحدد الاتجاه إلا باستخدام البوصلة ، كما يحسب المسافة التى نقطعها كل يوم باستخدام خطو الإبل ، وقد دأب على هذه الطريقة فى الألف ميل التى قطعناها ، صحيح أن هذه الطريقة قد يكون فيها شيء من التجاوز - لكن بناءً عليها تصبح المسافة التى تفصلنا عن مشهد على حوالى سبعة وأربعين ميلاً ، وسوف نمشى هذه المسافة فى اتجاه الشمال الغربى وليس فى اتجاه الشمال من المكان الذى نحن فيه الآن .

أصبح الطقس يتسم بالبرودة ، وطوال النهار كانت هناك ريح قارسة تهب على وجوهنا . هذا هو الغطاء النباتى قد تغير. أرى أشجار السنط فى مكان ما هنا أمامنا، تلك هى أول الأشجار التى رأيناها منذ مغادرتنا حائل ، بعض هذه الأشجار تحمل زهور رائحتها مثل رائحة زهرة البازلاء، والعرب هنا يطلقون على هذه الزهور اسم "جرذة" وعليه أعطت أشجار السنط اسمها للوادى ليصبح وادى الهشب بمعنى "وادى الخشب" .

ألقينا نظرة جيدة على البيرق وهو غير مفرود اليوم ، وهاهو حاج يبدو عليه الاحترام والتبجيل يقول لنا عندما كنا فى مسجد عبد القادر فى بغداد ، وهو يشير إلى الشعار الموجود فى منتصف البيرق ، إن السيف - على حد قوله - هو سيف الله ، ومكتوب تحت هذا السيف " لا إله إلا الله ، محمد رسوله " . على الوجه الثانى من العلم مكتوب : " نصر من الله وفتح قريب " .

اليوم السادس والعشرون من شهر فبراير : هذا يوم عصيب وطويل ، استمر أكثر من عشر ساعات كنا خلالها نصطدم بالريح القارسة التى كانت تخترق كل شىء ، اسودت السماء بفعل الرمل الذى كان يصطدم مباشرة بوجوهنا . ومع ذلك وصلنا بالفعل إلى قصر رُحيم وكانت إبلنا كلها ما تزال على قيد الحياة . وصل عدد إبل الحجاج التى بركت وماتت على الأرض إلى ما يتردد بين ستين أو سبعين جملاً . معروف أن الدلل الجميلة لا تقوى على مقاومة البرد عند خط العرض هذا فى هذه الفترة المتأخرة من الفصل من فصول السنة ، ولذلك نرى أصحاب هذه الدلل وقد أصابهم اليأس والقنوط . كل أفراد موكب الحج غاضبون من عنبر وحانقون عليه ، وهذا الغضب والحنق ليسا مقصورين على الفرس وحدهم وإنما امتدا أيضًا إلى البدو المصاحبين للموكب ، وإلى أصحاب الإبل ، نظرًا لتباطؤ عنبر فى السير فى بداية الرحلة وتسريعه للسير فيما بعد ، قطعنا خلال الأيام الستة الأخيرة مسافة تقدر بحوالى مئة وسبعين ميلاً أى القسم الأكبر من رحلة الحج ، والناس شبه صائمين . ترى ما الذى يقوله الجيش الإنجليزى لعمل من هذا القبيل ؟ ومع ذلك لم يتخلف أحد من الرجال الذين تعين عليهم العدو طول الوقت ، أو النساء اللاتى تعين عليهن فعل

الشيء نفسه أيضًا . أما فيما يتصل بنا شخصيًا ، فلم يكن ذلك التعب جديدًا علينا ، نظرًا لأن التغيير من ركوب الخيل إلى ركوب الإبل والعكس هو فى حد ذاته نوع من الراحة . كان خطو خرير ، ذلك الدلول الذى أركبه أنا هينًا لينًا ، الأمر الذى كان يجعلنى لا أتعب من ركوبه .

نحن الآن هنا فى عز ورفاهية ولم نصل بعد إلى قصر رُحيم ، لكننا نراه ، وقد خيمنا عند حافة مجرى مائى ! المجرى يرتفع فى هذه المنطقة ويقال لها منطقة رى . هناك كمية كبيرة من حشائش السيف الخشنة تنمو بجانب هذا المجرى المائى وكل شىء هنا يبدو أخضر أو يسر الأعين المتعبة من مناظر الصحراء . هذا زوج من الحبارى انزعجا بفعل الغزو المفاجئ لعشهما الذى حسباه بعيدًا ومؤمنًا ضد غوائل الدنيا ، هذان هما الطائران يطيران إلى الإمام وإلى الخلف ، ويستمران فى طيرانهما بفعل الإبل التى ترعى فى المكان ، ويناديان بعضهما بعضًا من بين الأدغال . هذا يبين أننا نقترب من نهر الفرات .

هناك قرية قريبة من قصر رُحيم ، تبعد حوالى ميلين عن المكان الذى نحن فيه ، وهذا عدد كبير من الفلاحين الراكبين على ظهور حميرهم وخيولهم ، جاءوا يحملون مؤنًا وتموينات ليبيعوها لنا ، لكنهم لم يحضروا معهم واحدًا على عشرين من احتياجات قافلة الحج . سمعنا صرخة تقول : " قف يا حرامى " ، هذه الصرخة توضح أننا عدنا إلى الإمبراطورية التركية ! لم نسمع هذه الصرخة منذ أن غادرنا مزارب .

اليوم السابع والعشرون من شهر فبراير : لم تسكن الريح أو تهدأ لكن قل الرمل . يبدو أن على كولى خان هو وعبد الرحيم قد ضاعا ، أو بالأحرى تاها فى عاصفة الأمس . لقد ركبا معنا قسمًا من فترة العصر ، وبعد أن سمعا أن قصر رُحيم ليس بعيدًا عنا ، شرعا يتقدمان موكب الحج فوق جمليهما ، بل إنهما راحا يعدوان بالإبل ولأنهما من الفرس فقد ضلا طريقهم ، وسبب ذلك أن الفرس فى الصحراء يصبحون بلا حول أو طول . كان الرمل كثيفًا فى ذلك الوقت ، ولابد أن يكونا قد خرجا عن الطريق المحدد . وقد أرسل عنبر بعض الناس يبحثون عن هذين الرجلين ، لكن دون

جدوى . لم يصل هذان الرجلان إلى رُحيم ، ونخشى أن يكونا قد توفيا بفعل البرد أثناء الليل .

أدى ذلك إلى تأخير قيام موكب الحج فى ساعة مبكرة وفى لحظة من اللحظات صدرت أوامر بعدم الحركة طوال ذلك اليوم ، وجاء ذلك لصالحنا تمامًا ، نظرًا لوفرة المراعى فى رُحيم ، فضلاً عن أن اثنين من إبلنا كانا قد خارت قواهما تمامًا . ومع ذلك دق الطبل عند الساعة الثامنة واضطررنا إلى تحميل أمتعتنا والمضى قدمًا ، لأننا أصبحنا الآن داخل الأراضى التركية، والطريق هنا محفوف بالمخاطر وهذا يحتم علينا أن نكون جميعًا قريبين من بعضنا البعض. لا جدوى لحماية ابن الرشيد فى هذا المكان.

كان المسير متعبًا ، بسبب الإرهاق الذى أصاب الإبل وذلك على الرغم من فرحنا بمنظر القبة المذهبة التى فوق مشهد على ، والتى تلمع كما لو كانت نجمًا فى بحر النجف الأزرق ، الذى كان يبدو مثل الطيف الجميل . بحر النجف (أو شريط ابن هدَّال كما يسميه العرب) يعد مقابلاً لبركة قارون فى فيوم مصر، أى أن بحر النجف عبارة عن بحيرة اصطناعية جرى عملها عن طريق شق قناة من نهر الفرات ، يصل طول بحر النجف إلى حوالى عشرين ميلاً ، وعرضه حوالى ستة أو سبعة أميال . ويرجع أصل هذا البحر إلى الزمن البابلى ، على الرغم من قول العرب إن الذى صنع هذا البحر هو واحد من السلف يدعى هدَّال ، وأن هذا الهدَّال هو من شيوخ العمرات الحاليين ، وأنه صنع ذلك البحر حتى تشرب منه إبله . كان أبناء هدَّال وإلى وقت قريب نسبيًا سادة على هذه المنطقة كلها ، وكانوا يفرضون إتاوة وجزية على مشهد على والحسين . المدينة تقع على الضفة الشرقية فوق خط من قمم صخرية من الحجر الجيرى، وبقيت تلك المدينة فى مرمى بصرنا طوال اليوم ، عندما كنا ندور ببطء حولها ، كان المنظر جميلاً بحق من الناحية الطبيعية ، لكن ضاع صفاء ذلك اليوم بفعل نفوق بعض من الإبل المسكينة التى ترقد على الأرض حاليًا وبأعداد كبيرة ، وبرفقتها أصحابها التعساء ، أولئك البدو الذين لا يملكون من الدنيا شيئًا غير هذه الإبل ، تراهم واقفين إلى جوار

هذه الإبل والأمتعة والمقتنيات مبعثرة هنا وهناك ، فى حين راح الحجاج يحاولون حمل هذه الأشياء على رءوسهم بعد أن تيقنوا من انتهاء الرحلة .

اندفع كثير من الإبل إلى البحيرة لكى تشرب من مائها ورقدت الإبل بجوار البحيرة وامتنعت عن القيام مطلقًا . بعض آخر من الإبل كان يسبق الواحد منها زميله بقدم واحد وكانت الإبل جميعها تمشى بسرعة ميل واحد فى الساعة وعيونها توحى باليأس وأجسامها هزيلة ولا تحمل شيئًا حتى ولو كان شداداً . أما نحن الذين بدأنا متأخرين لأننا لم نكن مستعدين بل فكرنا فى البقاء هادئين فى رحيم فقد تجاوزنا هذه الإبل كلها وكان من بين الناس الآخرين صديقنا عزار ذلك الصبى الشمرى الذى كان يبكى على نياقه الثلاث التى ماتت منها اثنتان . كان الجميع يلقون باللوم على عنبر وعلى رجل أو رجلين من رجال ابن الرشيد الذى اعتبروه مسئولاً أيضًا عن ذلك التأخير . معروف أن شعبية ابن الرشيد فى الصحراء أقل منها فى المدن والبلدان ، وبخاصة بسبب تصرفاته مع موكب الحج . هذا الرجل ابن الرشيد يؤجر الإبل والرجال بسعر محدد هو عشرة مجيديات ولا يدفع أى شيء نظير الخسائر . والناس يقولون : إن عنبر يخاطر بقطع رأسه إذا ما ذاعت أخبار تصرفاته المشينة بين أهل حائل ، وأنا أرى أنه يستحق قطع رأسه .

أخيراً وصلنا العقبة ، أو إن شئت فقل : المطلع الذى يتجه الطريق عنده إلى القمة الصخرية، وهنا وجدنا أن الإبل بدأت تبرك بالعشرات ، كان عمود ، جملنا الجميل من بين الإبل الأخرى التى لم ترقد أرضًا ؛ هذا الجمل سمى بهذا الاسم لارتفاعه الكبير . كان عمود أصغر سنًا من الإبل الأخرى باستثناء شنوان المسكين ؛ كان عمود يشعر ببعض التوعك منذ أيام عدة . الجمل الذى يرقد أرضًا فى ظروف كهذه يصعب أن يقف مرة ثانية . العمل لا يؤدى إلى نفوق الإبل وإنما نقص الغذاء هو الذى يتسبب فى نفوقها ؛ وما لم يتم إحضار الغذاء للجمل فإنه لن يقوى على الوقوف مرة ثانية . وصل عدد الإبل التى نفقت اليوم بهذه الطريقة إلى ما يتردد بين خمسمائة وستمائة جمل .

تقع مـشـهـد على عند أعـالى العـقـبـة الموجـودة أمـامنا ، خط طويل من الأسـوار القديمة الرائعة التى تحتوى على اثنى عشر برجًا مستديراً ، كلها من الطوب المحروق ، والمبنى الوحيد الذى يظهر عاليًا من بين هذه الأبراج هو ذلك المسجد الذى له قبة مطلية بلون الذهب وله أربعة مـآذن . كل هذه المبانى لونهـا أحمر فى ضـوء شمـس العصـر ، بل إن القبة نفسها كانت تبدو كما لو كانت شمسًا .

وصلنا إلى مشهد على من خلال جمع من الأطفال الأقذار الذين يقفون على قبور ذلك المدفن الشاسع ، الذى يمتد من هذا الجانب إلى مسافة بعيدة من أسوار المدينة . هؤلاء الأطفال الشعث الغبر والأقذار كانوا يصيحون وهم يوجهون بعض الملاحظات الوقحة للحجاج ، كما كانوا يرمون كلابنا بالحجارة ، وكنا سعداء عندما انحرفنا عند زاوية السور ، لنصل بعد ذلك إلى أرض التخييم ، التى تبعد مسافة قصيرة عن الركن الشمالى الشرقى من مدينة مشهد على ، وهنا وجدنا أنفسنا فى أمن وسلام ، ومتسع من الوقت رحنا خلاله نتأمل مسألة انتهاء الحج .

الفصل السادس عشر

" نحن حجاج جسورون
في الصعود ، في الرؤية ، في الطرق
ووصلنا في النهاية " لافونتين

أضرحة الشيعة – أمانة البدو – أسطورة برج بابل – بغداد – تفرق جماعتنا

مشهد على (ضريح على) ، أو النجف كما يحلو للناس أن يقولوا : عبارة عن مدينة شرقية أصيلة ، تقع بالشكل التى هى عليه ، فى صحراء مطبقة ولا يحيط بها شىء سوى قبورها . النجف مربعة الشكل ، ومحيط أسوارها لا تتخلله سوى بوابة واحدة . هذه الأسوار مبنية من طوب القمين المحروق وترجع إلى زمن الخلفاء الراشدين ، وما تزال تلك الأسوار بحالة جيدة ، يجرى تدعيم هذه الأسوار على بعد مسافات متساوية بأبراج مستديرة ، كلها كبيرة الحجم وتوحى بالعظمة . هذه الأسوار تبلغ من العلو حداً تخفى معه كل ما بداخلها من بنايات باستثناء مسجد (سيدنا على)؛ هذا المسجد الكبير له قبة متلألئة من الذهب تبدو كما لو كانت شمساً ساطعة من فوق تلك الأسوار .

فى داخل النجف ، نجد أن منازلها متلاصقة ، لكن هناك نوعًا من التوازى فى تنسيق هذه المدينة ، وذلك على العكس من السواد الأعظم من المدن الآسيوية نظراً لأن السوق الشرقية Bazaar تمتد على شكل خط مستقيم من البوابة إلى المسجد الذى يقع فى منتصف المدينة تمامًا . الدكاكين جيدة أو هكذا بدت لأعيننا التى لم تتعود على أشياء المدن . أنا نفسى لم أجرؤ على التوغل داخل المدينة نظراً لازدحام الشوارع

ازدحاماً شديداً ، كما أننا لم نكن نود جذب الانتباه إلينا وبخاصة فى وقت الحج ؛ لكن ولفريد يصف واجهة المسجد بأنها أثرى وأجمل ما رأى ، فهى عبارة عن كتلة من الذهب وأعمال الفسيفساء التى تكون على صناديق حفظ جثث الموتى . خشى ولفريد من دخول المسجد مخافة الإساءة إلى أصدقائنا الحجاج وترك البقية لأفراد الجماعة الذين أعادوا علينا وزادوا فى وصف روعة القبر .

الشيعة ينظرون إلى الضريح (سيدنا على) باعتباره مساوياً للكعبة فى مكة وجزء من معتقد هؤلاء الشيعة الدينى يفيد أن كل مسلم يدفن على مرأى من القبة يكون واثقًا من دخول الجنة والخلاص . ترتب على ذلك أن الحجاج من سائر أنحاء العالم الشيعى ، وبخاصة من إيران يأتون إلى النجف كى يموتوا فيها ، وأن عدداً هائلاً من الجثث يجرى إرسالها إلى النجف لمواراتها التراب هناك . الواقع أن أتعاب الدفن تشكل المصدر الرئيسى للدخل فى النجف .

هذه المدينة هى وكربلاء التى يوجد فيها ضريح الحسين (ﷺ) يسكن بها عدد كبير من رعايا صاحبة الجلالة من الهنود الذين استقروا واستوطنوا هاتين المدينتين بسبب دوافع دينية، لكنهم يظلون مع ذلك تحت حماية الممثل البريطانى المقيم فى بغداد. هؤلاء الرعايا يعيشون فى وئام مع العرب، لكنهم لا يكثرون من الاختلاط بهم ولا يتزوجون منهم ، كما يحتفظون أيضًا بلغتهم الهندية . وكما هو الحال فى مدن الحج فإن الطبقات هنا تتباهى بالدين ، وقد سررنا عندما استمعنا إلى الابتهالات الدينية التى كان يرددها البيطار الذى جاء لتشقيف خيولنا . هذا البيطار كان يقول مع كل ضربة من ضربات المطرقة : " يا على ، يا حسين ، يا على ، يا محمد " الشيعة كلهم يعادون الحكم التركى عداءً مريراً ، هذا من منطلق دافع العداء الدينى والعداء القومى . مشهد على هى وكربلاء فيهما حاميات قوية ، لكنهما على الرغم من كل شىء كانتا دائمتى الثورة والتمرد على امتداد السنوات الأربعين الأخيرة . عندما كنا فى مشهد كان القائمقام التركى لديه أربع سرايا مشاة خاضعة لأوامره ؛ أما حامية كربلاء مركز رئاسة المنطقة فكانت أكبر من ذلك بكثير .

أما كربلاء التى تقع على بعد خمسين ميلاً شمالى مشهد على ، فتختلف تماماً عن منافستها . كربلاء غير محصنة ، وهى لا تقع فى الصحراء ، وتحيط بها بساتين النخيل شأنها شأن المدن والبلدان النجدية . وكربلاء أكثر ثراءً وأكثر ازدحاماً بالسكان عن النجف ، لكنها لا تهم الرحّال نظراً لأنها ليس فيها أى شىء مميز فى مظهرها . الترعة الهندية التى تمد كربلاء بالماء من نهر الفرات هى التى تجعل من كربلاء مركزاً للمنطقة الزراعية الكبيرة لبشاليك بغداد . يزاد على ذلك أن مشهد على ليس فيها ما يمكنها الاعتماد عليه سوى الضريح .

أصبحنا الآن على وشك استنفاد كل مواردنا من النقود والقوة والصبر ؛ وعلى الفور وبدون تأخير لا مبرر له ، قمنا بتجهيز قافلتنا وشرعنا فى السفر إلى بغداد . وفى الليلة السابقة لرحيلنا وقع حادث غريب .

جاء شاب بدوى إلى خيمتنا وقدم لنا نفسه بوصفه واحداً من شمر الجزيرة ، أحد رجال فارس الذى التقيناه العام الماضى فى الخابور ، رحب الشاب " بالبك " على الفور باعتباره أخاً لسيده ، وأتى على ذكر حادث القرض الذى أعطيناه لفارس ومقداره عشرة جنيهات إنجليزية . وعرض ذلك الشاب سداد ذلك القرض الآن وعلى مسئوليته ، وبعد أن رأى الرجل ثيابنا الرثة وحالنا الرقيق أخرج الرجل النقود من كمه وأعطاها لنا بالقوة . هذا الشاب كان موفداً من قبل فارس لشراء فرس من المنتفق ، وكان معه ثمن تلك الفرس ، - كان الرجل يعلم أن فارس يود سداد الدين - وعلى الرغم من أننا لم نكن نود أخذ النقود فإن هذه الأمانة وذلك الشعور الطيب الذى أرانا الرجل إياه شرح صدورنا ، وكنا سعداء لإتاحة الفرصة لنا كى نرسل رسائل لكل من فارس وطلال ورشيد بن على الذى ظهر أنه كان ما يزال مع الشمر .

غادرنا فى هذه الليلة نفسها . كنا محزونين ونحن نودع الرجل ، كما كان مطلق متأثراً تأثراً واضحاً على نحو جعل الدموع تفر من عينيه ، بكى الرجل ، قال مطلق إنه التقى أناساً من العمرات فى مشهد على ، وقد وعد هؤلاء الناس بتدبير أمورهم مع السباع نيابة عنه ، وعليه فسوف يعود إلى موطنه . لقد قطع مطلق معنا مسافة مأتى

ميل ، ولن نسمح له بالمضى معنا إلى أبعد من ذلك . هذا الرجل كان لديه شيء غير الأسباب التى أبداها لنا ؛ فقد بدأ محمد ولد عمه يغار من مكانة ذلك الرجل عندنا ، وكانت لدينا أسباب تدعونا للشك ، الأمر الذى دفعه إلى تعقيد الأمور أمام الشيخ الكبير أثناء غيابنا وعلى نحو لم نستطع نحن منعه أو إيقافه . يزاد على ذلك أن تلك القصة الخاصة بالثأر بين الكثيريين والمعدان ، تلك القبيلة التى تعيش بين النجف وكربلاء ؛ هذه القصة كانت كفيلة بمنع مطلق من مواصلة السير معنا ، لأنه بطبيعته رجل محب للسلام لكن لم نكن نخاف على الرجل من جماعتنا . وبحسب الأحداث فى تلك الليلة جاء الرجل (مطلق) لتناول العشاء معنا للمرة الأخيرة لكنه لم يأكل شيئًا ، وعندما سألته عن أسباب امتناعه عن الطعام ، قال إن الأسف هو السبب ، وإنه يتعين عليه توديعنا . كان واضحًا أن الرجل كان يقول الحق وكنت على يقين من أن الدعوات التى كان يكيلها لنا والوعود التى كان يقطعها بالمحافظة على ذكرانا حية وخضراء فى قلبه ، كنت متأكدة أن ذلك كان أكثر مما يحسه أو يعتمل داخله ، مطلق هذا ليس بائعًا للكلام . قبَّل ولفريد الشيخ المتقدم فى السن وقبَّل خادمه أيدينا وركب الاثنان ناقتهما السوداء وعادا أدراجهما ، ولم نرهما بعد ذلك .

وصلنا كربلاء بعد ثلاثة أيام من الترحال المريح نظرًا لأننا لم نكن فى عجلة من أمرنا ، وبعد أربعة أيام وصلنا إلى بغداد وهنا أجدنى آتى على ذكر حادث واحد وقع لنا على الطريق . بينما كنا نمر بالقرب من برج النمرود أو بالأحرى برج بابل ذائع الصيت ، توقفنا لقضاء الليل عند بعض خيام المسعود ، قبيلة من أشباه الفلاحين من الضفة اليسرى لنهر الفرات ، حيث كان المسعوديون يزرعون الشعير فى بعض الأراضى المروية ، كان شيخ المسعود الحاج تيما غير موجود فى المخيم ، لكن ولده فوّاز استقبلنا وحكى لنا بعد العشاء حكاية النمرود ، مؤسس برج بابل قال : كان النمرود رجلاً غير متدين ، وكان يعتقد أن الشمس إله ، ولكى يعلن النمرود الحرب على ذلك الإله قام ببناء هذا البرج ، لكنه عندما اكتشف أنه لن يستطيع الوصول إلى ذلك الإله من هذا الطريق أو بهذه الوسيلة ، أمر النمرود ببناء حلبة فى منتصفها عمود وفى كل ركن من أركان الحلبة قيد النمرود نسرًا ، ثم علق على العمود خروفًا وطارت النسور بالحلبة التى كان يقف عليها النمرود . وعندما اكتشف النمرود أنه أصبح قريبًا

من الشمس أطلق عليها سهمًا من سهامه ودمر الرب البرج من باب عقاب النمرود . واليزيديون يعبدون النمرود والشيطان هناك إلى يومنا هذا .

خلف كربلاء كان طريقنا يمر عبر أرض مزرعة إلى أن وصلنا نهر الفرات الذى عبرناه عن طريق جسر من القوارب فى المسيب ، لنجد أنفسنا بعد ذلك بين جبال بابلية ، ترع بابلية وحقول مهجورة ، تلك ملامح العراق المملة والسقيمة . أوصلتنا هذه الحقول فى نهاية المطاف إلى بغداد التى وصلنا إليها بقدر غريب ، عندما كانت غارقة فى مطر غزير ، والتى جرى استقبالنا فيها بين جدران القنصلية البريطانية الكريمة فى بغداد ، وفى اليوم السادس من شهر مارس بدأنا من جديد ننام فى أسرّة غاب عنا ترفها طوال ثلاثة أشهر .

هنا ، فى القنصلية ينتهى حجنا إلى نجد ، الذى وإن كان محفوفًا ببعض العقبات والمتاعب إلا إننا قمنا به بنجاح دون وقوع أحداث تكدر صفونا ، هنا لو قدر لنا أن نكون أكثر تعقلاً لأنهينا المغامرات التى قمنا بها فى فصل الشتاء أيضًا . لقد كنا سعداء إلى أبعد ما يمكن تصوره لذلك الذى انتوينا رؤيته وفعله من منطلق أن ذلك كله داخل فى موضوع الرحلة التى نقوم بها ، ولم يحدث أن كان يومًا واحداً من الأيام الأربعة والثمانين التى أمضيناها فى الجزيرة العربية غير مهم أو خالٍ من الرومانسية . وما حدث بعد ذلك لم يكن مفيداً أو مناسبًا ولذلك تركناه دون الإقدام على القيام به .

تفرقت جماعتنا فى بغداد بحكم الضرورة ، وكان من بين الرسائل التى كانت فى انتظارنا فى القنصلية تلك الرسالة التى وصلت باسم محمد بن عروق والتى حتمت وأكدت على عودته إلى تدمر . وقعت أحداث كبيرة فى تدمر أثناء غياب محمد بن عروق وفى الوقت نفسه أحسسنا أيضًا بوخز الضمير لأننا أحزنّاه وأبعدناه وقتًا طويلاً عن مهامه ومصالحه فى موطنه . السياسة فى تدمر معقدة إلى حد ما . معروف أن والد محمد عبد الله ليس هو الشيخ الشرعى للبلدة ، هذا يعنى أن ابن عمه فارس هو الرئيس الحقيقى من بين أبناء عروق ، كان عبد الله على امتداد بضع سنين يتمتع بمساندة الحكومة ، ومن ثم فهو المعيَّن من قبل الأتراك .

كانت تدمر مقسمة إلى حزبين أو طائفتين (*) ، يرأس محمد حزبًا منهما أما فارس فكان يرأس الحزب الثاني ، كان محمد بن عروق ممثلاً لوالده الذي بلغ من التقدم في السن مبلغًا يصعب عليه معه فض المنازعات ، وما دام الأتراك هم أصحاب اليد العليا في تدمر ، فإن ذلك كان يمكن حزب محمد من التصرف على هواه . ومع ذلك لم يكن أي حزب من الحزبين يتمنى الخير للسلطان ؛ وأثناء الحرب الروسية كان محمد واحدًا من أوائل أولئك الذين رفضوا الفيلق الذي طلبوا إلى أهل تدمر تشكيله لكي ينضم إلى الجيش التركي ، لكن يجب ألا يغيب عنا أن المشاجرات العائلية قاسية وشديدة بين العرب ، وهنا نجد أن العرب يستغلون مسألة العون والمساعدة وقد يقبلونها من العدو والصديق وبذلك يكون محمد من المساندين للسياسة التركية في موطنه ، وبالتالي كان يحصل على تأييد الحكومة التركية . لكن بعد استسلام بلفنا Plevna، وبعد تدمير جيش السلطان في البلقان جرى ترك تدمر لحال سبيلها وهنا راح فارس من جديد يؤكد على حقه في الشياخة ، على الرغم من أن التوازن الذي كان بين الطرفين لم يسمح بوقوع أي حادث من الأحداث الخطيرة التي تعكر الصفو ، ولم يحدث أن تبادل محمد وفارس الطلقات النارية إلا في مناسبة واحدة دون أن يترتب على ذلك نتائج مؤسفة . حدث ذلك على سبيل التحدي للاعتراضات من جانب والد محمد ومن جانب أصدقائه على مرافقة محمد لنا في رحلتنا ، وفي اللحظة التي غاب فيها محمد اندلعت الحرب . كان مراسلاً قد أوفد لاستدعاء محمد قبل أن يمضي أسبوع على بداية رحلتنا من دمشق ، وهذا اليوم رسالة أخرى تصل إلى محمد تحيطه علمًا بسفك الدماء الذي يجري في تدمر ، كانت تلك الرسالة وتلك الأنباء كافية لإنهاء رحلتنا التي بدأناها معًا ، وعلى الرغم من أن محمد كان على استعداد من الناحية الدينية لقبول الحقائق الواقعة والتسليم بها بتعبيره الشهير " الله كريم " فإن الرجل كان في عجلة من أمره وكان يود العودة بأقصى سرعة ممكنة ، وعلى الرغم من أننا كنا نود لمحمد البقاء معنا فلم يكن باستطاعتنا أن نطلب منه المضي معنا أكثر

(*) هناك وصف كامل لكل هذه الأمور في كتابي المعنون " قبائل الفرات البدوية " .

من ذلك – كلنا لم نكن راغبين فى ذلك ، ذلك أن التصرف الأحمق الذى أتاه فى حائل – والذى سنحاول أن نغفره له – خلف فيما بيننا موروثًا معينًا ، وكان هو ونحن أيضًا على علم تام بذلك المورِّث ، وعلى الرغم من أنه بذل الكثير من أجل التكفير عن هذا السلوك ، فنحن جميعا آثرنا الافتراق . كان ما يزال هناك شيء من الحزن فى افتراق محمد عنا فى رحلة كهذه ، ومحمد كعادة العرب راح يذرف الدمع لأنه تصرف فى ذلك الحادث تصرفًا غير لائق معنا ، وراح يعلن من جديد ويؤكد على ولائه وإخلاصه لنا . ونحن من جانبنا حاولنا إراحته قدر المستطاع عن طريق خطابات التزكية للولاة والقناصل الذين هو بحاجة إلى حمايتهم ، كما زودناه أيضًا بالسلاح والذخيرة فى حدود إمكاناتنا وعليه ذهب محمد وعبد الله وعواد الحرامى ، ذهبوا إلى حال سبيلهم ومعهم أربعة نياق من إبلنا ، أعطيناهم إياها لتحملهم فى رحلة العودة وودعناهم ولم نرهم بعد ذلك .

كنا نتمنى إقناع حنا على الاستمرار معنا نظرًا لأن هذا الرجل لم يتخلَّ عنا إطلاقًا فى العقبات التى اعترضتنا ، يضاف إلى ذلك أن الرجل هو وابن عمه الطويل كانا يساعدانا بإخلاص فى الوقت الذى كان يعرض الآخرون فيه عن هذه المساعدة أو يرفضونها ، لكن حنا كان قد انتابه الحنين إلى الوطن ، كما أن الطويل لا يود الافتراق عن حنا ، وعليه التحق الاثنان فى يوم من الأيام بقافلة من القوافل التى تستعمل البغال والبغالة، كانت على وشك السفر إلى الموصل، وتركونا بمزيد من الدموع

(*) ملاحظة : لم نسمع على امتداد عام كامل أى شيء عن محمد ، ثم سمعنا بعد ذلك عن دخوله السجن . ومن باب صحوة الضمير التى ليست بحاجة إلى شرح أو توضيح عند من يقرءون هذه الحكاية ، نجد أن محمد هو الذى قدم نفسه للعدالة العثمانية . فقد عثر على رجل من حزب فارس مقتولاً فى تدمر وأشار أقارب القتيل إلى أن اليد التى فتحت الطلقة هى يد محمد . كان الأتراك قد قاموا باحتلال تدمر مرة ثانية وكانوا يودون أن يعطوا العبرة لمن لا يعتبر ، فأمسكوا بمحمد وقيدوه بالأغلال وأرسلوه إلى السجن فى دير ومن دير أتيحت لمحمد الفرصة كى يرسل لنا أخباره ومصائبه ، وكان ولفريد راضيًا تمامًا عن القيام بالتزاماته الأخوية عن طريق التوسط لدى الباشا ، نيابة عن محمد لينجح فى إطلاق سراح محمد فى نهاية المطاف .

القسم الثانى

رحلتنا إلى بلاد فارس

الفصل الأول

" اثنان فى بلاد فارس "

– بلوتس Plautus

" قلت : وا أسفاه ! هل كان يمكن أن أموت تحت أقدام
عنكبوت ، أنا التى لم ألبث أن أنجو من مخالب أسد "

– حكايات إيذوب Fabisd `Esope

خطط جديدة واستعدادات جديدة – مغادرة بغداد إلى بلاد فارس – اصطياد دب برى فى الوديان – حادث فظيع – ترحال بصحبة رجل متدين – مخيمات بنى لام – إنذار .

عثرنا فى الخطابات التى كانت تنتظر وصولنا إلى بغداد ، على دعوة من اللورد ليتون Lytton وحرمه لقضاء الصيف، أو جزء منه ، معهما فى سيملا Simla . وقد رأينا فى هذه الدعوة فرصة ، قد لا تسنح لنا مرة ثانية ، للسفر إلى الهند بطريق البر ، ويمكن أن تشتمل خطتنا على زيارة جبال بختيارى ، التى يوجد فيها معارفنا من أيام الحج : على كولى خان ، الذى يتخذ من هذه الجبال موطنًا له . كان على يتحدث معنا دومًا عن والده ، وعن خيوله الرائعة الأصيلة العربية الأصل ، التى يملكها أفراد عائلته ، وتوقع رؤيتنا لهذه الخيول ، وكذلك القبيلة التى يقال إنها أقوى القبائل فى بلاد فارس ، كل هذه الأمور كانت تشكل نوعًا من الجذب الذى لا يمكن إنكاره . كان على كولى خان قد عرض علينا ، فى واقع الأمر ، السفر معنا على أن يقوم هو بنفسه

بتقديمنا إلى أهله ، ولو أتت الريح بما تشتهيه السفن ، لكنا وبلا أدنى شك ، قد أنجزنا هذا الجزء من الرحلة بقدر كبير من الراحة والاطمئنان . من سوء الطالع ، أننا عندما استأذنا فى ترك الحج عندما كنا فى مشهد على ، لم يكن صديقنا على كولى خان موجوداً حتى نتخذ معه الترتيبات اللازمة ، أو حتى نودعه قبل رحيلنا . كان على كولى خان قد ضاع أثناء العاصفة الرملية ، الذى سبق أن قلت : إنها هبت علينا فى اليوم قبل الأخير من الحج ، وعلى الرغم من أننا وصلتنا أخبار سلامته قبل سفرنا إلى كربلاء ، فلم تتهيأ لنا فرصة الالتقاء به . وترتب على ذلك عدم مجيئه معنا أو إعطائنا خطاب منه إلى والده ؛ وفى نهاية المطاف تحركنا وحدنا ، وهذا خطأ له من الأسباب ما يبرر الندم عليه . كنت أرى أن خطة السفر إلى الهند بطريق البر تفتقر إلى الحكمة فى ظل الظروف القائمة ؛ لكن تعطش ولفريد إلى الاستكشاف لم يَقِل - قال ولفريد : إن فصل الربيع على وشك أن يبدأ ، وإن رحلة الربيع فى بلاد فارس يمكن أن تكون بمثابة أبهج شيء فى هذه الدنيا ، وإن بوسعنا الوصول فى أية لحظة من اللحظات إلى ميناء من موانئ الخليج الفارسى ، إذا ما اشتد الحر علينا . كانت وسائل النقل متوفرة لدينا . ويجب أن نتوقع شيئًا من المصاعب فى التخلص من إبلنا فى بغداد، والأفضل لنا أن نفيد من هذه الإبل ؛ وعلى الرغم من أننا أصبحنا حاليًا بلا خدم ، فإن الخدم يسهل الحصول عليهم من هنا ، من بغداد . وعليه وفى يوم سيء ، وبلا أى تفكير فى العقبات والأخطار التى كانت تنتظرنا ، وجدنا أنفسنا نتخذ قرارنا بالمضى قدما فى الرحلة . كان هناك ظرف نهائى لابد من البت فيه ، لكنه لم يخطر لنا على بال . معروف أن النقيب كاميرون Cameron، الرحَّال الأفريقى ، كان قد وصل إلى بغداد ، مستهدفًا من ذلك القيام بمسح لإنشاء خط حديدى هندى - متوسطى يبدأ من طرابلس إلى بوشهر ، ومن بوشهر إلى جزر الهند ، وكان النقيب كاميرون قد قام بالفعل بالمراحل الأولى من المسح ؛ وعرض ولفريد مساعدته للنقيب كاميرون فى أخطر أجزاء ذلك المسح . واتفق الاثنان على أن يسلك كل منهما طريقًا أو خطًا مختلفًا عن خط زميله اعتبارًا من بغداد ، على أن يلتقيا بعد ذلك فى بوشهر أو بندر عباس ، على أن يقوما بعد ذلك بمقارنة الملاحظات تمهيداً للوصول إلى أفضل خط للسكة الحديد من دجلة إلى الخليج الفارسى

. تقرر للنقيب كاميرون السير على الضفة اليسرى للنهر إلى أن يصل إلى العمارة ، ثم يمشى بعد ذلك عبر سهول المستنقعات إلى أن يصل إلى الأهواز وبندر ديلم ، فى حين يتعين علينا الاتجاه إلى أقصى الشرق على أن ندور حول الحمرين وتلال بختيارى . تقديم المشروع على هذا النحو ، كان يبدو مفيداً ، إن لم يكن مناسبًا ، واكتسب بذلك هدفًا محدداً ، إذا ما تسبب لنا فى أخطار لا لزوم لها ، فإنه قد يضطرنا إلى تحمل هذه الأخطار فيما بعد . وبذلك تكون المهمة قد أصبحت شيئًا مستقراً .

من سوء الطالع ، أننا أجرينا استعداداتنا بقليل من التفكير مثل القرار الذى اتخذناه . عندما وصلنا إلى بغداد ، كنا ، كما سبق أن قلت ، قد ودعنا محمد هو والجمّالة ، بل الأكثر من ذلك ، أننا سمحنا لكل من حنا و إبراهيم ، اللذين كانا يساورهما الحنين إلى الوطن ، أو أنهما سئما الترحال ، بأن يرحلا عنا . وتتمثل مشكلتنا الآن فيمن يمكن أن يحل محلهما . ومسألة أن يبدأ الإنسان رحلة خطيرة بأناس لم يسبق له تجربتهم أو اختبارهم ، تدخل فى عداد التجارب الخطرة غير محسوبة العواقب ، وإنه لمن سوء طالعنا أن تكون هذه هى المشكلة التى تعين علينا مواجهتها فى البداية. كان العقيد نيكسون Nixon، على حد تصرفه فى العام الماضى ، قد تعطف علينا وأقرضنا مرشداً ؛ لكن ، يا أسفاه ! على المدعو على ، ذلك الرجل المتين ، الذى قدم لنا هذه المساعدة فى رحلتنا فى بلاد الرافدين ، الذى لم يعد حاله يسمح له بمغادرة بغداد . كان على راقداً فى فراش مرضه يعانى من الحمى ، ولم يكن الإزعاج فى صالحه . وبالتالى جاء المرشد الذى حصلنا عليه غريبًا وقد يكون صالحًا أو طالحًا ، أو نافعًا أو عديم النفع . كان من الضرورى أيضًا وجود شخص يعرف اللغة الفارسية ، كما استأجرنا أيضًا طباخًا فارسيًا ، اسمه رمضان ، وزكاه الكثيرون لكننا لم نجربه . وتطوع صبى بغدادى عن طيب خاطر ليكون لنا مراسلاً ، وأخيراً قام شيخ العقيل ، وهو صديق قديم ، بإرسال اثنين من رجاله ليكونا معنا جمّالين .

على كل حال ، هؤلاء الخدم ، باستثناء الاثنين الأخيرين ، لم يسبق لهم أن رأوا

بعضهم بعضاً ، ولم يكونوا يعرفون أى شىء عن أسلوبنا فى الترحال والتنقل ، أو حتى أسلوب حياتنا . زد على ذلك أننا لم نبدأ كمجموعة طبقًا لمقتضيات الحكمة والتعقل . يضاف إلى ذلك أن المنطقة المحيطة ببغداد جرداء وخالية من المراعى على امتداد أميال عدة ، ولذلك فكرنا فى تحسين أحوال الإبل عن طريق إرسالها إلى بعض المستنقعات التى على طول النهر ، على أمل أن نلحق نحن بهذه الإبل فى فترة لاحقة ، ومعنا أمتعتنا عن طريق النهر ، لكن هذا الترتيب لم يكن موفقًا مطلقًا نظراً لغباء الرجال وتخوفهم ، ذلك أنهم إذا ما تركت لهم حرية التصرف ، يبدون كما لو كانوا فقدوا صوابهم ؛ وبدلاً من العمل بتعليماتهم التى كانت تقضى بالتنقل البطىء فى رعى الإبل أثناء السير ؛ ساقوا الإبل بلا توقف إلى القرية التى حددناها لتكون مكانًا للقاء ، وتركوا الإبل فى هذه المنطقة ، وهى جائعة فى إسطبلات قذرة إلى أن وصلنا إليهم ، وقد كلفنا ذلك الإهمال تكلفة غالية. وعندما لحقنا بأولئك الخدم كان واحد من الإبل - الناقة السوداء على وجه التحديد - قد ضاعت بالفعل ، وقالوا لنا إنها ماتت ؛ أما الجمل الثانى ، الذى اسمه شيل ، الذى كان مثالاً للقوة والملامح الحسنة عندما تركنا دمشق ، فقد أصبح هو الآخر غير صالح لمواصلة السفر إلى أبعد من هذا المكان ، فى حين كانت الإبل الست المتبقية مجرد ظلال لما كانت عليه من قبل . كان حذيران ، ذلك الزعيم العملاق ، الذى أنقذ مقتنياتنا فى النفود ، الجمل الوحيد الذى ما يزال قادراً على حَمْل حمولة كاملة ؛ وهنا كان لابد لنا أن نجدد ثقتنا بذلك الجمل فى كل ما سيحدث بعد ذلك .

من الصعب على أولئك الذين لم يتملكو الإبل مطلقًا أن يتخيلوا مدى ارتباط الإنسان بتلك الحيوانات فى الرحلات الطويلة ، أو تباين طبائع هذه الحيوانات . كان لكل جمل من جمالنا اسمٌ، كان هو يعرفه جيداً، وخصلة خاصة من خصال الشجاعة ، أو الحذر ، أو سلاسة القيادة . كانت " الحلوة " ، ناقة ولفريد بيضاء اللون ، لطيفة وأليفة ومطيعة ؛ أما " الحمراء " ، تلك الناقة المكية فكانت طائشة ومغرورة ؛ أما "غزال" فكانت ودوداً ، لكنها كانت وقحة إذ كان يغلب عليها الهياج والطيش (مسكينة فهى بعيدة الآن عن هذه الأمور) ؛ أما " حذيران " فكان جملاً صاحب شخصية متميزة .

كان واضحًا أنه فخور بنفسه وبقوته وفهمه الراقى ، وكان صاحب رأى مستقر يفرض الاحترام . كان حذيران يتفاخر بأنه هو الذى يسير فى مقدمة الركب ، الذى وافق على أن يكون حذيران هو القائد والزعيم ، وكانت بقية الإبل تتبعه فى المناسبات التى تدور من حولها الشكوك . لم يكن حذيران يهتم كثيرًا بالمدقات (الطرق) المطروقة ، إذ كان يختار الأرض التى تناسبه ، ولأسباب معقولة . لم يحدث أن كان حذيران طائشًا أو مُغَيًّا ، ولم يكن يفقد صوابه فى وقت الشدة . كان بوسع حذيران نقل حمولة مضاعفة ، وذلك على العكس من باقى الإبل ، كما كان الأسرع خطوًا أيضًا ، كما كان يقطع مسافة أطول عن مسافات الإبل الأخرى دونما حاجة إلى الماء . فى ذات الوقت ، كان حذيران يرى أن من حقه الحصول على نصيب إضافى من وجبة المساء ، ولم يكن يجعلنا نهدأ إلا بعد أن يحصل على بغيته ويشبع تمامًا . أنا آت على ذكر هذه الأشياء هنا ، نظرًا لأن تغذية هذه الإبل وقيادتها والعناية بها كانت بمثابة المهمة الرئيسية لى طوال الجزء المتبقى من الرحلة ، كما أن سلامة الرحلة وسلامتنا أيضًا كانت تعتمد على هذه الإبل إلى حد بعيد . وأنا أقول ذلك بلا أى شىء من الغرور لأننا بدأنا الرحلة فى ظروف غير مواتية ، ومع ذلك سيّرنا إبلنا ، بلا حوادث ، مسافة تقدر حوالى خمسمائة ميل عبر جبال وسهول ، ومستنقعات وأنهار لم يسبق أن عبرتها الإبل مطلقًا من قبل ، وعبر تسعة أنهار كبيرة ، أحدها أكبر من نهر الراين ؛ ووصلنا بهذه الإبل إلى نهاية الرحلة وهى سمينة وبحالة جيدة . ومع ذلك ، أنا لا أريد استباق الأحداث .

فى اليوم العشرين من شهر مارس ، وبعد أن أرسلنا إبلنا بصحبة العقيليين ، ركبنا على ظهر باخرة نهرية إنجليزية ، ومعنا خدمنا ، وخيولنا ، وكلاب الصيد ، ومعنا أيضًا رشم ، ذلك الصقر الذى انضم إلى مسيرتنا بدءًا من حائل ، ووصلنا بعد مسافة تقدر بثمانين ميلاً إلى نقطة على النهر خلف الكوت ، وتنساب عندها مجارٍ مائية عدة فى نهر دجلة من ناحية الشرق ، الأمر الذى جعل الناس يطلقون على هذه المنطقة اسم " وديان " (أى المجارى المائية) .

جاءت البداية غير سارة ، لأننا كنا نبحر مع مجرى النهر أثناء تساقط الأمطار

الغزيرة إلى أن وقفت الباخرة ، وسط هذا الوابل ، أمام شاطئ أجرد مستدير ، ثم دعونا بعد ذلك إلى النزول من الباخرة . لم يكن هناك شيء نراه سوى الوحل وبعض الأدغال القليلة التي تمتد لمسافة أميال عدة ، وعز علينا الخروج من تلك الكابينة الإنجليزية المترفة إلى ذلك الذي بدا لنا مستنقعًا كئيبًا ، وليس هناك من وسيلة نقل أخرى سوى ذلك الشط ، إذ لم نر أحدًا من الرجال أو أيا من الإبل . لكن ، سبق السيف العزل، أو إن شئت فقل: قُضي الأمر ؛ هذا هو المكان الذي سبق الاتفاق عليه ، وبلا جلبة أو ضوضاء ، نزلنا إلى البر : نزلت الخيل في البداية ، ومن بعدها الأمتعة ، ثم نزلنا نحن بعد ذلك . وبينما كنا ننزل من الباخرة ، ظهر أمامنا بعض العرب ، وقد عهد بنا القبطان كلمنتس Clements ، قبل أن يودعنا ، إلى واحد من هؤلاء العرب ، وهو رجل متقدم في السن ويلبس على رأسه عمامة خضراء . قال لنا القبطان كلمنتس إن سيد عباس ، أحد المعارف القدامى ، وإنه رجل أمين ؛ وعلى الرغم من أنه كان من السهل علينا تبين أن بقية العرب كانوا من أحط أنواع الفلاحين ، فقد فضلنا الاقتناع بذلك التأكيد ، وأن نصادق ذلك الرجل المتقدم في السن إلى أبعد الحدود . وبعد أن جلسنا على خُرُج إبلنا والمطر ينهمر ، قمنا بعد ذلك بتوديع كل من كانوا على ظهر الباخرة للمرة الأخيرة؛ وبعد أن رحنا نراقب الباخرة إلى أن اختفت عن أنظارنا ، شرعنا في عمل ذلك المطلوب منا عمله(*). وهنا أراني أستأنف كتابة يومياتي من جديد:

" جرى على وجه السرعة تجهيز الخيمة فوق جزء من الأرض أكثر تماسكًا من الأجزاء الأخرى، كما جرى تقييد الخيول وتركها ترعى. فرسي الجديدة كانورة Canora، التي سميت بهذا الاسم تيمنًا بشجرة النبق المزروعة في فناء القنصلية ، رائعة الجمال ، وتسر الناظر إليها ، وتستدعي اهتمامًا زائدًا من أعين هؤلاء الناس الذين تبدو عليهم سمات اللصوص . كان ولفريد قد قصد المخيم ، الذي يقع على بُعد مسافة ميل ونصف الميل ، ويصحبة سيد عباس ، وتصادق مع كبار رجال المخيم ، لكنه ليس لديه انطباع

(*) بعد ذلك بحوالي عام ، قام غزو بمهاجمة القبطان كليمنتس ، الذي كان يقود الباخرة خليفة Kalifeh، وبينما كان الرجل يدافع دفاعًا بطوليًا عن باخرته أصيب بطلق ناري في رئتيه .

مريح عن أولئك الذين التقاهم . يقول ولفريد ، إنهم يبدون وكأنهم مجموعة مختلطة من الفلاحين ، من سائر القبائل العراقية ، ولا يمتون إلى أصالة المولد بأية صلة على الإطلاق . شيخهم وحده ، لأن سيد عباس ليس هو شيخهم ، هو المؤصل لأنه ينحدر من بنى لام ، لكننا لا نرتاح إلى نظرات هذا الرجل . يقول لنا سيد عباس :

إن بنى لام يبعدون عن هنا مسير ثلاثة أيام ، والحرب دائرة فيما بينهم فى الوقت الراهن ، بسبب شجار دار بين شيخهم المزبن ، وبين واحد من إخوته . ويرسم سيد عباس صورة مخيفة لبنى لام هؤلاء ، وهو يحاول جاهداً إثناءنا عن المضى قدماً فى رحلتنا ؛ لكننا نرى أننا لن تكون أمامنا صعوبات فى ظل الرسائل التى نحملها معنا إلى المزبن . بنو لام هم ، فى كل الأحوال ، قبيلة بدوية أصيلة ، وليسوا من الفلاحين مثل أهل هذه المنطقة . مرشدنا هو الحاج محمد المتقدم فى السن ؛ هذا الرجل هو الذى بقى معى عندما غاب ولفريد عن المكان . الحاج محمد هذا كان ضمن الجيش فى يوم من الأيام ، وهو الذى أصر على الوقوف فى المطر ليكون لى حارساً ، على الرغم من كل محاولاتى معه لجعله يجلس أرضاً ويحتمى بطرف الخيمة . الواضح أن ثقته ضعيفة بأهل هذا المكان .

جرى إحضار بعض الدواجن من المخيم ، ولدينا من الحطب ما يكفى لشب النار . وسوف يتضح لى الآن ذلك الذى يمكن أن يقوم به طباخنا الفارسى . لو كانت إبلنا معنا ، لما شغلنا أنفسنا بمسألة التأخير هذه . سمعنا ونحن على ظهر الباخرة أن الإبل كانت فى الكوت ، لكن الكوت تبعد عن هنا خمسة وعشرين ميلاً، وفى وجود هذا المطر الغزير يصعب تحديد موعد وصول هذه الإبل .

اليوم الثالث والعشرون من شهر مارس : صفت السماء ، وأصبح بوسعنا رؤية تلال الحمرين فى اتجاه الشرق ، التى لا تبعد كثيراً عن هذا المكان. المنطقة هنا أقل قبحاً عما كانت عليه بالأمس أثناء سقوط المطـر . هذا المكان عبارة عن شبه جزيرة ، أو إن شئت فقل جزيرة ، تشكلت بفعل نهرين ، ينبعان من تلال حمرين ، ويصبان فى نهر دجلة ، هذان النهران يتصلان عند المنطقة العليا منهما بترعة ، إلى حد أن الفراغ

الموجود بينهما يصبح معزولاً عن الصحراء . هذا المكان عبارة عن مستنقع ودغل من أشجار القُطَّب، فضلاً عن بعض البقع الزراعية التى تنتشر هنا وهناك. الفلاحون الذين يزرعون هذه البقع يطلقون على أنفسهم اسم سعدة ، لكن سيد عباس يقول : إن هؤلاء الفلاحين يجيئون من أرجاء متعددة . وسيد عباس نفسه شقيق شيخ على الغربى ؛ وعلى الغربى اسم لقرية تقع على الضفة الأخرى لنهر دجلة . هذه الضفة من ضفتى النهر ليس فيها أية قرى بعد قرية الكوت ، كما أن هذه الجزيرة من الوديان هى المنطقة الوحيدة المأهولة بالسكان . والفلاحون هنا بؤساء تمامًا ، ويشكون مر الشكوى من الحكومة التى تعمل على تدميرهم . هؤلاء الفلاحون يخضعون تمامًا لضغوط وجود الأتراك ، وبخاصة أن الحكومة لها فى الوقت الراهن بواخر فى الأنهار ، كما أن جباة الضرائب (إن جاز لنا تصديق ما يقولون) يأخذون منهم ثلثى محاصيلهم. ويدفع الفلاحون أيضًا عشرة بشالك (فرنكات) عن كل خيمة من الخيام ، ونصف بشلك (فرنك) عن كل رأس من رءوس الغنم ، وبشلكين (فرنكان) عن كل جاموسة من الجاموس الذى يربونه ، كما يدفعون أيضًا ضريبة رءوس مقدارها بشلكان ونصف البشلك عن كل رأس بشرية . يزاد على ذلك أن هؤلاء الفلاحين تتردد عليهم الضبطية (الدوريات) الشرطيَّة من حين لآخر ، وتستولى على خيولهم إذا لم يفلحوا فى إخفائها ، زعمًا بأنهم غير قادرين على تربية هذه الخيول ، هذا فى الوقت الذى يضطرهم مزبن إلى دفع إتاوة أيضًا نظير حمايته لهم ، أو نظير تركهم لحال سبيلهم . هذا يعنى أن الحكومة لا تفعل شيئًا مطلقًا نظير ذلك الذى تحصل عليه . واقع الأمر أن هؤلاء الناس يعيشون حياة بائسة ، وأنا هنا أتعجب لتجشم هؤلاء الناس متاعب الزراعة مقابل هذا القليل الذى يحصلون عليه ، وربما كان ذلك خياراً بين هذا القليل والموت جوعًا .

أبرز ملامح منطقة الوديان هو الخنازير البرية ؛ هذه الخنازير على وجه التحديد تتوافد على الحقول ، وتجرى هنا وهناك فى الخلاء فى رابعة النهار ، وتفعل ما تشاء . الناس هنا فى منطقة الوديان يخشون الخنازير البرية ، ويبتعدون عن طريقها ،

ولا عجب فى ذلك ، نظراً لأن الخنازير تعد حيوانات ضخمة الحجم. وقد أرانى اليوم رجل جاء إلى خيمتنا جرحًا لقيــه مــن واحــد مــن تلك الخنــازير البرية دون أن يستثيره أو يتعرض له. والناس هنا ليس لديهم من وسيلة لحمايتهم سوى رماحهم القصيرة. هذه الخنازير البرية تأتى إلى داخل المخيمات ، وقد عثر ولفريد على واحد من تلك الخنازير عصر هذا اليوم ، غارقًا فى النوم تحت دغل من الأدغال ، على بُعد عشر ياردات فقط من الطريق المؤدى إلى الخيــام . كان أولئك الذين يمـرون على ذلك الخنزير يحـولون طريقهم حتى لا يزعجوا الخنزير ، لأنه كان يَرقد فى مرمى نظر الجميع . رجا سيد عباس زوجي ولفريد أن يقتل بعض هذه الخنازير ، وهنا ركب ولفريد الحصان آريل Ariel، وأخذ معه البندقية الونشستر ليتبين ذلك الذى يمكن أن يفعله . أما أنا فقد أصابتنى الحمى ، وبقيت فى الخيمة أجفف الأشياء التى ابتلت .

الناس هنا فى منطقة الوديان كلهم من الشيعة وهم من المتشددين جداً ، وسيد عباس باعتباره من نسل النبى يتمتع بمنزلة كبيرة بين هؤلاء الشيعة . البدو من العنزة ومن الشمر لا يفكرون فى مسألة الأولياء والسادة ، لكن هنا نجد أن الناس جميعًا تحت أقدام الأولياء والسادة . الباش أغا ، أو إن شئت فقل : الشيخ ، على الرغم من أنه من بنى لام ، ومن ثم يكون " جنتلمان " ، فليست له الأهمية التى للرجل المسن الذى يلبس العمامة الخضراء . لابس العمامة الخضراء هذا كان يتحدث معى صباح هذا اليوم ، ووعدنى بأن يأخذنا إلى مخيم مزبن ، إذا كنا مصرين على الذهاب إليه ، على الرغم من أنه ينصحنا بعدم الذهاب إلى مزبن . يقول لابس العمامة الخضراء إننا عندما نكون معه سنكون فى مأمن ، لأنهم يكنون احتراماً كبيراً للسادة ، إضافة إلى أنه متزوج من عائلة مزبن . سواء أكان أم لم يكن سيداً فهو يأكل ويشرب معنا بحرية كاملة ؛ وهذا يولد بيننا وبينه قدراً من ثقتنا به .

عاد ولفريد منتصراً . لم يغب عنى سوى ساعتين ونصف الساعة قتل خلالها خمسة خنازير برية وأنثى واحدة . كان الحصان آريل Ariel يتصرف بطريقة رائعة ؛ إذ راح يتعقب الخنازير دونما حاجة إلى حثه على ذلك ، ولم يكن يتراجع عندما كانت

الخنازير تقوم بالهجوم . يبدو أن الصيد كان رائعًا . كان من بين الضحايا ذلك الخنزير العجوز الذى مر عليه ولفريد وهو نائم تحت دغل من الأدغال ، والذى كان يهاجم هجومًا عنيفًا . من حسن الحظ أن ولفريد لم يصطحب معه الكلاب ، لأنهم كانوا سيصابون بالأذى . كان العرب سعداء ومسرورين جدًا من هذه النتيجة ، ونأمل أن تؤدى إلى توطيد العلاقة بيننا وبينهم . قام العرب بسحب واحدة من تلك الجثث ، ذلك المنظر المقزز ، إلى ضفة النهر كى يتمكنوا ، على حد قولهم ، من إرسالها إلى الممثل البريطانى المقيم فى بغداد مع وصول أول باخرة من البواخر . والمؤسف ، أننا لم تصلنا أية أخبار عن الإبل .

اليوم الثالث والعشرون من شهر مارس : هبت عاصفة مخيفة أثناء الليل وأغرقت المكان كله بالماء . خرج ولفريد فى ساعة مبكرة فى محاولة منه للحصول على أخبار عن إبلنا ؛ وكان ولفريد يركب الحصان جوب Job ، ذلك الحصان الرمادى الذى اشتريناه من العقيد نيكسون ، لم يذهب ولفريد إلى مسافة بعيدة ، نظرًا لأن المجارى المائية كانت تطفح بالمياه الأمر الذى جعل مسألة تخطيها أو عبورها أمرًا مستحيلاً ، وبخاصة أولئك الذين لا يعرفون الأماكن الضحلة فى تلك المجارى ؛ الحصان جوب Job من الخيول الحريصة التى لا تقدم على ما يسبب لها المشكلات والمتاعب . الحصان صغير السن ، يجفل عندما يقفز خنزير من الأدغال مقتربًا منه . نحن الآن معًا فى جولة لصيد الخنازير البرية . وأنا لو تأكدت من خروجنا من هذا المستنقع فسوف أتمتع بعملية الصيد هذه .

* * *

تعثر طالعنا تعثرًا كبيرًا . فقد أصيب الحصان أريل Ariel بجرح بليغ . خرجنا اليوم ، على شكل جماعة كبيرة ، بشر يمشون على أقدامهم ويحملون حرابًا وفئوسًا ، فى حين كان اثنان من هؤلاء الناس يركبان فرسين صغيرتين . كان اليوم جميلاً بعد سقوط المطر ، كانت الطيور تغنى فى الأدغال كلها ، والبلابل تتنادى ، والهداهد تحوم حولنا ، والدجاج البرى يقفز بين الأحراش. كانت الجزيرة مغطاة إلى منتصفها بالماء ،

وكانت جماعات الخنازير البرية ، وكذلك إناث الخنازير البرية ، وصغار الخنازير ، تخرج كلها من بين الأدغال ، التى ترقد فيها تلك الحيوانات أثناء النهار ، وراحت كلها تجرى هنا وهناك وفى كل مكان . تخيرنا من بين هذه الحيوانات خنزيراً برياً ضخماً أحمر اللون ، وراح الجميع يطاردونه ، لكن الأرض كانت أكثر تماسكًا عن أمس، واستغرق وصولنا إلى ذلك الخنزير مسافة طويلة قطعناها عدواً بخيولنا . وكان من الصعب علينا أيضًا متابعة الخنزير الذى عيناه فى البداية ، نظراً لوجود عدد كبير من هذه الخنازير . وفى النهاية بدأ الخنزير عملية الهجوم ، التى سهلت إصابته ، لكن الإصابة لم تكن كافية لوقف الخنزير ، على الرغم من أن الإصابة أدت إلى انقلابه واضطررنا إلى العدو خلفه بخيولنا من جديد ، ولكن الطلقة الثانية أردته قتيلاً . وهنا اندفع السائرون على الأقدام، الذين كانوا يطاردون الخنازير، ناحية الخنزير المصاب ، لكنهم عندما اقتربوا منه قفز إلى أعلى ومَلِص منزرقًا ناحية المياه العميقة حيث يوجد دغل عالٍ . كنت أنا فى المقدمة ، وصاح ولفريد منادياً يطلب منى إبعاد الخنزير عنى ، ولو كان بوسعى فعل ذلك لفعلته ، وبدلاً من إبعاده عنى ، جاء هو إلىَّ وصدمنى برأسه صدمة كنت أعرف أنها خطيرة . وغاص الخنزير بعد ذلك فى الماء العميق ، لكنه بدلاً من الاستمرار فى الماء ، غير رأيه وجاء إلى المكان الذى فيه الدغل، وقبل أن نتتبه إليه بدأ يهاجمنا وهو بيننا. وأدار ولفريد فرسه على الفور ، لكن ، يا أسفاه ! لم تكن الاستدارة بالسرعة المطلوبة ، وفتح ولفريد النار من بندقيته أثناء دوران الفرس . والذى ملأنى رعبًا ، أنى رأيت هذا الوحش الكاسر، يمسك بالفرس آريل Ariel ونطحها نطحة شبيها بالنطحات التى توجهها الثيران للمصارعين فى حلبات مصارعة الثيران . بدا كأن الخنزير رفع الفرس وراكبها عن الأرض تماماً. وترنحت الفرس آريل Ariel بعيداً، فى حين خر الخنزير البرى صريعًا على الأرض ، وسحبه العرب بعد ذلك مباشرةً .

قمنا فى ذات الوقت بتمزيق كوفياتنا وأغطية الرأس ؛ فى محاولة منا لتضميد الجرح الفظيع الذى أصاب قدم الفرس المسكينة . كانت رجل الفرس قد أصيبت وأسفرت الإصابة عن قطع وريد من أوردة الرجل . وباءت محاولاتنا كلها بالفشل ؛ إذ

لم نستطع وقف نزيف الدم ، وليس هناك من الكلمات ما يمكننى من وصف البؤس والحزن الذى أصابنى وأنا أراقب الدم وهو ينساب جاريًا على الأرض . تملكنى اليأس والأسى ؛ لأن هذه الفرس كانت أصيلة السلالة ، فضلاً أيضًا عن الرباط الذى كان بينى وبينها حبًا فيها ؛ هذه الفرس آريل Ariel كانت أنبل وألطف مخلوق إلى الآن . كانت عينا الفرس آريل توحيان بالتعاطف وتعكسان صبر هذه الفرس على المعاناة . أنا يراودنى أمل فى أنها ستشفى مما ألم بها ، لكن ولفريد يخشى أننا قد نضطر إلى التخلى عنها ، نظرًا لأن عضلات الرجل انكشفت ، الأمر الذى يتعذر معه على الفرس أن تضع رجلها على الأرض .

بينما كنا مشغولين بتضميد جرح الفرس آريل Ariel، ظهرت الإبل فجأة . لو حدث ذلك من قبل ساعات قلائل لأحدث فى أنفسنا انشراحًا كبيرًا . الأمر أصبح مختلفًا الآن ؛ ذلك أن ظهور الإبل حتم علينا نقل مخيمنا إلى هذا المكان ، حيث توجد الفرس المصابة .

اليوم الرابع والعشرون من شهر مارس : هذه بالقطع رحلة سيئة البداية . هؤلاء العقيليون الأغبياء أهملوا إبلنا على نحو أدى إلى نفوق الناقة عبدة ، كما أصبح الجمل شيل عاجزًا عن المضى قدمًا أكثر من ذلك . ولم تكن بقية الإبل أفضل حالاً من هذين الجملين . دارت بيننا فى فترة الصباح مناقشة حول وقف تنفيذ الخطة الحالية ، وأن نستقل الباخرة التالية التى تصل إلى البصرة التى يمكن أن نبدأ منها من جديد . كانت تلك أفضل الوسائل لإنقاذ الفرس آريل . لكننا قررنا المضى قدمًا ، وبناءً على ذلك غادرنا وديان صباح هذا اليوم ، وعبرنا الترعة خوضًا فى مائها الذى يصل عمقه إلى حوالى أربع أقدام ، دون وقوع حوادث ، وواصلنا مسيرنا فى اتجاه الجنوب الشرقى عبر سهل مستو تمامًا . القافلة حزينة نظرًا لأن آريل تمشى بصعوبة بالغة ، فقد تورمت رجلها تورمًا كبيرًا ؛ لكنها لديها من الشجاعة ما يجعلنا نأمل فى مواصلتها السير معنا . كانت مسألة الخيار بين اصطحابنا للفرس آريل أو تركها ، خيارًا بين الشرور ؛ ذلك أننا إذا ما تركنا الفرس ، أى إذا ما خلفناها وراءنا فذلك

يعنى أننا لن نراها بعد ذلك مطلقًا . ونحن لا نثق بتركها عند الباش أغا ، أو عند أى أحد من عرب وديان باستثناء سيد عباس ، وسيد عباس يرافقنا بالفعل . وسيد عباس يركب فرسًا سُرِّية كبيرة السن بيضاء اللون ، كما إن ولده حسان ، الذى جاء معنا أيضًا ، يمشى على قدميه . وهذا هو ولفريد راكبًا حاليًا الفرس جوب Job ، وهذا هو الحاج محمد راكبًا الفرس الحمراء . قطعنا حوالى عشرة أميال ونحن على هذا الحال. السهل فى معظمه هنا عبارة عن تربة طميية جرداء ، مثل تربة العراق، لكنها هنا مخلوطة بملح البارود (*) الأمر الذى يجعل التربة لا تنتج شيئًا من الزراعة . المستنقعات موجودة هنا وهناك ، مع شيء من الخضرة القليلة ، وها نحن قد خيمنا وسط بقعة من أشواك الجمال ، التى تمثل أول مرعى نصل إليه . نحن لم نلتق أحدًا من البشر ، لكننا نرى بعض الخيام على بُعد مسافة من هنا ، وحولها بعض الإبل التى ترعى ، والمفترض أن تكون تابعة لبنى لام . قام الحاج محمد بزيارة تلك الخيام ، لكنه لا يعرف كيف يُصرِّف أحواله بين البدو ، ولذلك عاد إلينا بخفى حنين ، ويقول لنا إن أصحاب الإبل تعاملوا معه بطريقة وقحة . كان لابد من ذهابنا نحن بأنفسنا ، لكننا كنا محزونين بسبب الفرس ، الأمر الذى جعلنا لا نفارقها . كنت أضمد جراح الفرس باستخدام مرهم هولواى Holloway ، وهى راقدة على جانبها بجوار خيمتنا عند الباب. أشواك الجمال هنا من النوع المرقَّط، ويبدو أن الحيوانات جميعها بما فيها آريل تتمتع بتلك الأشواك .

اليوم الخامس والعشرون من شهر مارس : تمنينا تحسن حال الفرس آريل ؛ وبالفعل كانت قد أكلت وجبة طيبة أثناء الليل ، وعلى الرغم من أنها بدت شديدة التوعك فى هذا الصباح فقد استطاعت مرافقتنا ؛ لكنها بعد أن قطعت مسافة ميلين ترنحت وسقطت على الأرض . وعلى الرغم من نهوضها واقفة من جديد ، فقد سقطت على الأرض مرة ثانية . ورفضت آريل الحركة فى المرة الثالثة ، إذ تفاقمت آلامها ، ورقدت

(*) ملح البارود : هو نترات البوتاسيوم . (المترجم)

على جانبها كما لو كانت قد نفقت . وبعد أن باءت بالفشل كل محاولات تسيير الفرس ، وبعد أن تجاوزنا الخيام التى شاهدناها بالأمس ، بمسافة تقدر بحوالى نصف ميل ، اتفقنا على بقاء حسّان ولد سيد عباس مع الفرس ، على أن يقوم بتوصيلها إلى تلك الخيام ثم يعود بعد ذلك إلى وديان . ووعدنا حسّان بمكافأة سخية إذا ما نجح فى شفاء الفرس وإعادتها إلى بغداد ، واعترض حسان علينا قائلاً : إنه سيبذل كل ما فى استطاعته . ومع كل ذلك ، لم يخامرنى شك فى أننا ودعنا الفرس آريل إلى الأبد . رفعت الفرس رأسها الجميل ونحن نودعها ، ويبدو أنها كانت تفهم كل ما يدور حولها ، وسبب ذلك أن الخيول العربية تفهم الأشياء مثلما يفهمها البشر . جلب ولفريد دلواً من الماء للفرس ، وشربت الدلو كاملاً ، ثم وضعت رأسها على الأرض مرة ثانية ، فى حين ذهبنا نحن لحال سبيلنا . (*)

بدا سفرنا اليوم بدون الفرس آريل ، أمراً غير طبيعى . واستحال علينا التمتع بسطوع الشمس أو تلال الحمرين ، على الرغم من جمال هذه التلال . وها نحن نخيم من جديد فى السهل المفتوح الذى يبعد عن هذه التلال مسافة تقل عن عشرة أميال ، كما يبعد هذا السهل حوالى ثلاثة أو أربعة أميال عن النهر الذى كنا نسير فى خط موازٍ له .

واجهتنا مشكلة أخرى تجلت فى سلوك رمضان الطباخ ، الذى ثبت عصيانه وتمرده على نحو حتم علينا الاستغناء عنه وتركه لحال سبيله . تقرر أن يذهب سيد عباس غداً إلى على غربى فى منطقة النهر، لشراء بعض من الأرز والتمر لحسابنا ، وأنه سوف يصحب معه رمضان هو والسائس ، الذى يقول إنه مصاب بالحمى ، التى أصابته عندما كان فى مستنقعات وديان ، وإنه لن يستطيع مواصلة السير معنا بعد

(*) سوف لا نعرف الحال التى آلت إليها الفرس آريل . فى بداية الأمر وصلت بغداد تقارير تفيد أن الفرس على قيد الحياة وتتماثل للشفاء ؛ وصلت بعد ذلك أنباء تفيد نفوق الفرس ؛ وعندما أرسلت شخصاً يستفسر عن الموضوع اكتشف أن سيد عباس هو و " الباش أغا " والعرب كلهم هجروا المكان . وما زلنا نتأمل أن تكون الفرس بصحبتهم .

الآن . وبذلك تكون جماعتنا قد بدأت تتناقص منذ البداية ؛ لكننا ، فى ذات الوقت ، يتحتم علينا المضى قدمًا فيما خططنا له ، مصطحبين معنا شابًا صغيرًا أتى لنا به سيد عباس من الزيارة التى قام بها إلى الخيام فى الليلة الماضية ؛ هذه الخيام تنتمى إلى مخيم كبير من مخيمات بنى لام ، ويقال إنه موجود عند سطح التلال ، وإننا يتعين علينا الانتظار عند ذلك المخيم إلى أن يلحق بنا سيد عباس .

اليوم السادس والعشرون من شهر مارس : وصلنا إلى تلك التلال بعد مسير دام أربع ساعات . وعندما اقتربنا من تلك التلال ، اكتشفنا العلامات المعتادة التى تدل على أن المخيم واحد من مخيمات البدو ، لاحظنا قطعانًا من الغنم على مسافات بعيدة ، ومن بعدها الرعاة ، كل ذلك كان يتحرك فى إطار مظهر غريب مبالغ فيه بسبب مسألة السراب . وهنا عدونا بفرسينا لكى نستطلع من قمة أحد التلال ، المنطقة التى أمامنا ، وعلى الفور تبينا وجود المخيم . أسفل ذلك المخيم ، كان هناك مجرى مائى ، فى حين كان التل والسهل المجاوران لذلك المجرى المائى تغطيهما أشجار الطرفاء أما جانب التل فكانت تكسوه الحشائش الخضراء . قال لنا أحد الرعاة إن هذا المخيم هو مخيم موسى ، وإن هذا الموسى هو الشيخ الذى كنا نبحث عنه ، وهنا وقفنا ننتظر وصول إبلنا إلينا ، وعندها واصلنا مسيرنا قاصدين ذلك المخيم .

لم يكن موسى بن سُلاَّل فى المخيم ، ولذلك وجهونا إلى خيمة شقيقه عقل . وجدنا عقل غارقًا فى نومه فى ركن من أركان خيمته ، لكنه استيقظ عندما دخلنا عليه ، واستقبلنا الرجل استقبالاً طيبًا ، وقال لنا : إن الشيخ سافر إلى العمارة بناءً على استدعاء له من متصرف المدينة ، لكى يلتقى بأخيه مزبن ويسويا الخلاف الذى بينهما . ويبدو أن موسى ، وعقل ، وحميدى ، كلهم أبناء أم واحدة ، وأنهم يشنون الحرب على أخيهم غير الشقيق ، مزبن الذى هو عميد لأسرة ابن سُلاَّل Sollal ، فضلاً عن كونه أيضًا الشيخ الكبير لكل بنى لام ، وأن الشجار وصل إلى مرحلة حرجة فى الوقت الراهن بعد أن قتل مزبن واحدًا من أبناء موسى . ليس هناك أمل فى تسوية ذلك النزاع عن طريق الوساطة التركية ، نظرًا لضعف المتصرف الحالى ؛ وهم يقولون : إن

هذا المتصرف " يشبه السيدات " وليس هو الرجل الذى يمكن أن يتعامل مع مسألة الثأر وقضاياه .

عقل رجل فى مقتبل العمر ، لحيته رمادية اللون ، ومحبٌ للأطفال . كان يبذل قصارى جهده فى احتفاله بنا ، وفى إدخاله البهجة والسرور إلى نفوس مجموعة من الأطفال الصغار الذين تجمعوا حوله بعد استيقاظه من نومه . خيمته خيمة متواضعة ، صغيرة الحجم ، وحارة مثل طاسة من طاسات القلى ، وحاولنا الهرب من تلك الخيمة عندما سنحت لنا الفرصة ، لنعود إلى خيمتنا ، التى نصبناها على بُعد ياردات قليلة – قليلة جداً ، للأسف ! لأن راحة الناس هنا ، على الرغم من سلوكهم الطيب ، لا تكتمل إلا بإشباع فضولهم إلى " الفرجة " .

بنى لام هؤلاء يُدْرجون ضمن البدو الخُلَّص ، نظراً لأنهم ليس بينهم أحد من الفلاحين من ناحية ، وليسوا على استعداد لفلاحة الأرض ، التى يستأجرون القبيلة المتدنية من أمثال سعدة والأبياد لزراعتها وفلاحتها ، ويبدو أن بنى لام يعيش بينهم خليط كبير من الأعراق . قال لنا سيد عباس إن بنى لام يتزوجون من القبائل الفارسية ومن القبائل الكردية أيضًا ، وقال لنا أيضًا إن بنى لام يأوون بينهم أوغاداً لا يعرف أحد من أين جاءوا ، وأن هذه المقولة تتجلى فى مظهر هؤلاء الناس . هذا يعنى أن السلالة الخلاسية تظهر من وجوه هؤلاء الناس . وأنا على حد علمى ، أعرف أن هؤلاء الناس لا يعولون كثيراً على عراقة الأصل ، لكن يستثنى من ذلك عائلة ابن السُّلاَّل ، التى تتباهى بأصالتها من ناحية الذكور . كان عقل هو وشقيقه حميدى ، اللذان زارانا فى المساء ، قد تحدثا كثيراً عن أصلهم النجدى . وعلى حد قولهما أنهم (أى أبناء السُّلاَّل) ينحدرون من نجد على امتداد اثنى عشر جيلاً ؛ وأنا لا يخامرنى شك فى هذا الموروث ؛ لكن دم أبناء السُّلاَّل العربى اختلط منذ زمن بعيد بالإضافات الأجنبية ، إلى حد أنهم لا يعدون فى نجد ، منحدرين عن سلالة أصيلة ونبيلة وعريقة . أبناء السُّلاَّل لا ينكرون زواجهم من بنات المناطق المجاورة لهم ، بل إنهم ينظرون إلى هذه المسألة باعتبارها عديمة الأهمية . وهم يتزوجون أيضًا من الحضر ومن البغداديات ؛

وقد بلغنا ونحن على ظهر الباخرة أن إحدى قريبات المزبن تزوجت من رجل يدعى جازن صابونجى ، أحد تجار بغداد . أحمد الصابونجى ، شقيق جازن الصابونجى ، ارتكز على قوة هذه العلاقة أو الصلة ، وأعطانا هو الآخر خطاباً ليزيد بذلك من حزمة خطابات التقديم التى كنا نحملها إلى مزبن .

الخيول هنا غير ذى بال . هناك ما يتراوح بين خمس عشرة أو عشرين فرساً ، مقيدة بقيود من حديد ، ترعى فى المنطقة المجاورة على بُعد حوالى ميل ، البعض من هذه الأفراس تقف صغارها بجوارها ، والخيول كلها تقف فى ماء يغطى ثُنَّات (*) أرجل هذه الخيول. تجولنا كيما نتفحص هذه الخيول، وعثرنا على فرس بيضاء جميلة ، ويحتمل أن تكون أصيلة ومؤصلة ، كما عثرنا أيضاً على فرس كوميتية اللون أفضل إلى حد ما من بقية الخيل ، ومع ذلك فإن هذه الخيول من نوعية متدنية . وُلِد مهر الليلة الماضية ، وجرى نقله مع أمه ، ياله من مخلوق بائس صغير، إلى أرض المخيم الجافة . لم نشاهد حولنا أى نوع من أنواع الإبل. يبدو أن الإبل هى والغنم فى مرعى يبعد عن هنا مسافة كبيرة .

مر علينا اثنان من تجار الغنم البغداديين ومعهم قطيع كبير اشترياه من أبناء المزبن . وصفوا لنا عظمة وأبهة وثراء الاستقبال الذى ينتظرنا فى خيام الشيخ . وقالا إنهما يسافران وينتقلان فى هدوء وبلا احتياطات أو خوف من أن يداهمهما الغزو ، الذى يكثر الناس الحديث عنه . لكنى أعرف أنهما يعلمان جيداً ذلك الذى يفعلانه .

جاءت نساء كثيرات للقائى ، وكان معهن أطفالهن ، الذين كان من بينهم طفلان أو ثلاثة يتمتعون بالجمال حقيقة ، وبخاصة ذلك الصبى الصغير . جذبت زيارة تلك النساء جمهوراً من الناس ، لأن كل المارين كانوا يتوقفون لينضموا إلى الدائرة التى أمام الخيمة . كن كلهن طيبات وصريحات ، لكن كان يسيطر عليهن رجل متوسط العمر كان يحمل فى يده عصا كبيرة ، وهو الذى يقوم على أمر تنظيم الاحتفالات .

(*) ثُنَّات: بضم الثاء وتشديد النون وفتحها، واحدة "ثُنَّة" وهى الشعر الذى يكون فى رسغ الحصان. (المترجم)

كان أسلوب الرجل فظًا وغليظًا ؛ كان الرجل يندفع بين الحين والآخر داخلاً إلى وسط الدائرة ويروح يضرب هنا وهناك دون تمييز بين الأعمار أو الجنس . وهنا يتبعثر الزوار فى جميع الاتجاهات وهم يضحكون ، ويعودون إلى التجمع من جديد وهم أكثر فرحًا ومرحًا عن ذى قبل . اقترحت علىَّ سيدة صغيرة السن اسمها باشة مرافقتنا أثناء الرحلة ، وكان ردى عليها : " مرحبًا ، أحضرى فرسك وتعالى معنا " ، الأمر الذى جر على هذه السيدة مزاحًا كثيرًا .

هذه المجموعة من الهدايا الصغيرة التى قدمناها لموسى ، زادت من أنس الرجل ووده ، وأرسل معنا حارسًا لتوصيلنا إلى خيمتنا . يبدو أن الناس هنا يعتورهم شىء من التخوف من قيام الطرف المُعادى بالهجوم ؛ وهذا الجانب المُعادى ينتمى إلى قبيلة لا تبعد كثيرًا عن المكان الذى نحن فيه ، والناس هنا يتكلمون عن احتمال قيام المزبن بعملية من عمليات الغزو . وعليه فإن المؤتمر الذى سيعقده الأخان لا يمنع أتباعهما من القيام بالحرب .

اليوم السابع والعشرون من شهر مارس : لم يحدث شىء أسوأ من العاصفة الرملية التى هبت علينا أثناء الليل . استيقظ ولفريد فى ساعة مبكرة وركب الفرس جوب Job فى محاولة منه للعثور على سيد عباس العجوز ، الذى لم نسمع عنه شيئًا بالأمس . ذهب ولفريد وحده وتجول إلى مسافة عشرة أميال فى اتجاه النهر ، لكنه عندما وجد مستنقعًا كبيرًا يفصله عن النهر من ناحية وأن مخيم على غربى يقع وراء النهر ، عاد إلينا ثانية . يقول لى إنه التقى بعض العرب الذين يعتقد أنهم من رجال مزبن . حاول هؤلاء الرجال تطويقه ، لكنهم كانوا لا يجيدون الركوب إلى حد أنهم لم يشكلوا له أى خطر من الأخطار . عند الظهر عاد سيد عباس ومعه حماران محملان بالمؤن والتموينات التى أتى بها من القرية. كنا قد فقدنا الأمل وحسبناه من الضائعين ، لكنا الآن فى ظل ندرة الصداقة بدأنا نستشعر شيئًا من الود تجاه سيد عباس ، عندما رأيناه يعود إلينا .

لم نحقق سوى تقدم طفيف طوال هذا الأسبوع ، ولذلك لم نوافق على البقاء مع موسى ليلة أخرى ؛ وكنا قد جئنا إلى موسى ، على الرغم من الأجواء العاصفة والشائعات المزعجة عن غزو ، يقال إنه بدأ التحرك بالفعل من مخيم المزبن . على كل حال ، لقد أفلحنا في الهرب من هذه الأخطار كلها . وعلى الرغم من أن العاصفة الرعدية كانت تدوى مثل دانات المدفعية ، على اليمين ، وعلى الشمال ، وفى الأمام ، وفى الخلف ، فإنها قد حافظت على رءوسنا ؛ ولم نر أى كائن حى طوال فترة العصر . هذه منطقة برية وغريبة من هذه البلاد ، ولكنها فى بعض الأماكن تكسوها المراعى الممتازة ، الأمر الذى جعلنا نراقب إبلنا العزيزة وهى تسمن أمام أعيننا . كنا قد توقفنا لقضاء الليل عند حافة أرض موحلة كبيرة حمراء اللون ، تعد مرتعًا لأعداد لا تحصى أو تُعد من الطيور . ونحن نشاهد بالقرب منا تلَّين صغيرين ، كما نشاهد أيضًا بركة من ماء المطر الصالح للشرب . نحن الآن خارج المنطقة المجاورة لنهر دجلة ، وهذا من صالحنا ، وبالتالى فإن هذه المستنقعات منبتة الصلة بالنهر . يبدو أن هذه المستنقعات ناتجة عن مجارٍ مائية صغيرة تنبع من تلال الحمرين ، وتصرف ماءها فى هذا السهل الواسع . يرى ولفريد أن الخط الحديدى ، إن قدر له أن يصبح حقيقة واقعة ، يتعين أن يمتد بحذاء سفح هذه التلال حيث الأرض أكثر تماسكًا . ومع ذلك ، يصعب تخيل مدى جدوى خط حديدى من هذا القبيل فى بلاد كهذه غير مأهولة بالسكان .

التلال التى نحن فيها الآن يسميها الناس الدُّهيلة ؛ لكن المنطقة خلو من أى شكل من أشكال القرى على هذه الضفة من ضفتى نهر دجلة ، ولا يوجد أحد من البدو سوى هؤلاء الذين يسميهم الناس بنى لام .

اليوم الثامن والعشرون من شهر مارس : مسيرة طيبة فى الصباح أوصلتنا إلى مخيم المزبن . وعلى الرغم من ذلك كله ، يبدو أننا تعرضنا فى الليلة الماضية لشىء من الخطر ، نظرًا لأن الغزو كان قد بدأ بالفعل بين مخيمى بنى لام ، كما وجدنا أهل المزبن فى هياج وهرج ومرج . قبل المخيم بأميال قلائل استوقفتنا جماعة من الخيالة كانوا يتقدمون فى تشكيل مفتوح ، وأخذوا يعدون بخيولهم فى اتجاهنا عندما رأونا ،

وبدا عليهم كما لو كانوا يودون الهجوم علينا . لكن سيد عباس تقدم إلى الأمام ليقابلهم على فرسه الكديش رمادية اللون ولوح بعباءته وصاح فيهم يطلب إليهم التوقف . نادى الرجل قائلاً : " إنه أنا ، سيد عباس " . وعندها توقف الخيالة ونزلوا عن خيولهم ، وراحوا يقبلون يد الرجل العجوز . قالوا لنا : إنهم غزو من لازم ، أكبر أبناء المزبن ، وإنهم كانوا يقتفون أثر بعض اللصوص الذين جاءوا من مخيم موسى ، الذى سرق سبعة عشر جملاً أثناء الليل . طرحوا بعض الأسئلة على سيد عباس بخصوص الأماكن التى يتواجد بها أهل موسى ، لكن الرجل العجوز رفض أن يفشى السر . ولو فعل سيد عباس ذلك ، لكان خيانة للكرم الذى لقيه من موسى . ومع ذلك ، لم يقف هؤلاء الخيالة معنا وقتاً طويلاً ، ليتحدثوا معنا ، وإنما مضوا فى طريقهم ، ولم يبقوا معنا سوى اثنين منهم ليريانا الطريق إلى مخيم المزبن .

خيام بنى لام عجيبة . هذه الخيام ، على العكس من الخيام العربية التى سبق أن رأيناها ، تنصب على عدد من الأعمدة مختلفة الأطوال ، ولذلك تبدو هذه الخيام مثل البيوت الجانبية المائلة التى لها سقف مائل وجدران مائلة . هذا هو الشكل الذى رأينا عليه مضيف المزبن ؛ والمضيف عبارة عن مُنْشأ شبيه بالقهوة فى المنزل الحضرى ، ولا يستخدم المضيف إلا فى الاستقبالات فقط . خيام المعيشة أصغر من المضيف ، وكلمة بيت لا تنصرف هنا إلا على الحريم فقط . والمضيف غرفة جميلة جيدة التهوية ، تسر الخاطر فى الطقس الحار الذى على وشك الدخول علينا . يجرى نصب المضيف بالقرب من نهر طب وسط مخيم كبير جداً ، يصل عدد خيامه إلى مئات عدة ، وتبدو عليه العظمة والأبهة . المنطقة المحيطة بالمخيم شديدة القحولة ومهجورة بعد أن تعرضت فى الليلة الماضية إلى عاصفة برَدية (ثلجية) مخيفة ، دمرت الحياة النباتية كلها . كانت حبات البرد فى حجم حبات التمر ، على حد قول الناس .

نهر طب مملوء عن آخره بالماء ، وتفيض مياهه على شرخ عميق ، لكن شكله يوحى بسهولة عبوره وتخطيه ، هذا الشرخ عبارة عن نهر أصفر عكِر يشق طريقه عبر سهل من الطمى بلا وادٍ من أى نوع كان ، الأمر الذى يجعل الرائى لا يتحقق من وجود

النهر إلا بعد أن يقترب منه . يصل عرض هذا النهر الأصفر العكر إلى حوالى خمسين ياردة .

نزلنا عند باب المضيف ، وتعرفنا مُضَيِّفنا على الفور ـ الذى لم يكن مزبن ، لأنه حسبما سمعنا من قبل ، كان غائبًا فى العمَارة ، وإنما الذى استقبلنا ولده بنِيه – وبنيه هذا شاب أنيق إلى حد ما ، لكن محياه لا يوحى بالأنس ، لأن سلوكياته التلقائية ، والوقحة تمامًا تدل على الصورة التى هو عليها بالفعل وبلا أدنى شك ، مجرد طفل مدلل. كنا متحفظين معه فى الكلام، وتركنا للحاج محمد أن يشرح له اسمنا ونوعيتنا ، وأن يقدم له الرسائل التى أحضرناها معنا لوالده . بنيه ليس هو أكبر أبناء المزبن ، وأنا لا أفهم السبب الذى جعله يحظى بشرف خيمة والده بدلاً من أخيه لزم ، ومن الصعب علينا معرفة طريقة التعامل مع بنيه ؛ لكننا نرى أن من الحكمة التزام جانب الأدب، ومن ثم أرسلنا إليه العباءة التى أحضرناها للشيخ ، وزدنا على العباءة مسدسًا يبدو أن صدره انشرح له وأعجبه . نحن بين يدى هذا الآدمى تمامًا ، فيما يتعلق بمضينا قدمًا فى بقية رحلتنا ، الأمر الذى يحتم علينا فعل كل ما فى وسعنا لتأمين حُسْن نيته لصالحنا . قمت بزيارة الحريم ، واستقبلتنى يدِّى ، أم بنيه استقبالاً طيبًا وهى سيدة بشوش تبدو أصغر من سنها. وهى فخورة جدًا بولدها ، وهى السبب الواضح وراء تدليله . يزاد على ذلك أن حكمة ، وهى ابنة من زوجة سابقة هى وراسى زوجة ابنها جميلتان ؛ على الرغم من أن راسى هى وزوجة الأب فيهما دلائل دم أجنبى ، إذ تميلان إلى السمنة ، كما أن شعرهن أشقر ، وهما شقراوان. كانت مناسبة زيارتى لهم مؤلمة. وما إن عدنا إلى خيمتنا حتى سمعنا صوت انفجار كبير ، وعقب الانفجار مباشرةً جاءنا رجل يجرى ويطلب إلينا المجىء ، فقد وقع حادث . أثناء العاصفة التى هبت فى الليلة الماضية ابتل بعض البارود الخاص ببنيه ، وجرى وضع عبد ليقوم بتجفيف ذلك البارود على النار فى خيمة النساء ، الأمر الذى أسفر عن انفجار البارود وإصابة المخلوق التعيس بحروق بالغة . كانوا يودون منا شفاء هذا المسكين وعلاجه ، وقدمنا لهم ما لدينا من نصائح ، لكن أمل الشفاء كان ضعيفًا .

وبقى العبد المسكين خلف خيشة غليظة طوال الوقت الذى كنت فيه داخل الخيمة ، لكن يدى هى وبقيـة النسـاء كن يدردشن ويضـحكن وسـرعـان مـا رحن يصـرخن كمـا لو كن أطفالاً صغاراً . المرضى من البشر فى الصحراء لا يحصلون على الراحة المطلوبة .

* * *

يرى ولفـريد أنه نظم الأمـور مع بنيه الذى جاء لتناول العشاء معنا اليوم ، كمـا راجع الأمور بعد ذلك مع سيد عباس . وأعلن بنيه فى بداية الأمر أن القيام برحلة عبر الحدود إلى إيران كانت مسألة مسلمًا بها، وأنه لم يسبق أن سار أحد فى ذلك الطريق، نظراً لأن بنى لام كانوا فى حرب مع العجم (الفرس) ، ولم يجرؤ أحد على المخاطرة بالذهاب إلى المنطقة المجاورة لدزفول ، أو أى بلد من بلدان فارس ؛ كما قال بنيه أيضًا إن والده لم يكن فى الديار ، وإنه لم يكن لديه من الرجـال من يقوم بمرافقتنا فى هذه الرحلة . وبعد حوار طويل ، وبعد محاولات الإقناع من جانب سيد عباس وافق بنيه على أن يبدأ معنا فى صباح الغد ومعه ثلاثون خيالاً ، إلى أن يوصلنا سالمين إلى مخيم من مخيمات كريم خان ، شيخ أحد القبائل الكردية ، التى تعيش على نهر قرقيرية ، التى تبدأ بعدها مباشرة بلاد فارس ، وأنه سوف يحصل على عشرة جنيهات إنجليزية نظير أتعابه . هذا المبلغ ليس كبيراً إذا ما قام بنيه بالوفاء بدوره فى الاتفاق ، وسبب ذلك أن المنطقة فيمـا بين تركيا وبلاد فارس يذيع صيتها بأنها ليست خالية من عصـابات اللصوص الذين يسكنون هذه المنطقة أو من الأنهار التى يتعين عبورها . الحاج محمد مكتئب وحزين بشأن هذا الموضوع برمته .

أثناء تحاورنا ، سمعنا جلبة كبيرة وهرج ومرج فى مخيم قريب ، وأعقب ذلك الهرج والمرج إطلاق بعض الأعيرة النارية ، كما راحت خيول تعدو وتجرى، وهنا تعجب بنيه قائلاً : " هذا غزو ، إنه غزو! " قفزت واقفة وخرجت من الخيمة . وأول ما خطر ببالى هو إطفاء الشمعة ، ثم الإمساك بالسلاح والنظر إلى خارج المنطقة . وفى ضوء النجوم الخافت استطعنا تبين ما يشبه القتال حول المضيف ؛ وعلى الرغم من أن

الهجوم الليلى يعد أمرًا غير عادى تمامًا فى الصحراء ، فقد اقتنعنا أن عدوًا كان يسرق المخيم وينهبه . وعلى الرغم من أن القتال لم يكن يهمنا ، وأننا لن يصيبنا أذى كبير لو كنا فى ضوء النهار ، فقد أصابنا الذعر أثناء الليل . جهز ولفريد بعض الخراطيش ، وأصدر أمرًا بأن يجثو الجميع على الأرض استعدادًا للاشتباك إذا ما امتد القتال إلينا ، الأمر الذى أسفر فقط عند فتح الحاج محمد لنيران بندقيته بالمصادفة ، مما أدى إلى إصابة واحد من العقيل . كانت الخيول مقيدة بقيودها الحديدية ، ولما كانت مفاتيح الأقفال معنا فقد تأكدنا أن الخيول لن تضيع منا . كنا نعيش لحظات عصيبة . وبعد مرور ربع ساعة عاد إلينا بنيه مضطربًا يقول لنا إن غزوًا جاء من عند موسى ، وإنهم أخذوا بعض الإبل ، وأن الجلبة التى حدثت فى الخيمة كانت هى الاستعداد للقتال ؛ وأنه جاء يقترض بندقية لأنه هو وأصدقاءه سيقومون بمطاردة الغزاة . أعطاه ولفريد بندقية وعرض عليه أن يركب معه فى هذه الحملة ، لكن سيد عباس ، الذى ظل طول الوقت يؤكد لنا " أن الأمر لا يخصنا " ، لم يوافق على ذهاب ولفريد مع بنيه ، وبعد حوار طويل ، استقر الأمر على أن نبقى كلنا مع بعضنا ، وهذا من قبيل الحكمة والتعقل . وأنا أرى أن الغزو لم يكن خطيرًا ؛ ذلك أنه على الرغم من قيام بنيه هو وبعض الرجال بالعدو فى اتجاه العدو ، فإن القسم الأكبر من أهل المخيم بقوا فى أماكنهم ، واكتفوا بفتح الطلقات النارية وترديد أغانى الحرب . إنهم الآن يغنون على شكل مجموعة ويقولون : " عدوان – مزبان – عدوان – مزبان " ، ويضربون الأرض بحرابهم ورماحهم بطريقة إيقاعية ، وقد شبوًا نارًا كبيرة والنار تستعر الآن فى المضيف ، كما أن خيالات الناس الذين يروحون ويجيئون أمام المضيف تجعل الأمر كله بالغ الخطورة والوحشية .

الفصل الثانى

جلوستر . " صحيح أننا فى خطر كبير ،
والأكبر عندئذ هو ما ينبغى أن تكون عليه شجاعتنا " .

شكسبير

" أردأ ما نواجهه فى الصحراء هو الإنسان " .

جوارمانى

سقوطنا فى أيدى اللصوص – غافل وسعدون – اللجوء إلى الدبلوماسية – مسيرنا عبر " الأرض الحرام " – مخاوف الليل – طلب الحماية من أمير فارسى .

اليوم التاسع والعشرون من شهر مارس : على الرغم من أن حادث الليلة الماضية كان فى واقع الأمر أقل إزعاجًا من حقيقة ما جرى ، فقد بث القلق فى نفوسنا وجعلنا نقرر عدم البقاء فى مخيم المزبن أطول مما يجب . ترتب على ذلك ، أن ولفريد عندما التقى بنيه صباح هذ اليوم ، بدأ يحثه على التعجيل برحيلنا ، الأمر الذى أدى إلى ترتيب أمر ذلك الرحيل خلال عشية أو ضحاها . كان بنيه ، ذلك الشاب الصغير بحالة نفسية سيئة ، نظرًا لأن مطاردته للغزو لم تكلل بالنجاح ، أو هذا هو رأينا ، لأنهم لم يأخذوا تلك المطاردة مأخذ الجد ؛ وفى بداية الأمر لم يكن بنيه يفكر فى شيء سوى عودتنا إلى العمارة بدلاً من عبور الحدود، الذى قال عنه من جديد إنه شيء غير عملى . يزاد على ذلك ، أنه تراجع لأننا لم نسمح له بالاحتفاظ بالبندقية التى استعارها منا أثناء الليل؛ ولولا وجود سيد عباس، الرجل المتقدم فى السن، الذى يعامله بنيه باحترام كبير،

لما تمسك بنيه بالاتفاق الذى توصل إليه معنا . ولقد بدأت آسف الآن لأنه سمح لنفسه بالاقتناع ، نظراً لأننا دخلنا فى طريق شديد الحرج .

بدأت متاعبنا فى ساعة مبكرة من صباح اليوم . أول هذه المتاعب تتمثل فى حتمية وداعنا لسيد عباس ، آخر حلقة من حلقات اتصالنا بالاحترام والتقدير . قال لنا هذا الرجل العجوز : إنه لا يمكنه أن يتقدم معنا إلى ما هو أبعد من ذلك ، كما قال لنا أيضاً إن وضعه كسيد فى البلد الذى نحن ذاهبون إليه لن يكون محل احترام أو تقدير، وإن كل ما يمكن أن يفعله لنا هو أن يتمنى لنا الخير والسلامة فى طريقنا . واقع الأمر أن سيد عباس نفض يده من العملية كلها ، واحتج لدينا قائلاً إنه ذهب معنا إلى أبعد مما ينبغى أن يكون ، عندما وصل معنا إلى هذه المنطقة . واقع الأمر أننا لم نجد أى خطأ فى إصرار الرجل على العودة ، وشكرناه من قلوبنا على ما قدمه لنا من خدمات ، وعليه طلبنا منه أيضًا أن يرعى الحصان آريل وسمحنا له بالذهاب لحال سبيله . واعتباراً من تلك اللحظة لم يسر الأمر على ما يرام ، هذا يعنى أن الأمور اختلطت ببعضها . أولاً كان يتعين علينا عبور النهر ، وتلك عملية ليست من السهولة بمكان ، نظراً لأن ضفتى النهر كانتا من الطين ، بل إن الماء وصل إلى أكتاف الخيول . ومع ذلك ، لم يحدث ما يعكر الصفو إلى أن عبرنا النهر . بعد عبور النهر قال العقيليان اللذان يعملان معنا جمَّالين إنهما أيضًا لا يودان المضى قدمًا معنا إلى أبعد من هذه المنطقة . فقد خافا من الرحلة إلى بلاد فارس ، وهذا هو الكلام نفسه الذى قاله لنا سيد عباس ، وعلى الرغم من أنهما انتحلا مجموعة كبيرة من الأسباب والأعذار ، فإن كل هذه الأسباب والأعذار كانت تدور حول أنهما لا يريدان أن يموتا فى أرض أجنبية . كان الجدل معهما عقيمًا وبلا طائل ، على الرغم من عرضنا عليهم العودة إلى بغداد عن طريق البحر ، لم يتحركا بالعروض السخية ولا حتى بالتهديد بأن ذلك سيغضب شيخهما ، الذى كنا نقدره أكثر منهما . كان من المستحيل علينا الوصول إلى مرحلة الغضب الحقيقى ، لكن قضيتنا فى غيابهما يمكن أن تكون نسيًا منسيًا . واليوم تعين علينا نحن والحاج تحميل أمتعتنا على الإبل ، ثم اقتيادها بأنفسنا ، نظراً لأن

الحاج محمد هو الخادم الوحيد الذى بقى معنا، إضافة إلى أن بنيه هو وعربه لن يفعلوا شيئًا لنا ، ورضوا لأنفسهم الجرى بالخيل هنا وهناك وهم يقدمون نصائح لم نطلبها منهم . كان الأمر يضايق إلى حد بعيد .

تغير سلوك بنيه وتصرفاته تغيراً مزعجًا . عندما وجد أننا فى نطاق سلطته ، وأننا عبرنا نهر الطب ولا يمكن أن نتراجع ، تحول إلى شخص صلف بذىء اللسان ، وراح يحاول طوال اليوم افتعال الشجار والمشاحنات معنا حول المسدس الذى أعطيناه إياه ، والذى خرَّبه بفعل جهله ، كما راح يطلب شيئًا بعد آخر من أشيائنا ، كما لو كان طفلاً صغيراً وقحًا وسيء التنشئة . واضطر ولفريد إلى الحديث معه بطريقة فظة ، وطلب منه أن يستحى مما يفعل ، نظراً لأن سلوكياته وتصرفاته هى تصرفات العراقى الفلاح ، وليس واحداً من أبناء الشيوخ . ويواصل بنيه سخافته ويروح يطلب سيف ولفريد ، كما راح يعرض علىّ شراء فرسى ، وهذان عملان من أعمال البذاءة ، إلى أن قلنا له إنه أحمق وغبى ، وعندها ركب وهو يشعر بالإهانة وانصرف مع رجاله . كانوا تسعًا لكن لم يتبق معنا منهم ، سوى رجل عجوز ، كان يبدو عليه عدم الرضا عن تصرفات بنيه ، ومضينا مع ذلك الرجل ونحن سعداء . ليس من المناسب أن يقطع الإنسان الطريق كله إلى بلاد فارس بصحبة أوغاد من هذا القبيل. الجماعة كلها راكبة، وبنى لام ليس لديهم سوى قلة قليلة من الأفراس الأصيلة وبخاصة سلالة الودنان ، فى مخيم المزبن كان هناك حصان يسمونه نُسبان ، وهذا اسم جديد علينا .

بعد أن عبرنا نهر الطب ، بدأت الأرض فى الانحدار ، كما ظهرت أيضًا المراعى الكبيرة فى التجاويف والمنخفضات ، الأمر الذى خفف من قلقنا على الإبل . يجدر بنا هنا أن نقول ونرى هذه الإبل وهى تتغذى هنا من مراعٍ وحشائش خضراء وفيرة ، وهى ماشية فى طريقها ، وتعوض بذلك صيامها الشتوى الطويل .

عند الساعة الثانية ، شاهدنا بعض الخيام ، وجدنا بنيه عندها هو ورجاله ، ينتظرون عشاء على خروف كان يجرى طهوه . وعلى الرغم من أننا كنا جوعانين ، فقد كان يتعين علينا المرور دون أن نحضر هذه العزيمة ، نظراً لأننا بدأنا نتشكك فى نوايا

مُضيّفنا ، كما بدأنا نشعر بالقلق كلما بعدنا عن خيولنا . لم يكن هناك رفض قاطع من جانبنا ، ولم يكن يبدو علينا الشك، أو الخوف ، ورحنا نشارك مشاركة طيبة قدر المستطاع فى تلك التسلية الوقحة. استغرقت العزيمة ما يزيد على الساعة ، عندما شرعنا فى الرحيل حدثت أيضًا بعض التعطيلات ، إلى حد أن دخل علينا الظلام ونحن لم نصل بعد إلى المخيم الذى سنقضى فيه الليل . كانت الأمطار التى سقطت مؤخرًا قد غطت الأراضى المنخفضة بالماء ، وأصبحنا الآن فى وادٍ واسع ، وربما كان من قبل منطقة زراعية خصبة ، لكنه مهجور منذ زمن بعيد ، عندما أوشكت الشمس على الغروب كنا قد تجاوزنا جبال إحدى المدن القديمة ؛ وهذه الجبال ليست موقعة على أية خارطة من الخرائط التى برفقتنا ، والناس هنا يطلقون على هذه الجبال اسم جريسيات ، وبالقرب من هذه الجبال عثرنا على المخيم الذى نحن فيه الآن .

نحن لا نعرف بعد هوية سكان الجريسيات . يبدو ذاخر ، شيخ هذه المنطقة هو من بنى لام ، أما بقية السكان فيبدو عليهم أنهم من قطاع الطرق والمجرمين وليسوا مطلقًا من البدو المحترمين . وجوه هؤلاء الناس هى أشد الوجوه دلالة على الشر وذلك على العكس من البشر كلهم الذين التقيناهم فى الأسفار التى قمنا بها ، والحاج محمد يقول إن كلهم من اللصوص الأكراد . ذاخر هو وشقيقه غافل يبدو عليهما أنهما قادران على ارتكاب أى شكل من أشكال الخيانة . وهم أصحاب سلوك ناعم ، ولهما وجهان مترهلان ونظرة سوداء فى عيونهما ، هذه النظرة السوداء هى وصفوف أسنانهما شديدة البياض تجعل البدن يقشعر . استقبلانا فى بداية الأمر ، فى " مضيفهما " الكبير بشىء من الكرم الاستعراضى ؛ وعلى الرغم من أن نارًا كانت مشبوبة فى كتل من الخشب فى وجار القهوة فى منتصف المضيف ، فإن أحدًا لم يقدم لنا القهوة ، وهذا فأل غير حسن ، وعندما طلبت شيئًا من الماء ، لم يحضروا لى الماء فى إناء من أوانيهم وإنما أخذوا إناءنا ليقدموا لنا فيه الماء . إنهم من الشيعة ، وهذا هو الأرجح ، وهم وقحون من حيث المبدأ كنا قد نصبنا خيمتنا على أفضل نحو ممكن أثناء الليل ، وكومنا أمتعتنا كلها داخل الخيمة ، نظرًا لأن الرجال هنا تبدو عليهم علامات ودلائل اللصوصية ، والأفضل القول إن كل رجل من الرجال هنا يبدو كما لو كان سفاحًا .

اليوم الثلاثون من شهر مارس : فى الليلة الماضية، وقبل أن نسترخى طلبًا للنوم ، جاء بنيه إلى خيمتنا ومعه ذاخر ، وبدأ من جديد يهدد ويستعطف ، لكن ولفريد لم يعطه شيئًا سوى الجنيهات الإنجليزية العشرة التى جرى الاتفاق عليها ، ووعد ذاخر أن يكون بصحبتنا ثلاثين خيالاً أثناء ذهابنا إلى درفول Dizful، وهذه المسافة تقدر بحوالى تسعين ميلاً . رفض بنيه الذهاب معنا ، بزعم أن العجم (بلاد فارس) ليست بلده ، لكن ذاخر سيذهب نيابة عنه ، أو ربما يذهب غافل . كان ذلك خرقًا واضحًا للاتفاق ، لكننا كنا سعداء لأننا تخلصنا منه ، ولكن ولفريد ، بعد شيء من الاحتجاج ، قبل البديل . ثم تظاهر بنيه بكتابة بعض الرسائل إلى الخانات أو إن شئت فقل شيوخ قبائل الحدود ، لكننى أشك فى أن تكون لهذه الرسائل أية قيمة ، لأنه لم يكن معه خاتم من أختامه، وقام ذلك الأفّاق بالتوقيع على هذه الرسائل بختم واحد من الواقفين . وتلك عملية غير معتادة وتدور من حولها الشكوك ، لكننا لم نبد أية ملاحظة أو تعليق ، وعبرنا عن شكرنا فى كل الأحوال ، بل وكنا سعداء لأننا تحررنا من صحبته . ويلوى ذلك الآدمى عضلات وجهه على نحو يبين أنه لعب لعبة ناجحة ، ثم يضع الجنيهات العشرة فى جيبه ، دون أن يقرئنا السلام ، يركب فرسه وينصرف لحال سبيله ، والمؤسف أن صديقنا الوحيد، ذلك الرجل الذى فى منتصف العمر ، تبع بنيه هو الآخر.

بقينا وحدنا مع ذاخر ، هو وجماعته وتحلقوا حولنا ونحن نقوم جاهدين على تحميل إبلنا . وهذا هو الحاج محمد المسكين العجوز ، بزيه المتسخ ، وسيفه يتدلى بين رجليه ، قد تحول إلى جمّال على درجة عالية من الكفاية ، وبدأت الأمور تسير سيراً بطيئًا . كنا ننتظر من ذاخر أن يكلف أحداً من جماعته ليقدم لنا يد العون فى تحميل الإبل ، وأن يطلب من بقية جماعته إخلاء الطريق لنا كى ننتهى من عملية تحميل الإبل . قدم الرجل لنا المساعدة على مضض ، ومن باب إطاعة أوامر ولفريد ، لأنه بدأ يتكلم بصوت عالٍ ، بدلاً من التعبير عن حسن نيته وطويته . ومع ذلك ، أظهر ذاخر شيئًا من الأدب ، من منطلق أنه ما يزال مُضَيِّفنا ، وهذه وضعية مقدسة لدى العرب كلهم ، وعندما ظهر غافل شقيق ذاخر ، وأعلن أنه هو الذى سيرافقنا ، كنا قد بلغنا من الضيق مبلغًا حتم علينا الرحيل .

وما إن ركبنا خيولنا ، بعد أن سارت الإبل أمامنا حتى شعرنا بالمزيد من الارتياح ، ومع ذلك كان الجميع يشعرون بالقلق . في رأيي ، أنه كان من الأوفق لنا الرجوع إلى الخلف عند هذا الحد ، لولا أننا تذكرنا كلاً من بنيه هو ونهر الطب من خلفنا ، وهما شران كنا نعرفهما ، لكن الأخطار المجهولة لنا كانت هي الأفضل لنا . وفي لحظة من اللحظات رحنا نمني أنفسنا بالفكرة التي مفادها أن غافل سيكون رفيقنا الوحيد ، واستمر ذلك الوهم معنا طوال ميل أو ميلين من المسير ، إلى أن تأكدنا منه . يزاد على ذلك ، أن مسيرة هذا الصباح الصحو كانت خلال منطقة جميلة ، فقد كنا قريبين من التلال ، الأمر الذي جعلنا لا نحس بالقلق ، وبغض النظر عن سكان هذه التلال ، فهي أرض فارسية تشبه بستانًا من بساتين عدن ، التي تطاول أعشابها وزهورها ركب البشر في كل المنخفضات والتجاويف .

غافل هو الآخر صورة أسخم من ذاخر نفسه ؛ إذ كان مصابًا بنوع كريه من الحول ، علاوة على الرذائل الأخرى التي ورثها من أخيه . وجه غافل شبيه دائمًا بالسحابة الرعدية ، والابتسامات التي يحملها هذا الوجه (إذ إنه يبتسم في بعض الأحيان ليكشف عن طقم من الأسنان العجيبة ناصعة البياض داخل فم يمتد من الأذن للأذن) تشبه ابتسامات الحيوانات المتوحشة . غافل يتصرف أيضًا مثل القطط ، تصرفات ناعمة وجبانة في ذات الوقت ، لكنها شرسة وعدائية . في البداية ، طوال وجوده معنا ، كان يبدو أنيسًا تمامًا ، لكن بعد مرور ساعة واحدة لحقنا بالجماعة التي كنا سنسافر برفقتها ، وهنا تغير سلوك الرجل تغيرًا كاملاً . لم تكن هذه الجماعة من الخيالة ، أو حرسًا مرافقًا بأي حال من الأحوال ، وإنما كانت عصابة من أوسخ وأحط الأوغاد الذين رأيناهم في حياتنا . كان عدد هؤلاء الأوغاد يقدر بحوالي أربعين وغدًا ، ومعهم ضعف هذا العدد من الحيوانات ، والإبل ، والثيران ، التي كانوا يسوقونها أمامهم وهي محملة بجوالات وزكائب فارغة . كان من بين هذا الجمع امرأتان تسيران على أقدامهما ، كما كان هناك خيال أيضًا على رأس هذا الموكب ؛ هذا الخيال كان يركب فرسًا بيضاء صغيرة الحجم . سألناهم عن مقصدهم الذي يودون الوصول إليه ، وأجابونا بأنهم ذاهبون " إلى دزفول " " لشراء القمح " ، وأمطرونا نظير سؤالنا لهم

بمائة سؤال ؛ قسم كبير من تلك الأسئلة شديد البذاءة ، لكننا تمكنا عن طريق التملص من الإجابة ، والتظاهر بعدم فهم بعضها ، بل وبإعادة طرح الأسئلة عليهم ، تمكنا من جعلهم يلزمون حدودهم والمحافظة على كرامتنا . ومع ذلك سرعان ما اختاروا الحاج محمد ، ذلك المسكين ، ليكون محطًا لمرحهم ومزاحهم . وجدوا فى معطف الرجل القديم مادة للضحك والسخرية الشديدة . راحوا ينتقدون الرجل انتقادا لاذعًا وقاسيًا كما لو كان موجوداً بين جماعة من مجرمى ولصوص منخفضات إبسون Epson ، فى الوقت الذى ضاق الرجل بمزاحهم ونفد صبره على سخافتهم . هذا المزاح السخيف كان ينطوى على شىء أكبر . الحاج محمد سُنِّى وهم من الشيعة ، الأمر الذى جعل تشددهم الدينى يزيدهم إيلامًا على إيلامهم . وسرعان ما تحول الكلام إلى لكمات ، وعندها تدخل ولفريد بوضع رأس وجسد حصانه فيما بينهم ، مبعداً إياهم عن بعضهم البعض فترة وجيزة . لكنهم سرعان ما عادوا إلى الرجل المسكين ، لكننا بذلنا كل ما فى وسعنا منعًا لإساءة معاملة هؤلاء الأوغاد لذلك الرجل المسكين . ناداه أحدهم وعرض عليه أن ينزل عن دابته ويركبها هو ، وناداه آخر وطلب منه أن يجعله يطلق طلقًا ناريًا من بندقيته ، وطلب منه رجل ثالث أن يملأ له غليونة بالتبغ ، ولم يعرف ذلك الحاج المسكين كيف يرفض تلك الطلبات بطريقة مناسبة . كان النداء المستمر الذى لم ينته طوال فترة الصباح : " يا حاج ، أين غليونك ؟ أين تبغك ؟ عجِّل ، فأنا مشتاق إلى التدخين " . لم يستطع غافل ، فى ذات الوقت ، عمل أى شىء ، بل إنه كان عاجزًا عن فعل أى شىء من باب السيطرة على الموقف ، واكتفى بالجلوس فوق جمله حزينًا مكلومًا ؛ كان غافل ملتزمًا الصمت فوق جمله أو يتكلم بنغمة خفيضة كما لو كان وغداً أعور . كان الموقف لا يطاق مطلقًا ، لكن نظرية الصبر التى سبق أن تعلمناها فى الجزيرة العربية ، هى وطيب المعشر مع الجمهور ، هما اللذان جعلانا نتحمل ذلك الذى يدور أمامنا . ومع ذلك ، تمكنا خلال فترة العصر من إقامة بعض أواصر الود مع اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الرعاع ، وعليه مع دخول فترة المساء ، التى توقفنا عندها ، كنا قد أنشأنا بالفعل من بين هؤلاء الرعاع جماعة منهم تقف إلى جانبنا وتساندنا . تلك من وجهة نظرى كانت الطريقة المناسبة لتحاشى أية كارثة من الكوارث ، فقد أصبح من المؤكد أن غافل هو وبعض أفراد الجماعة كانوا يضمرون لنا السوء .

قبل غروب الشمس بحوالي ساعة وصلنا إلى نهر واسع ، أوسع وأعمق من نهر الطب ، وهنا أصدر غافل أوامره بالتوقف لنيل قسط من الراحة . لو كنا جماعة قوية قادرة على الاعتماد على نفسها فى التنقل ، ولو كنا عبرنا النهر وحدنا ، لكنا قد تمكنا من المضى قدمًا وخلّفنا مطاردينا وراءنا ؛ لكن ذلك كان مستحيلاً فى ظل الموقف اليائس الذى نحن فيه ، ولم يكن أمامنا من خيار سوى التوقف والنزول عن دوابنا . كانت لحظة من لحظات القلق ، لكنى أعتقد أننا تصرفنا تصرفًا حكيمًا عندما بينا لهم أننا نثق بهم ولا نخوِّنهم ، وفور توقفنا أعطينا أحدهم حصانًا وأعطينا الآخر بندقية ، فى حين نادينا على الباقين لكى يساعدونا فى تنزيل الأحمال عن الإبل ، وإخراج القهوة والمؤن والتموينات لعمل عزومة عامة . وقد بدا ذلك عملاً جيداً فى عيون الكثيرين منهم ولا يمكن رفضه، كما وزعنا جوالاً من الدقيق وجوالاً من الأرز على أفراد الجماعة ، وقد وعدت المرأتان بخبز الدقيق وتحويله إلى أرغفة للمجموعة كلها ، وعندها وصل إلينا غافل ومعه الأعور بعد أن عادا من محاولة اكتشاف المخاضة التى يمكن أن نعبر منها النهر . غضب غافل هو والأعور عندما شاهدا التغير الذى طرأ على الجماعة ، وحاولا فى البداية منع الناس من الأكل معنا ، بدعوى أننا من الكفرة ، على حد قول هؤلاء الناس لنا فيما بعد ، لكن الموقف كان أقوى مما أصرا عليه بكثير جداً . على كل حال ، رفض الاثنان الأكل معنا أو شرب القهوة ، وبقيا بعيداً عنا مع أولئك الذين لم يصادقونا . كانت المرأتان إلى جانبنا هما وأغلبية الشباب صغار السن. كانت أمسية عصبية إلى حد بعيد ، نظرًا لأن أصدقاءنا كانوا متقلبين تقلب الرياح ، وكانوا يوشكون دومًا على افتعال الشجار معنا . انصرف الجميع بعد ذلك ، وتركونا لحال سبيلنا ، جالسين حول نار كبيرة شبوها فى خشب الأراك ، وقالوا لنا إن هذه النار " تخيف الأسود وتطردها " . أفلحنا فى نصب خيمتنا ، وجعلنا من خُرُج الإبل متراسًا أو حاجزًا حتى لا نُؤخذ على غرة ، أو نفاجأ من نقطة ضعف . لم أغمض عينىّ طوال الليل ، وبقيت أراقب النار الموقدة خارج الخيمة ، ويدى على بندقيتى . قام الحاج محمد أثناء الليل بالتسلل ليقترب منهم ويسترق السمع على ما يقولون ، ويؤكد الرجل لنا أن حديثًا كان يدور بينهم حول ما إذا كانوا سيقتلوننا وموعد القتل وطريقة

تنفيذه ، وأن الأعور كان من أشد المؤيدين للشطط فى الإجراءات التى يمكن اتخاذها . هذا الأعور الوغد القوى الذى يحمل عكازًا ، قال لنا إنه يحمل ذلك العكاز ليخيف به الأسود ويبعدها عن طريقه . عاد إلينا الحاج محمد بهذه الحكاية المخيفة ليهدئ من روعنا ، ولم تكن تلك الحكاية المرعبة وهمًا فى مجملها ، نظرًا لأنه عند منتصف الليل ، وبينما كان ولفريد نائمًا ، ولما كان الحاج محمد ، القائم بالحراسة ، قد دخل فى غفوة النوم ، شاهدت بوضوح كامل غافل ، الذى سبق أن جاء إلى الخيمة ، وعندما رآنا كلنا ، على حد زعمه ، نيامًا رفع طرف الخيمة وزحف من تحته من ناحية ولفريد . بقيت بلا حراك ، ومن المكان الذى كنت فيه تبينت شخص غافل تبينًا واضحًا فى ضوء السماء . وعندما دخل الخيمة ناديت بصوت عالٍ : " من هناك ؟ " ، وعندما سمع صوتى تراجع إلى الخلف ، وانسل خفية خارجًا من الخيمة . وقد استيقظ الحاج محمد على أثر ذلك ولم ينم أحد منا بعد ذلك ، لكنى رأيت غافل وهو يحوم حولنا مثل ضبع من الضباع طوال القسم الأكبر من الليل .(*) تصرف الحاج محمد تصرفًا سليمًا جدًا ، على الرغم من تخوفه إلى حد بعيد . وأنا بدورى رحت أخفى ذعرى وانزعاجى على نحو أفضل مما يفعله الحاج محمد . واقع الأمر أننى أصبحت على يقين من أن الشجاعة والجرأة هى الوسيلة الوحيدة لسلامتنا ، نظرًا لأن الجبن وحده هو الذى يمنع غافل هو وجماعته من الهجوم علينا . نحن مُسلّحون تسليحًا جيدًا ، وهو يعلم علم اليقين أنه لن يستطيع القيام بما يريد دون عقاب. وأنا أرى أننا ما دمنا فوق خيولنا ، فلن نصاب بأضرار كبيرة ، لكن الليل وقت غير مُواتٍ . لو كنا فى صحراء مفتوحة لاستطعنا تحديهم جميعهم .

اليوم الحادى والثلاثون من شهر مارس : جاء الصباح عاصفًا ، وخفنا أن يكون النهر قد ارتفع منسوبه أثناء الليل ، وهذا من الأشياء التى ربما تحدد مصيرنا ، وعلى الرغم من أن السُّحُب كانت سوداء وحبلى فوق التلال فإن الفيضان كان منحسرًا .

(*) هذا القسم من اليوميات كتبته فى لحظات الارتباك فى وقت لم يكن النظام فيه أمرًا ممكنًا . وجرى ضم هذه الأحداث إلى بعضها البعض .

بعد أن جربنا أماكن عدة ، ثبت لنا أنها كانت عميقة ، تمكن عَقيدنا ، ذلك الرجل الذى يركب فرساً بيضاء ، من العثور على مخاضة ، إن جاز لنا استعمال هذا الاسم ، نظراً لأن الماء كان يغطى ظهر فرسه ، وتبعته الجماعة كلها . مر اللصوص ، لأن هذا هو الاسم الذى ينبغى أن أطلقه عليهم ، بسهولة ويسر لأن إبلهم لم تكن محملة ، لكن إبلنا عبرت بشق الأنفس . كان تيار النهر قوياً جداً ، وعلى الرغم من أن حذيران هو والجمال القوية الأخرى استطاع عبور النهر بصورة جريئة ، فإن اثنين من الإبل توقفا فى منتصف المسافة ، وأوشكا على السقوط أرضًا ، وأصبحا عرضة لأن يكتسحهما النهر ، وهنا عاد ولفريد إلى الخلف من الجملين فى الماء العميق وراح يدفع الجملين . كانت مسألة مراقبة ذلك الذى يحدث أمراً يثير الغضب ؛ إذ لم أكن أرى من الحصان وراكبه سوى رأس الراكب ورأس الحصان ، لكن الحصان جوب Job كان يسبح بمهارة ، وبذلك أمكن إنقاذ الجملين وعبر الجميع النهر بسلام . كنا حسنى الطالع فى هذا الحادث ، الذى أوحى للصوص بفكرة واضحة عن مدى تصميمنا وإصرارنا ، وهنا انضمت جماعة أخرى إلى جانبنا . جاء ذلك الحادث بمثابة فأل حسن لنا، لأننا بعد عبور النهر مباشرة جاءنا كل من غافل هو والأعور اللعين سعدون، ليقولا لنا بنغمة تنطوى على كثير من التهديد بأننا ينبغى ألا نمضى قدماً أكثر من ذلك. كان واضحًا لنا تماماً ذلك الذى قالاه لنا ، لكننا تظاهرنا بأننا لم نفهمها ، وقلنا بنغمة مرحة ، إن المكان جميل ويجب أن نتوقف فيه ، لأن العشب فيه وفير والماء وفير أيضاً لكى تشرب منه الحيوانات ، ووافقنا على الفور على التوقف . رجا ولفريد غافل أن يجلس أرضاً ويدخن معه غليوناً من التبغ ، وعندما تمنع غافل ، أصر ولفريد أن يدخن . قال ولفريد : " أنت ضيفى الآن ، يا غافل ، مثلما كنا نحن ضيوفًا عليك ؛ ما الذى يمكن أن أفعله لك كى تبدو سعيداً ؟ " قاطعه سعدون قائلاً : " والله ، يا بك ، أنت لم تفعل له شيئًا ولا لأى أحد منا إلى الآن ، ويتعين عليك أن تفعل ذلك الآن " . " تقول يتعين ؟ هذا حقيقى ، وسوف أكون سعيداً جداً بذلك . خبرنى عما تريد أن أساعدك به أو فيه – ما الذى يريده غافل " . بدأ غافل تاريخًا طويلاً عن كرامته كشيخ للقافلة ، وعن العار الذى لحق به لأنه لم يحصل على عباءة الشرف من البك ، وتحدث أيضًا عن

الإهانة التى لقيها منا – الأمر الذى جعل ولفريد يعبر للرجل عن عظيم ألمه ومفاجأته بكل ذلك (*). قال : " لقد وقعت هنا بعض الأخطاء . ولن أسمح للدنيا كلها بمعاملتى على النحو الذى عُومل به من قَبلى. لأن العار سيكون من نصيبى أنا" ؛ وراح غافل بعد ذلك يخلع عباءته علنى أعطيه عباءة ؛ هذا يعنى أن غافل ما يزال غير راض أو مقتنع . قال سعدون وهو يتهامس : " لا ، لا ، الأمر ليس هكذا ؛ الذى يريده الشيخ هو النقود – النقود ، هل تفهمنى ؟ – نقود لنا جميعًا . " وهنا قال ولفريد متعجبًا : وهل يمكن أن تظلوا جميعًا بلا أجر ؟ ألم يعطكم بنيه شيئًا من النقود التى أعطيته إياها ؟ ـ وهل كنتم تعملون معى طوال هذا الوقت "بلاش" ، أى بلا مقابل ؟ هذه فضيحة بحق وعار . تعال ، يا سعدون ، وهيا بنا نناقش الأمر ونصلح الخطأ . " وأخذ ولفريد يمسك الأعور من ذراعه ، وأخذه على جنب للتشاور معه ، فى حين بقى غافل معى واجمًا وحزينًا . كان هم ولفريد الأول عندما أصبح على انفراد مع الكردى ، أن يتحفه بهدية مقدارها عشرة قرانات (فرنكات) له هو وحده ، ووعده بعشرين قرانًا (فرنكات) أخرى عندما نصل إلى كرخة ، من منطلق أن هذا الأعور كان أشد أفراد الجماعة خطرًا علينا وعداءً لنا . ثم أوكل إليه مسألة التفاوض على بقية الابتزاز مع غافل . كنا فى ذلك الحين قد أصبحنا مستعدين لأى طلب من الطلبات ، نظرًا لأننا كنا فى قبضتهم وتحت سيطرتهم ، ولم يكن يتبقى معنا سوى حوالى مائة جنيه إنجليزى ، ومقتنيات تصل قيمتها إلى هذا المبلغ أيضًا . وسعدنا كثيرًا عندما عاد إلينا سعدون ، الأعور ، ليطلب منا مبلغ مائة قران (فرنك) وعباءة من الحرير ، كل ذلك لقاء حماية غافل لنا . وبعد التظاهر بالرفض من جانبنا ، بأن هذا المبلغ ضخم جدًا ، وبعد أن صرَّحنا بأننا على استعداد للبقاء فى المكان الذى نحن فى مدة شهر من الزمان ، أخرجنا فى نهاية الأمر – أعطينا اللص العباءة نفسها التى كانت واحدة من هدايا ابن الرشيد لنا فى نجد – عباءة من الحرير ، مطرزة بالذهب ، وكانت هى العباءة الوحيدة لدينا ؛ وبعدها استأنف المسير . واقع هذا الأمر هو أن غافل ربما كان خائفًا من الإفراط والتطرف نتيجة

(*) نحن على ثقة من أن هذه الازدواجية ستغفر لنا فى ظل الضيق والاختناقات التى كنا نعانى منها .

لأسباب واقعية ، إذ ظهر لنا دليل واضح على جبنه ، وربما أيضًا من باب تخوفه أن رجاله لن ينضموا إليه فى حال قيامه بأى عمل من أعمال العنف . سفك الدماء أمر لا يقره أى أحد من العرب ، مهما تدنت أخلاقه ، وبخاصة عندما يتصل الأمر بضيف ، أو كان ضيفًا ؛ وعلى الرغم من أن الأكراد الخلاسيين ، هم والفرس ، الذين كانوا يشكلون أكثر من نصف الجماعة كان بوسعهم تحريض غافل وحثه على القيام بذلك العنف ، فإن بقية الجماعة لا يمكن أن تشجعه أو تحثه على ذلك. كانت واحدة من المرأتين زوجة لغافل ، والمرأتان كانتا صديقتين صريحتين معنا . هناك اعتبار آخر يجب أن نأخذه فى الحسبان هو أننا كنا فى أرض معادية ، نظرًا لأن منطقة دويرى هى آخر حدود بنى لام ، يزاد على ذلك أن رجالنا بلغوا من البؤس والجبن حدًا جعلهم لا يعتمدون علينا فى شىء فى حال الهجوم . كان جزء من اتفاقنا مع غافل يقضى بأن نقاتل إلى جانبه ضد الفرس إذا ما دعا الداعى إلى ذلك ، وقد قدمنا له ذلك الوعد عن طيب خاطر . صفا الجو بعد ذلك إلى حد ما ، وبدأنا بداية جديدة فى ظل شروط جديدة وأفضل . وتواصلت الدعابات مع الحاج محمد ، أما نحن فقد أصبحنا نحظى بالمزيد من الاحترام ، وراح الأعور يعاون بين الحين والآخر فى سياقة الإبل ، وبصحبته شاب كان يرتدى ثيابًا خضراء ، هو الذى أصبح اعتبارا من الآن واحدًا من مطاردينا السُّخفاء .

مضت الجماعة كلها بحذر شديد ، وهى تعرب ، بلا خجل ، عن خوفها الكبير من العجم (الفارسيين) ، الذين كانوا يتوقعون لقاءهم عند كل منعطف من منعطفات الطريق . وخلف دويرى وجدنا أنفسنا فى طريق مطروق ؛ هذا الطريق يعلو وينخفض من فوق قطعه متموجة من الصحراء ، تعد آخر تموجات سلسلة تلال الحمرين التى أصبحت خلفنا الآن. جرت العادة أن يكون العقيد فى مقدمة الركب لكى يتحسس العدو المحتمل ، وكانت التعليمات الصادرة إلى الجميع تقضى بأن نكون جميعًا منضمين ومتجاورين بعضنا مع بعض . كانت جماعتنا على العكس من ذلك جماعة غوغائية ، إلى حد أن المرء كان بوسعه أن يسمع ضوضاء هذه الجماعة من بُعد أميال كثيرة .

كانت الثيران قد تعبت ، الأمر الذى تطلب كثيراً من الجهد فى سياقة هذه الثيران ، يزاد على ذلك أن الصياح والصراخ كان يذكرنا بسوق من الأسواق الأيرلندية . مضينا على هذه الشاكلة دون توقف إلى الساعة الثالثة ، وعندها صدرت أوامر بالتوقف فى تجويف من التجاويف ، اختفينا فيه عن أنظار الأعداء ، كما كانت فى التجويف أيضاً كمية كبيرة من نبات الخبيزى البرى وبعض النباتات الأخرى التى يسمونها الهكّالة : وقد اكتشفنا أن طعم هذا النبات طيب وكنا لم نتناول شيئًا طوال النهار . وعلى مقربة منا كانت هناك مجموعة من الأشجار الشبيهة بأشجار الأثل، لكننا لم نجرؤ على ترك إبلنا والذهاب لاستكشاف تلك التلال وتلك الأشجار . لم تستغرق وقفتنا سوى نصف ساعة فقط ؛ وبعد ذلك صدر نداء يقول " يلا يلا ، اركب اركب " وتحرك الجمع بعد هذا النداء .

توقفنا بعد ذلك بصورة مفاجئة قبل غروب الشمس بحوالى ساعة . وكان توقفنا فى هذه المرة بناء على إنذار . كان العقيد الذى وصل إلى قمة أحد التلال المنخفضة ، قد شاهده أفراد الجماعة وهو يلوح بعباءته عند عودته ، وفى الحال تناهت إلينا من بعيد صيحات العقيد وهو يقول : " العجم ، العجم " . وخلال لحظات قليلة كان الجميع يتصرفون مثلما يتصرف سرب الحبارى عندما تشاهد صقراً من الصقور ، وصدرت لنا أوامر بالنزول من فوق الدواب . بعد تبادل بعض الكلمات السريعة مع العقيد تأكدنا من الخطر المحدق بالجماعة ، وتملك الخوف الجميع . سألنا العقيد: " كم عدد الخيالة ؟ كم عددهم ؟ " جاءت الإجابة : " خمسة خيالة . لكن هناك الكثيرين خلفهم ؛ ثم هؤلاء هم العجم ! " وإذا كانوا هم العجم ، وهم خمسة فقط ألستم أنتم أربعين وقادرين على القتال ؟ " صاحوا قائلين : " لا ، لا ! أنت لا تفهم ما نقول . هؤلاء الخيالة فارسيون - فارسيون بحق ؛ كل واحد منهم قادر على قتل خمسة منا . " لم يخطر ببالى أن يكون هناك جبناء من هذا القبيل . كانت مجموعة من أولئك الأقل جبنًا قد تسلقت قمة التل وجاءوا الواحد بعد الآخر ليبلغونا عما شاهدوه ، وارتفع عدد الخيالة الذى شاهدهم العقيد من خمسة إلى خمسة عشر خيالاً ، ثم بعد ذلك إلى خمسين خيالاً .

وعندما وصلنا الرقم الأخير ، جاءنا غافل الجبان ، الذى بقى واقفًا وسط الدهماء ، كى يصاب بأقل الأخطار المحدقة ، ليقول لنا بكلامه المعسول ، وأسلوبه المتذلل ، متناسيًا كل الابتزاز الذى مارسه علينا ، إننا ينبغى أن نكون حريصين فى المعركة الوشيكة . قال : " يجب أن تقفا فى وجه الآخرين ، وأن تفتحا النار بأقصى سرعة ممكنة، ومباشرة كيما تقتلا هؤلاء العجم – أقول: اقتلاهم، وأرجو أن تفهما ما أقول – الأفضل أن تقتلاهم رميًا بالرصاص وأنت يا خاتون ، ، هل تعرفين كيف تستخدمين البندقية ، أنا على يقين من ذلك ولن تكونى خائفة . " لم نتمالك نفسينا ورحنا نضحك منه ، الأمر الذى صدمه صدمة عنيفة ومخيفة . وسرعان ما جاءنا رجل آخر مندفعًا ليقول لنا إن العدو مقدم علينا ، وهنا يحدث ارتباك جديد لم يكن متوقعًا . وهذا هو الصبى الذى يرتدى زيًا أخضر اللون ، جاء يلتمس بعض كبسولات ضرب النار من ولفريد لبندقيته ، وأعطاه ولفريد خمسين كبسولة ، وقد أدى ذلك إلى نشوب مشاجرة لرفض هذا الصبى اقتسام تلك الكبسولات مع بقية المجموعة . حاول كل واحد منهم اقتراض بندقية الآخر أو رمحه لأنهم كانوا مسلحين تسليحًا بدائيًا ، ولم يجرؤ أحد منهم على الوقوف فى المقدمة ، وإنما كانوا جميعًا يحاولون الوقوف فى الخلف . كانت المرأتان وحدهما هما اللتين ترفعان رأسيهما ، فى حين كان غافل ، الذى ابيض وجهه من الخوف يغدو ويجيء متعصبًا . أما نحن والرجل العجوز ، الحاج محمد ، فقد وقفنا على بُعد مسافة قليلة من بقية الجماعة ، وكنا نمسك ببنادقنا ، مستعدين لفتح النار وركوب خيولنا ، فى حين راح ولفريد يشغل فترة الانتظار والترقب بإعطائنا بعض التعليمات بما يجب أن نفعله إذا ما تفرقنا عن بعضنا بسبب القتال . كنت راسخة تمامًا فوق الفرس على نحو يصعب معه إسقاطى على الأرض ، وتقرر لى أن أقصد نهر كرخة ، الذى كنا نعرف أنه على بُعد مسافة قصيرة فى اتجاه الشرق ، وأن أضع نفسى تحت حماية أول خان فارسى يلقانى ، وحبذا لو كان ذلك هو كريم خان ، الذى كنت أحمل له فى جيبى رسالة ، الذى هو وكيل الحكومة الفارسية . ومع ذلك ، تمنينا لو نكون مع بعضنا البعض ، ونهزم العدو . ونادى ولفريد على غافل: " يجب أن تخبرنى عندما تبدأ إطلاق النار " ، لكن غافل بلغ من الخوف حدًا لم يستطع معه الجواب .

ومع ذلك ، صاح رجال عديدون وهم يقولون : " افتح النار على كل من تراه " - كل الذين هنا أعداء". جرى تبريك الإبل على الأرض، كما جرى جمع الماشية إلى بعضها البعض ؛ قلة قليلة من بين هؤلاء الدهماء هم الذين بدا عليهم الاستعداد الفعلى للقتال . كان الجميع صامتين لايتكلمون إلا همساً . وبقينا على هذا الحال قرابة نصف الساعة؛ ثم جرى واحد من الجماعة إلى قمة التل لاستطلاع الأمر ، وبعد أن تعب ولفريد من الانتظار اقترح علينا تناول العشاء ، نظراً لأننا لم نتناول أى طعام طوال النهار. أخرجت شيئًا من الخبز ورمانة من خرج الجمل ، وبدأنا نأكل وسط استياء الآخرين ، الذين صدموا لاستخفافنا بالأمر فى لحظة كهذه . وفى الحال حدث إنذار آخر ، وطلب الناس منى الدخول ضمن مربعهم ، وذلك من باب الإشفاق علىَّ ، لكن لن نفعل أى شىء من هذا القبيل ، فقد كنا فى مكان أكثر أمنًا ونحن بصحبة خيولنا . ولم يصل إلينا أحد من الأعداء ، وبعد أن انتهينا من تناول وجبتنا ربطنا مقاود خيولنا فى أذرعنا ورقدنا أرضًا ملفوفين فى عباءاتنا ؛ كنا متعبين تماماً ولذلك رحنا فى سبات عميق . ولم نسمع شيئًا بعد ذلك عن العدو طوال تلك الليلة .

لكن متاعبنا لم تنته فى هذا المكان . كنا قد بدأنا نستشعر الراحة فى النوم ، قبل أن توقظنا من منامنا تلك الموجة الرعدية الهائلة ، التى انهمر الوابل من بعدها . وعندما أخرجنا رأسينا من عباءتينا رأينا حارسنا الشجاع وهو يرفع مظلة أو تندة خيمة الخدم مخافة أن تصاب الخيمة بسوء .كان الخدم خائفين تماماً من أن تجرفهم الأمطار ، وكانوا ينادوننا بصوت وصراخ عال يطلبون منا الدخول إلى الخيمة ، وهم متضايقون من قول ولفريد لهم " ما يخالف " (بمعنى معلهش) ، عندما كانوا يلحون علينا ويطلبون منا دخول الخيمة . وواقع الأمر أن عبارة " ما يخالف " هذه أصبحت كُنية عند هؤلاء الناس ، لكنها ليست كنية مشينة لمن تطلق عليه . نحن الاثنين لم نفكر فى الانضمام إليهم فى خيمتهم ، لكن بعد أن أفلحنا فى إحضار بطانيتين من بطاطين الخيل ، من داخل خرج الجمل ، غطينا نفسينا بهما ورحنا فى سبات عميق ؛ فى حين زحف الكلبان صياد وشيخة ليكونا بصحبتنا . وتوقف المطر فجأة ، وقبل أن نتأكد

تماماً من توقف المطر ، كان الدهماء قد استأنفوا المسير بالفعل . كان الظلام حالكًا ، وكنا على قاب قوسين أو أدنى أن يُخَلفنا الدهماء وراءهم ، ولو حدث ذلك لندمنا ندمًا كبيراً . وإلى الآن مازلنا نحس أن موقفنا مع هؤلاء اللصوص ، لم يكن على ما يرام ، مع أن وجودنا بصحبتهم أقل خطراً من وجودنا وحدنا : وهنا هرولنا لنكون بجوار بعضنا البعض . التزم غافل حدود الأدب من جديد ؛ وعندما أحس باقى اللصوص ، أن الرحلة أوشكت على الانتهاء ، وأن سلطاتهم علينا بدأت تتلاشى ، راحوا يعرضون علينا مساعداتهم . أمضينا ليلة مسير مرهقة ومضنية ، وعند الفجر وجدنا أنفسنا نصعد بسرعة إلى سهل واسع ، مرعاه يطاول ارتفاعه ركبة الإنسان . هذا هو وادى كرخه ؛ ومع طلوع النهار بدأنا نميز خطًا طويلاً من الجبال ، فيه قبران أو إن شئت فقل ضريحين ، قال لنا غافل إنهما بقايا إيوان . عند الساعة السابعة شاهدنا خياماً فى محيط المدينة القديمة ، كما شاهدنا أيضًا بعض الرعاة يلبسون أغطية رأس مخروطية الشكل مصنوعة من اللباد ، ويلبسون ملابس من جلود الأغنام ، أى الملابس التى يرتديها أهل بختيارى والقبائل الأخرى التى من أصل كردى . لقد وصلنا أخيراً إلى بلاد فارس .

تقدم غافل إلى الأمام ليعلن وصولنا إلى سردال خان ، الشيخ الذى نقف أمام خيامه الآن ، لكنى يتعين على إرجاء التفاصيل إلى الغد .

الفصل الثالث

«من الآن فصاعداً يحق لك أن تَقَرَّ فى أمان أكيد ،

بعد أن عثرت على صديق جديد يُعينك ،

وخسرت عدواً قديماً ضايقك ،

يقال إن الصديق الجديد أفضل من العدو القديم " .

فابرى كوين

أمير فى المنفى _نقود الشاى – روافد على القرخة – آخر أحاديثنا مع بنى لام – كريم خان – بلاد فارس الجميلة – وصولنا إلى دزفول .

سردال خان هو شاه زاد ، أى أحد أعضاء الأسرة المالكة فى بلاد فارس ، الذين يوجدون بصفتهم الرسمية أو صفتهم الخصوصية فى أجزاء مختلفة من المملكة – سردال خان نفسه وقع فى فضيحة مع البلاط الملكى منذ سنوات عديدة ، وجرى نفيه من بلاد فارس ، سوء الطالع هذا اضطر هذا الرجل إلى أن يجعل مقامه بين قسم من أقسام من قبيلة السجواند اللورية شبه المستقلة ، حيث أصبح خاناً أو إن شئت فقل : شيخًا أو رئيسًا لذلك القسم من القبيلة . سردال خان هذا هو على النقيض تمامًا من المحيطين به من حيث الملامح والسلوكيات والتصرفات ؛ الرجل صاحب سمات أنيقة ، ومتناسقة ، له أنف طويل ، وسوداوى المزاج ، وله عينان تشبهان حبوب اللوز ، وعيون أسرة الشاه كلها بهذا الوصف ، وأنا أرى أن هذه الأعين ليست من أصل فارسى ،

والرجل بشكل من أشكال الكرامة والاحترام يختلف تمام الاختلاف عن افتقار اللور الفظيع إلى الأخلاقيات والسلوكيات . هذه السمات تبدو كأنها تاتارية الأصل ؛ هؤلاء التتار أصحاب ملامح توحي بالغلظة والخشونة ، وهم قصار الوجوه ، أمناء فى تعاملهم ، شجعان ، لكنهم يجهلون تماماً فضائل الحديث والخطاب التى تتوفر لأسوأ أنواع العرب وأحطهم شأناً . عندما وصل سردال ليعيش بين اللور ، كانت لديه ثروة طائلة ، استثمرها فى قطعان الأغنام وقطعان الماشية ، وإلى ما قبل مجيئنا بفترة قصيرة كان الرجل يرفل فى أبهة بدوية. لكن يبدو أن أعداءه كانوا لا يزالون يطاردونه، ولم يكتفوا بفضيحته ، وراحوا يضايقونه حتى عندما كان فى منفاه . وعن طريق بعض الوسائل التى لا نعلم حقيقتها ، أفلح هؤلاء الأعداء فى تحريض شيخ منافس عليه . هذا الشيخ هو كريم خان ، الذى قام بمباركة من الحكومة ، بغزو ناجح على قطعان سردال خان ، وجرد هذا الأمير التعيس من كل شىء ، وطرده هو وقبيلته واضطره إلى عبور نهر كرخة إلى الأرض الحرام التى تقع بين بلاد فارس وتركيا، والتى عبرناها منذ فترة وجيزة . حاول سردال خان المحافظة على نفسه فى هذا الوضع قدر المستطاع ، محاولاً بذلك كسب صداقة المزبن وبنى لام ، الذين يعدون أقرب الجيران إليه من ناحية الغرب .

نهر كرخة هو حد من حدود بلاد فارس ، نظراً لأن هذا النهر كبير وسريع ، إذ يصل عرضه إلى حوالى نصف ميل تقريباً ، فإن الرجل يعد فى مأمن نسبى من ناحية الشرق . ولما كان غافل من بنى لام فقد كان على ودٍّ مع هذا الرجل ، على الرغم من أنه يسهل الوقوف على احتقار غافل لذلك الرجل وعدم تعاطفه معه ، هو أو عصابته . وبناء على نصيحة من الحاج محمد ، ومن باب تأمين أنفسنا وضعنا أنفسنا تحت حماية سردال خان .

من حسن الحظ أن الحاج محمد كان يعرف اللغة الفارسية واللغة الكردية ، وسرعان ما شرح لسردال خان الظروف المحيطة بوضعنا ، ووافق سردال على ذلك عن طيب خاطر ، فقد انشرح صدره بلقاء أناس محترمين . استقبلنا الرجل استقبالاً

حانيًا ، وجعلنا نستريح فى خيمته، التى كانت ما تزال ، على الرغم من فقره، أكثر ترفًا عن أية خيمة من الخيام التى شاهدناها عند العرب ؛ كانت فى الخيمة حواجز من الصوف مرسوم عليها صور طيور وحيوانات ، وكانت مفروشة أيضًا بالسجاد ، وفيها وجار للنار ، وأعطانا الرجل كل ذلك الذى كنا بحاجة إليه ، كما قدم لنا إفطارا مكونًا من أرز جيد الطهو وخروفًا صغيرًا . وبعد أن نصبنا خيمتنا بعد ذلك فى الخارج ، زودنا بحرس من اللور الأكْفَاء الذين سرعان ما سرّحوا جماعة لصنا إلى حال سبيلهم خلال أيام قلائل . ليس هناك حب ضائع بين اللور والعرب . وسرعان ما تلقيت زيارة من زوجة الخان ، التى تزوجها مؤخرًا ، وكانت والدة الخان بصحبتها ؛ هذه الزوجة كانت أصيلة طيبة السلوك وراقية ، ووجهها يتهلل بشرًا . كانت الأم ترتدى ثيابًا سوداء ، حدادًا على واحد من أبنائها ، على حد قولها ؛ قالت : إن لها خمسة أولاد بما فيهم الخان ، الذى يعيش معه إخوته . جاء بصحبة الأم عدد كبير من نساء السجواند ، وكان بينهن امرأة عربية كانت تعمل مربية لطفل من أطفال الخان ، وقد ساعدتنى هذه السيدة العربية إذ كانت تتولى الترجمة . زوجة غافل أيضًا ، هى إحدى المرأتين اللتين كانتا مسافرتين معنا ، وقد جاءت هى الأخرى بصحبة والدة الخان ، وشاركت أيضًا فى الحوار . هذه السيدة تجاهر بشكاواها من غافل الذى يسيء معاملتها . هذا الغافل مؤدب جدًا حاليًا ، وقدم نفسه خلال فترة العصر ، فى خيمتنا وكأن شيئًا لم يحدث ، وكانت بصحبته طفلة صغيرة اسمها نورة كان يحملها بين ذراعيه ويقول إنها ابنة أخته ، إذ كانت أخته متزوجة هنا من أحد رجال السردال خان . فَرَشْتُ سجادة للنساء خارج الخيمة (خيمتنا) ، نظرًا لأن الخيمة لم تكن تتسع لهن جميعًا ، وجلسن كلهن من حولى مدة ساعة أو أكثر من ساعة ، وكلهن فضول وتساؤل ، لكنهن فى غاية الأدب . أعجبن بحذائى الطويل بصفة خاصة وبقفازى الذى خلعته لأريهم إياه . وقامت إحداهن بلف كمى وراحت تتعجب من شدة بياض رسغ يدى . وبعد مرور ساعة واحدة نهضت السيدة الكبيرة واقفة ، تمنت لى صباحًا سعيدًا واستأذنت فى الانصراف وتبعتها النساء الباقيات .

أمضينا بعد ذلك يومًا سعيدًا ونمنا نومًا عميقًا مريحًا ، ولم يزعجنا الصياح والغناء الوحشى الذى كان يومًا يصدر عن حراسنا ، الذى ربما كان مخيفًا ومزعجًا فى ظل ظروف أخرى . أنا لم أستمع إلى شىء فظ وبربرى غير متحضر أكثر من غناء هؤلاء الحراس ، لكن هذا الغناء كان عندنا عذبًا وحلوا مثل الموسيقى ، لأننا عرفنا أن الهدف من ذلك الغناء هو طرد ثعالبنا ، أو إن شئت فقل : بنى لام .

اليوم الثانى من شهر أبريل : فى اليوم الثانى عبرنا نهر كرخة . بعد أن رأينا حجم النهر ، وهو ممتلئ وطافح بفعل الجليد المنصهر ، وبعد أن رأينا أن النهر يجرى ماؤه بسرعة ثمانية أميال فى الساعة ، وأنه واسع اتساع نهر التيمز عند قرية جرينتش أحسسنا بالامتنان للقائنا بالسردال خان . فى هذه المنطقة مسألة الخوض تعد أمرًا غير ممكن ، وأننا أو على الأقل بضاعتنا وأشياءنا ، كان يمكن أن تكون تحت رحمة ذلك الحارس الحرامى . وافق السردال خان على قبول مبلغ من النقود يقدر بحوالى مائة قران (لا شىء فى إيران يفعل مجانًا ، سواء أكان ذلك من أمير أم خفير) ، نظير نقلنا عبر النهر ومعنا أمتعتنا إلى البر الفارسى ، على أن يجرى بعد ذلك عبور إبلنا وخيولنا بعدنا عن طريق السباحة فى النهر . الضيافة عند الفرس ليست فضيلة حقيقية أو مدّعاة ، والخان ، على الرغم من أنه كان أميرًا وشخصية جذابة ، فقد أوضح للحاج محمد بلا تظاهر أو تَصنُّع أنه يقدر " نقود الشاى " بستين قطعة فئة المائة قران (فرنك) ؛ أو كما يقول الإسبان " مقابل ruido الإقامة والسكن de casa . ومع ذلك ، لم يكن لدينا أى اعتراض أو ممانعة ، بل إننا نقدر للرجل عطفه وسلوكياته الطيبة . وقد ركب الرجل بنفسه معنا إلى النهر فرسًا عربية أصيلة ، وقال لنا إن هذه الفرس " أصيلة " ، بحق ، واطمأن الرجل بنفسه على أن مسألة الأطواف تسير على ما يرام . فى بداية الأمر ركبنا دوابنا عبر تلال إيوان الموزعة على شكل هندسى رباعى مواجه للنهر ، ووجدنا فى تلك التلال بقايا فخارية كثيرة ، ثم مررنا بعد ذلك على ضريح ولى مسلم لا أعرف اسمه ، وهذا القبر مواجه لقبر آخر على الضفة الشرقية للنهر ، ثم خضنا بعد ذلك خلال بعض أفرع النهر وبعض الجزر التى يكسوها نبات

الجطُّب guttub وأشجار الكانورة Canora ، وبعدها وصلنا إلى نهر كرخة الرئيسى ، حيث وجدنا الناس يقومون بتجهيز الأطواف . كانت شجيرات الكانورة مثمرة ، وراح سردال خان يقطف تلك الثمار ويعطينى إياها ، والكانورة ثمرة صغيرة صفراء اللون ، لها مذاق حامض متسارع ، مثل طعم فاكهة المشملة ، التى يقولون لها : زعرور جرمانى ، وبداخلها نواة .

كانت مسألة عبور النهر عملية مرهقة ولا أقول صعبة ؛ كان الطوف الوحيد مكوناً من عشرين جلد فقط من جلود الحيوانات وغريب الشكل جداً . ومما أثار امتعاضنا واشمئزازنا إلى جانب انتظارنا لدورنا فى العبور ، أننا وجدنا رفاقنا الكريهين إلينا ، غافل هو والأعور الكردى ، ومعهما بقية العصابة ، الذين دخلوا فى جدل عالى الصوت مع اللور حول مسألة قيادة الإبل أثناء عبور الماء ، وهذه مهمة مربكة ، تحتاج إلى تعرف الحيوان من ناحية وإجادة السباحة من ناحية ثانية ، كيما تتم هذه العملية بنجاح . فى بداية الأمر كنا فى صف اللور ، وغير راغبين فى إيكال أى من أمتعتنا للعرب المُهَجَّنين ؛ لكن عندما حانت لحظة اختبار القدرات انهار اللور انهياراً مؤسفاً ، نظراً لأنهم كانوا عاجزين أيضًا عن التعامل مع الإبل وهى على البر ، وعليه وبناء على نصيحة الخان تركنا للبدو هذا الموضوع ، الذى ينبغى أن أقول إنهم أنجزوه بشجاعة ومهارة . أولاً ينبغى تحرير الحيوان من كل أحماله ، ثم يجرى ربط حبل فى ذيل الجمل يمسكه رجل واحد ويركب فوق الجمل رجل آخر. ويجرى دفع الجمل إلى الماء، ثم يجرى بعد ذلك دفعه بصورة متدرجة إلى أن تطفو أرجله . وهنا ينزل الرجل الراكب فوق الجمل ليسبح بجانب الجمل ممسكًا سنام الجمل بإحدى يديه ، ويروح يرش الماء على وجه الجمل لكى يرفع رأسه إلى الأعلى فى حين يروح المتعلق بحبل الذيل ، يحث الجمل على السباحة من الخلف . والجمل فى الماء يبدو أثقل من معظم الحيوانات الأخرى ، ولا يظهر منه سوى طرف أنفه فوق سطح الماء ، كما أنه سبَّاح بطىء . كان ذلك الربع من الساعة كله قلق لنا جميعاً طوال عملية عبور الإبل ، ووصلت التكهنات إلى حد بعيد بين الواقفين ، حول النتيجة التى ستسفر عنها هذه العملية . كانت الصيحات تتعالى قائلة: " يطلع " " ما يطلع " أثناء عبور الإبل للمجرى المائى . شقت الإبل القوية طريقها

مستقيماً عبر الماء ، لكن الإبل الضعيفة كان التيار يحملها ، وهى بلا حول أو طول ، إلى أن اختفت الإبل والرجال عن أنظارنا ، وبعد أن سلمنا بضياع الإبل ، وجدناها على بعد ميل على الضفة الأخرى فى اتجاه مصب النهر . جرى بعد ذلك نقلنا نحن وأمتعتنا إلى الضفة الأخرى والخيول تسبح معنا ، على الرغم من وصول الخيول إلى الضفة الأخرى على نحو أسرع منا بكثير . كانت مساحة الطوف ثمانية أقدام مربعة ، وهو عبارة عن إطار غير مشذب من أعمدة من خشب الأثل جرى ربطها إلى بعضها فوق عشرين جلداً من جلود الحيوانات . جرى نقل أمتعتنا عبر النهر فى البداية ، بصحبة الحاج محمد الذى كان يجلس فوقها لابسًا حذاءه وملفوفًا بعباءته ، ويحمل بندقية وكيسًا مليئًا بالطلقات ، وغير مبال تمامًا ، علمًا بأن وقوع أى حادث من الحوادث يمكن أن يفضى به إلى قاع النهر . أما نحن فكنا أكثر حرصًا من الحاج محمد ، إذ خلصنا أنفسنا من كل ملابسنا الزائدة عن حاجتنا قبل أن نحتل أماكننا على الطوف ، وكان بصحبتنا كلابنا ، وطائرنا (الصقر) فضلاً عن زوجة غافل التى أوشكت أن تقلبنا ، عندما قفزت من الشاطئ إلى الطوف . كانت أقدامنا فى الماء طوال عملية العبور ، في حين بلغت قلوبنا حناجرنا ، وأخيراً وصلنا إلى البر وسط " مراهنات على الحدث " مثل المراهنة التى دارت بشأن الإبل . كانت الفرس الحمراء آخر مخلوقات الجماعة التى عبرت النهر ، والتى ظل خادم سردال ممسكًا بها ، والتى وصلت وحدها إلى البر بعد أن انفلت منها مقودها .

يعيش كريم خان عبر نهر كرخة مباشرة ؛ وكريم خان عدو من أعداء سردال ، وهو شيخ كردى يتقاضى راتبًا من الحكومة . كنا نحمل له رسائل ولم يكن أمامنا سوى التوجه إلى مخيمه ، ونطلب إليه مساعدتنا فى الوصول إلى دزفول .

تجمع أصدقاؤنا السابقين حولنا مثل جحفل من جحافل النمل ، يرجون ويتوسلون إلينا كيما نستفيد بهم . أرادوا أن يلحقوا أنفسهم على جماعتنا ، وبذلك يصلون إلى دزفول فى أمان ، تحت ستار مرافقتهم لنا ؛ ويبدو أنهم غير قادرين على المضى إلى ما بعد هذه المسافة فى غياب الحماية . السلطات الفارسية هنا تقوم بسجن أى أحد من

بنى لام يدخل إلى هذه المنطقة الخاصة بهم ، ويندر أن يغامر بنى لام بالذهاب إلى ما بعد نهر كرخه ، أو حتى مجرد هذا الجانب منه . وحتى إن وصل الأمر إلى هذا الحد ، فإنهم يجرى إلقاء القبض عليهم في بعض الأحيان . وقد شاهدنا فى الليلة الماضية رجلاً من بنى لام ، كان قد وصل للتّو إلى مخيم سجوند ، فى طريق عودته إلى موطنه بعد حبسه مدة ثلاثة أو أربعة أشهر فى دزفول .

عندما وجد غافل أنه لن يحصل منا على شىء بطريق الرضا والإقناع ، حاول اللجوء إلى بعض ابتزازاته وتهديداته القديمة ، لكن أفراداً عديدين من رجال كريم خان كانوا واقفين إلى جانبنا ، فضلاً عن أنه كان بلا حول أو طول هنا ، ولذلك كنا سعداء أن نوبخه على سلوكه المشين قبل أن ينسحب . سميُّه صغير السن ، ذلك الصبى الذى كان يلبس الملابس الخضراء ، لم يستطع إخفاء غيظه لهروبنا وراح يعرب صراحة وعلانية عن أسفه لعدم قتلنا فى الصحراء طبقًا لما تم الاتفاق عليه . بعد هذا المشهد الصغير لم نر أى أحد منهما ، لأننا على الرغم من معرفتنا بعد ذلك أنهم كانوا فى مخيم كريم خان فإنهم لم يجرءوا على العودة إلى مجلسنا أو المكان الذى نكون فيه .

هنا تقدم صبى صغير لطيف للترحيب بنا ، كانت عينا ذلك الصبى شبه مغلقتين ، وكان يركب فرساً جميلة كستنائية اللون . نزل الصبى من فوق الفرس، وقدم لنا نفسه بوصفه ولد كريم خان ، ودعانا إلى خيام والده . قال لنا إن الخيام ليست بعيدة ، وإنها على مقربة من هنا ، لكننا لم نكن بعد قد وصلنا إلى نهاية متاعب اليوم . كان ما يزال يتعين علينا تخطى شبكة الرى ، وترعة طينية عميقة ، ولكن الإبل التى نجحت فى الهرب من أخطار النهر ، كانت تنفق هنا وبخاصة في الطين . الأكراد على هذا الجانب من النهر كانوا عديمى الجدوى ؛ إذ لم يقدموا لنا أى عون ، ولما كانوا عديمى الخبرة بالإبل فقد ازداد الأمر سوءاً ، ولولا ظهور الأعور مرة ثانية ، الذى كان عدواً لدوداً لنا ذات مرة ، لبقينا مغروسين فى ذلك الطين والوحل . لكنه فى هذه المرة كفَّر عن بعض سيئاته ومؤامراته بأن راح يقدم لنا يد العون والمساعدة إلى حد بعيد . قام هو وولفريد بإنزال الأحمال من فوق الإبل حاملين إياها على رءوسهم. وهم يدوسون فى طين

سائب، ثم راحوا بعد ذلك يسحبون الإبل . كان الصبى قد غادر المكان طلبًا لمساعدة والده ؛ وما إن عبرنا ، حتى ظهر لنا الصبى من جديد ، راكبًا فرسه الكستنائية ، التى هى من سلالة كحيلة الحركان ، على حد قول الصبى ، وإنها من بنى لام ، نظرًا لأن القبائل كلها هنا تحصل على الخيول من العرب . وهنا شاهدنا ركبًا من الخيالة يقترب منا ، وفى وسطهم شخصٌ وقورٌ يركب فرسًا عجوزًا رمادية اللون ، وقد قدمه الصبى لنا على أنه كريم خان .

يعد كريم خان أقوى شيوخ لورستان بعد حسين كولى خان ، وقبيلة هذا الشيخ تحتل القسم الأكبر من المنطقة التى كانت تعرف من قبل باسم سوسيانا Susiana ، وابتداء من مخيم كريم خان فصاعدًا كنا نرى أمامنا كرخة التى هى خرائب سوسة Susa ، التى لا تعدو أن تكون سوى بعض التلال فى الوقت الراهن . والأرض التى فى شرقى النهر شديدة الخصوبة ، وجيدة الرى ، ومن ثم يقوم الناس هنا بزراعتها . وعلى الرغم من أن هؤلاء اللور يعيشون فى خيام فلا يمكن أن نسميهم بدوًا نظرًا لأن مخيماتهم ثابتة ودائمة ، ويقيمون فيها مدة لا تقل عن أشهر عدة فى أضعف الأحوال . المخيم الذى نحن فيه حاليًا يشبه القرية من حيث الشكل مثلما هو مخيم أيضًا ، الخيام هنا منصوبة إلى جوار بعضها البعض على شكل صفوف وشكلها المتعرج والمرتفع والمنخفض يجعلها شبيهة بالمنازل إلى حد بعيد . فى وسط المخيم يوجد فراغ كبير ، يجرى فيه مبيت الأغنام والماشية عند دخول الليل. هذه الأغنام والماشية ليست كبيرة العدد ، لأن أهل كريم خان مزارعون يقومون على فلاحة الأرض، وليسوا رعاة . لاحظنا أيضًا بعض الخيول جميلة الشكل التى جرى الحصول عليها من بنى لام ، على حد قول أهل كريم خان .

كانت الخيمة التى نسكنها منشأة إنشاءً حديثًا . كان سقف الخيمة من نفس المادة التى يصنع العرب منها خيامهم ، أى من شعر الماعز المنسوج على شكل قماش ، لكن الحوائط الجانبية كانت من صفوف السجاد مع بعض المساحات المصنوعة من الحصير التى تسمح بمرور الهواء . هذه الخيمة كان لها باب عمومى ، لكن الخيمة من

الداخل كان فيها سجاد عجمى فاخر مفروش بالقرب من نار مشتعلة ، التى سرعان ما استفدنا منها فى تجفيف ملابسنا ، نظراً لأننا كنا قد أصابنا البلل ، جراء الأنهار والقنوات التى عبرناها . اللور ليس لديهم شيء من السلوكيات البدوية الكريمة ، ولباس اللور أيضًا لباس وضيع ، وهو مجرد معطف مربع من اللباد ، وغطاء رأس مصنوع أيضًا من اللباد ، تبرز منه خصلات شعرهم الأسود على شكل خصلة واحدة مُدَهَّنة . أصوات اللور عند من يفد عليهم قادماً من العرب ، تبدو مضحكة للغاية ، نظراً لأن لهم طريقتهم الخاصة فى إيقاع كلامهم ، وأصواتهم أيضًا شديدة الحدة ؛ كل ذلك جعلنا يغلب علينا الضحك فى بداية الأمر . كريم خان يعمل على المحافظة على النظام بين أهله ، ولم يسمح بالتجمهر حولنا أو بالأسئلة التى فى غير موضعها . هذا الرجل العظيم نفسه ، وعلى الرغم من أن مظهره لا يوحى بالاحترام ، كان يتصرف تصرفًا حسنًا ، وعندما جاءنا بعد أن أرسل لنا الإفطار ، لكى يلتقى بنا فى خيمتنا الجديدة ، راح يتحاور معنا بأدب ، بأن بدأ حديثه ببعض الكلمات العربية ، ثم دار الحديث بعد ذلك باللغة الكردية ، وقام الحاج محمد بدور المترجم .

حكينا للرجل عن مغامراتنا ، وعن زيارتنا المرتقبة لشيخ البختيارى ، الذى كان يعرفه خير المعرفة ، كما حكينا له عن رحلتنا من حائل بصحبة ولده على كولى خان . أنا لست واثقة أن الرجل صدَّق ما نقول تمامًا ، عندما أضاف الحاج محمد أننا شخصيات محترفة محترمة نترحل طلبًا للمتعة . فى بلاد فارس جرت العادة أن يكون الحكم على الغرباء من المظهر ، ولما كنا مسافرين ونحن نرتدى الملابس العربية البائسة ، وليس معنا سوى خادم واحد ، فقد قل تقديرنا هنا عن تقديرنا بين العرب الذين يعولون على المخبر وليس المظهر . ومع ذلك، وعد كريم خان بأن يرسلنا فى اليوم التالى إلى دزفول بصحبة اثنين من الخيالة ، ثم من دزفول إلى بختيارى إذا ما تيسر لنا ذلك . ومع ذلك ، وفى الاجتماع الخاص الذى عقدناه مع الرجل العجوز ، وجدناه يملى شروطه . حتم علينا دفع عشرة تومان (ما يعادل أربعة جنيهات إنجليزية) ، ثمنًا للشاى " ، وهذا مبلغ كبير وجدنا أنفسنا لا نوافق عليه بل مضطرين إلى دفعه . الضيافة

هنا لا تقدم مجانًا ، يضاف إلى ذلك أن الناس لا يجدون غضاضة فى الشحاذة والاستجداء ، ذلك أن صديقنا الصغير وأول من تعرفنا عليه هنا ، أو بالأحرى ذلك الصبى الذى كان يركب فرسًا كستنائية اللون ، وعلى الرغم من أن والده ثرى جدًا، لم يفوت فرصة واحدة من الفرص التى كانت تسنح له بطلب النقود ، وهو يقول إن " ذلك لعروسه ". وهو يفضل الذهب بصورة خاصة .

اليوم الثالث من شهر أبريل : ركب الخان هو ووالده معنا إلى مسافة حوالى نصف ميل صباح هذا اليوم ، ليقودنا فى طريقنا إلى دزفول . أعطانا الخان خيالين ، برًا بوعده إلينا ، وبذلك نكون قد حصلنا على شىء نظير نقودنا ، ويبدو أنهم أناس محترمون . كان أمامنا مسافة تقدر بحوالى عشرة أميال تحتم علينا قطعها ، والطريق ، إذا كان هناك طريق بحق ، كان معقولاً إلى حد كبير ، كما ساعد الرجال فى سياقة الإبل فى ضوء المعرفة التى لديهم عن هذا الموضوع . فى البداية كنا على شكل دائرة، حتى نتمكن من عبور القناة من مكان كانت فيه قنطرة حجرية قديمة ، وبهذه الطريقة نكون قد ابتعدنا عن شوش ، أو إن شئت فقل سوسة susa القديمة ، مسافة لا تزيد على ميلين.

كان ولفريد يود زيارة ذلك الجبل ، لكنى كنت أتعجل المضى قدمًا ، والحق أقول : إنه لم يكن على سطح الأرض فى هذه المنطقة شىء يستحق الرؤية بأى حال من الأحوال . ثم بدأنا نسير بعد ذلك خلال سهل جميل يحيط به خط جبال بختيارى الرائع ، تلك الجبال التى مازال الثلج يغطيها من قمتها إلى سفحها ، وهذا منظر يسر الخاطر ، نظرًا لأن حرارة الشمس كانت شديدة فى ذلك الوقت . عند سفح هذه الجبال استطعنا أن نتبين ونرى بلدة دزفول ، التى لم تكن واضحة لنا فى البداية ، ثم اتضحت لنا أكثر فيما بعد ، فى حين كانت تحيط بنا من كل جانب الحقول المنزرعة بنباتات القمح التى بدأت تصْفَرُّ . كانت أشجار الكانورة تنتشر هنا وهناك وتنشر ظلها حيث وجدت ، كما كانت هناك حفر مائية كثيرة . ومن حين لآخر كنا نصادف أيضًا قرية على شكل قلعة ، يحيط بها سور من الطوب اللبن ، ومن فوق أسقفها بَنَتْ طيور أبى

منجل أعشاشها ، وراحت تحدث جلبة بمناقيرها . فى الحدائق كنا نسمع أصوات الدُّرَّاج والحبارى والسِّمان ، ويزاد على ذلك أن جانبى الطريق كانا سعيدين بالزهور الحمراء والزرقاء والصفراء . توقفنا مرات عدة فى ظل شجرة من الأشجار ، وتركنا الخيل والإبل ترعى المحاصيل المزروعة ، وكان ذلك بناءً على إصرار من الخيالين المرافقين لنا ، إضافة إلى أننا لم نكن فى عجلة من أمرنا . كان المسافرون على هذا الطريق قليلين جداً إلى حد أن قواعد الرعى وقوانينه لم يكن يجرى تطبيقها على هذا المكان . ويبدو أيضاً أن الفلاحين الذين التقيناهم لم يكونوا مهتمين بهذا الأمر . وها نحن الآن فى بلاد فارس والبلاد هنا تشرح الصدر .

عند الساعة الحادية عشر وصلنا إلى قرية كبيرة بجوار مجرى مائى رائق وواسع وضحل ، ينساب من فوق حوض من الحصى والزلط وتغطيه أشجار ظليلة . شاهدنا جماعة من النساء وهن يغسلن ملابسهن ، وكان الطريق يغص بأهل الريف الماشين على أقدامهم والراكبين على ظهور حميرهم ، وكانوا جميعًا يعبرون هذه المخاضة . هذه صورة جميلة ، لم يسبق أن رأينا لها مثيلاً منذ أن غادرنا الشام . هذه المخاضة أو إن شئت فقل : المجرى المائى ، هو والنهر الثانى الذى تجاوزناه منذ فترة وجيزة ، يسميها الناس هنا البيلارو Bellaru ، وهما وروافدهما يغطيان قرابة الميل من هذه المنطقة . والماء الذى فى هذين المجريين المائيين كان بارداً إلى الحد الذى ساعد على تلطيف حرارة الهواء، الذى كان ينبعث هو الآخر مثل ماء كرخة من منطقة الثلوج. بعد ذلك عند الساعة الثانية وجدنا أنفسنا بالقرب من دزفول ، التى تقع فى مكان رائع على نهر ديز العظيم الذى عليه جسر قديم من المبانى مربعة الشكل، من الزمن القديم . البلدة نفسها تقع على أرض مرتفعة خلف النهر ، أى على ضفة النهر اليسرى ، أما على هذا الجانب فلا يوجد منزل من أى نوع كان . الجسر هو المَعْلَم الرئيسى فى هذا المكان . هذا الجسر فيه إحدى وعشرون عقدة ، بعضها مدبب ، وبعضها مستدير ولها دعائم لتكون بمثابة كاسرات للتيار . هذا الجسر بعيد كل البعد عن الصيانة ، وفيه

فتحة واحدة كبيرة كافية لأن يسقط الجمل من خلالها هاوياً إلى المجرى المائى . يبدو أن هذا الجسر يرجع جزء منه أيضًا إلى أيام الخلفاء، لكنى ليس لدى معلومات كافية ، أو دراية كاملة بعلم العمارة حتى أكون واثقة أو متأكدة من هذا الكلام .

على أى حال نحن الآن فى دزفول ، وتحت راية حكومة مستقرة ، لها شرطة ولها جنود ، كما أن فيها نعم الحضارة كلها . ونحن لا نملك إلا أن نشكر الله أن الحال هنا على هذا المنوال .

الفصل الرابع

" فى كند عمل كبلا خان مرسومًا ببيت متعة فخم ،
حيث يجرى إلف ذلك النهر المقدس ،
خلال كهوف لا حدود لها بواسطة الإنسان ،
نازلاً إلى بحر لا يرى الشمس "

كولردج

مباهج حياة الحضر – بلاط الخان – رعاة من بكتيارى – شوستار – قصورها ، نهرها ، وحديقتها – كاتب تلغراف .

اليوم الرابع من شهر أبريل : على الرغم من أن دزفول ما تزال على قيد الحياة ويصل عدد سكانها إلى ٣٠,٠٠٠ نسمة ، وعلى الرغم من أنها لا يزال فيها شيء من الحركة ، نظراً لأنها سوق القمح عند قبائل الغرب على الحدود العثمانية ، وعند قبائل الشرق من ناحية بختيارى ، فليس لها حاليًا سوى بعض أطلال ماضيها التليد ، إذا ما جاز لنا الحكم على ذلك من خلال الحال المهمل الذى عليه جسرها العظيم والأسوار الخربة التى لا تزال باقية شاهدة ومحددة محيط هذا البلد . فيما بين هذه الأسوار ، والحد الذى انكمشت إليه المدينة المأهولة فى الوقت الراهن يوجد شريط عريض من الأرض غير المأهولة بالسكان . نصبنا مخيمنا فى تجويف فى هذا الشريط البعيد عن الطريق ، أملاً فى ألا يرانا أو يزعجنا أحد من الناس . لكن يا أسفاه ! كان اليوم مصادفًا ليوم الجمعة ، وصحا السكان كلهم مع طلوع النهار ، لم تتهيأ لنا

فرصة الهرب من اكتشافنا . سكان دزفول كلهم ، رجالٌ ، ونساء ، وأطفالٌ ، كلهم كانوا يتسكعون ، فى يوم العطلة ، وهم يرتدون أبهى ثيابهم طوال النهار ، لا يفعلون شيئًا سوى الحملقة فينا وإطالة النظر إلينا . أنا على يقين من أن هؤلاء الناس ينظرون إلى وصول جماعة من الغرباء على أن ذلك عمل من عند الله (سبحانه وتعالى) ، وسبب ذلك أن هؤلاء الناس اعتبارًا من طلوع الفجر ، إلى ما قبل ساعة واحدة ، أو بالأحرى عند العصر، عندما أوفد الحاكم ثلاثة من الجنود لتفريق هؤلاء الناس من حولنا، قد تجمعوا حول خيمتنا مثل ذباب بلادهم . هؤلاء الناس ، شأنهم شأن العرب ، لا يقنعون بالنظر من مسافة معقولة ؛ هؤلاء الفرس يصرون على محاولة شق طريقهم إلى داخل الخيمة ، وعندما يفشلون فى ذلك يجلسون أرضًا على شكل صفوف قريبة من الخيمة على نحو لا نتمكن معه من التحرك دون أن نبعد أحدًا عن الطريق . يزاد على ذلك ، أنهم لا ينظرون بأعينهم ؛ وإنما يتحتم عليهم أن يلمسوا كل شىء بأصابعهم ، ويجب أن يضحكوا ويتحدثوا ، ويحصلون على إجابات على أسئلتهم الغبية والحمقاء . صحيح أنهم لا يضمرون لنا ضررًا ، لكن العملية متعبة ومرهقة بحد ذاتها ، وعطلتنا كثيرًا عما يجب أن نقوم به من أعمال وتجهيزات . سُرُج (*) الإبل ، وهى والخُرُج (**) بحاجة إلى إصلاح ، والإبل نفسها بحاجة إلى العلاج من الجرب ، باستعمال مرهم يجب خلطه أولاً وتجهيزه ، والخيول بحاجة إلى تركيب حدوات حديدية ، ومخزوناتنا بحاجة إلى نظرة ، ونحن بحاجة إلى شراء حبل ومؤن وتموينات ، كل ذلك يجب أن يتم فى وجود مئات الأشخاص حولنا على قيد باع منا ؛ وكل واحد منهم مستعد للتدخل وتقديم النصح .

أنا لا أشك فى أن مظهرنا كان مغريًا لهم بدرجة كبيرة ، إذ ليس هناك ما هو أرتب من احتفائيات هؤلاء القوم . تطيير الحمام هنا ، فى بلاد فارس ، يجرى على

(*) سُرُج : واحده سَرْج وهو ما يوضع على ظهر الحصان أو الجمل . (المترجم)

(**) الخُرُجْ : واحده خُرْج ، وهو ما يوضع على ظهر الجمل أو الحصان أو الحمار لنقل الأشياء . (المترجم)

الوتيرة نفسها التي هو عليها في حلب ، وهذا العمل ينطوي على عنصر المقامرة . في هذه اللعبة يجرى إطلاق الحمام من أبراجه ، ويجرى بعد ذلك إغواء الحمام للدخول في الأبراج ؛ هذا هو التفسير الذي حصلنا عليه لهذه المتعة التي يجنونها من مراقبة الحمام . والذي يغوي أكبر عدد من حمام جاره هو الذي يكسب هذا السباق . وترى بعد ذلك في دزفول الدراويش والأسياد الذين يرتدون الملابس الخضراء ويتجولون هنا وهناك وهم يبيعون البرقوق ، ويجمعون الصدقات ؛ وقلة قليلة من الأغنياء هم الذين لديهم خيول يستعملونها في التجوال هنا وهناك . ونحن في لباسنا العربي ، نشكل لهم نوعًا من الحيرة ومصدرًا لا ينتهي للتساؤل والاستفسار ؛ يزاد على ذلك ، أن كلابنا ، وصقرنا ، وإبلنا تستثير اهتمام هؤلاء الناس ، كما لو كانت في حديقة هايد بارك أو الشانزليزيه Champes Elysees . لو بقينا على الضفة الأخرى من النهر لكان ذلك أفضل ، حيث يوجد جزء أمين من الصحراء يناسب مخيمنا ولا يأتي إليه أحد من الناس . ومما زاد في متاعبنا ، أن الصقر رشم ، انفك هو الآخر وراح يحوِّم بجنون حول جمهور الجالسين ، ولم نتمكن من الإمساك به إلا بعد أن صعد ولفريد إلى قمة برج في سور المدينة ، وأغواه على النزول إلى الأسفل . أما أنا فقد فاض بي الكيل مع الدهماء إلى أن وصل جنود الحاكم ، واستعادوا النظام . وها أنا أنعم حاليًا بالهدوء ، وآخر ساعة من ساعات ضوء النهار، التي سوف أفيد منها في كتابة مذكراتي اليومية .

إلى جانب هؤلاء الدهماء ، جاءنا أيضًا سكان عديدون مهذبون ؛ كانت أنسبهم مجموعة من الناس ، مكونة من أربعة أفراد ، زارونا في الصباح ، ثم جلسوا بعد ذلك في ظل جدار مهدم قريب من الخيمة ، وقام ولفريد برد الزيارة . ثم زارونا أيضًا في فترة العصر . كانت هذه الجماعة مكونة من أردشير خان ، رجل شديد الاحترام وشديد البدانة أيضًا ؛ ويوسف خان ، نحيف وشديد السُّمرة ؛ وأخيرًا أغا شكر الله ، أشقر ويتكلم قليلاً من العربية ، وبذلك تمكن من التحاور معنا ويترجم لأصدقائه .

أرسلت لي زوجة واحد من هؤلاء الأربعة تطلب الحضور إليَّ ولقائي ، وعندما وافقت حضرت على الفور ومعها حوالي عشرين خادمة . جلسنا معًا على سجادتي ،

التى طلبت فردها بالقرب من الخيمة ؛ لكن مع توفر النية الطيبة ، كان حوارنا متعثراً ؛ ذلك لأن الحاج محمد لم يكن مترجماً طلقاً، فضلاً عن أن صممه يتزايد يوماً بعد يوم . زارنا أيضًا سيد من الأسياد ومعه ابنته الصغيرة خاتون ، وهى طفلة صغيرة لطيفة يصل عمرها إلى حوالى خمس سنوات، أعطيتها قرانا (فرنك) فضياً؛ ثم زارنا بعد ذلك مجموعة من الأشخاص سيئى السلوك الذين يطلقون على أنفسهم اسم السبئيين(*).

كان هناك اثنان أو ثلاثة أفراد يركبون خيولاً ويتمشون من حولنا ؛ كان أحدهم يركب حصاناً صغيراً أنيقاً كوميتى اللون ، قال لنا : إنه من أصل نجدى ، وإن الذى أحضره إلى هنا هو حاج من الحجاج ، وهذا تقليد متبع هنا بين الحجاج ، لأن الذى يستطيع من بينهم يعمل على أن يجلب معه من نجد حصاناً أو فرساً عند عودته .

قالوا لنا : إن حجاج هذا العام لم يعودوا بعد ، وإننا كنا أول من أعلن عن وصول الحجاج إلى مشهد على . كنا نتمنى سماع أى شىء هنا عن صديقنا على كولى خان لكننا خاب أملنا . كان قد انتوى الانتقال عن طريق النهر من بغداد إلى المحمَّرة أو الأهواز ، ومنها إلى شستار ، ثم إلى الوطن – وهذا هو الطريق المعتاد فى واقع الأمر – نظراً لأن الطريق الذى نسير فيه لا يمشى فيه الناس المحترمون . دزفول تتصل بالعالم الخارجى عن طريق شستار . ومع ذلك ، فإن انتظارنا لوصول على كولى لم يكن ذا بال . كان لابد من اقتصادنا فى الوقت ، إذ يتعين علينا زيارة حسين كولى خان الآن ، وإلا أصبح ذلك مستحيلاً . ولا أحد يستطيع أن يدلنا بالضبط على المكان الذى فيه شيخ بختيارى ، البعض يقولون : إنه فى شستار ، وبعض آخر يقولون : إنه فى طهران ، فى حين يتفق الجميع على أن بعض رجاله يخيمون فيما بين هذه المنطقة وشستار ، ونحن ننوى الذهاب إلى شستار مباشرة .

كانت آخر الزيارات التى تلقيناها من المحافظ ، أو بالأحرى نائب المحافظ ، الذى نشك أنه كان فى وعيه تماماً (إذ من المعروف أن الفرس يشربون النبيذ)، كان يتصرف

(*) السبئيون : هم مسيحيون من أتباع القديس جون ، راجع كتاب " القبائل البدوية " .

تصرفات سيئة ، الأمر الذى جعل ولفريد يطلب منه الانكشاح بين الحين والآخر. على العموم لم تكن راحتنا فى ذلك اليوم على النحو الذى يرضينا .

اليوم السادس من شهر أبريل : بعد أن نفضنا عن أرجلنا تراب هذه المدينة المتعبة ، استأنفنا مسيرنا اليوم . وقد أصابنا الاكتئاب جراء الاستقبال المتواضع الذى لقيناه فى بلاد فارس فى نهاية المطاف ، ذلك البلد الذى سمعنا عنه منذ زمن طويل بأنه شهير بالأدب ، لكن ربما لا نلوم إلا أنفسنا . يقول لنا الحاج محمد : إننا كان ينبغى علينا أن نسلك طريقًا آخر ، وربما كان الرجل على حق فيما يقول . يقول الحاج محمد: الفرس يحكمون بالمظهر ، ليست لديهم فكرة عن أن الناس الذين يسافرون بلا خدم يمكن أن يكونوا محترمين . كان يتحتم علينا المجيء وبصحبتنا حاشية ، وحرس قوامه خمسون رجلاً ، ونصف هذا العدد من الخدم . لو حدث ذلك لجرى الاحتفاء بنا فى كل مكان . لقد فات أوان كل ذلك ولم يعد يتبقى لنا سوى المضى قدمًا .

سلكنا هذا الصباح طريق شستار ، وهو طريق مطروق تمامًا ، يمر أول ما يمر خلال حقول القمح والقرى، ثم يمر بعد ذلك خلال سهل جميل من الأعشاب والحشائش. التربة أخصب من أى نوع من أنواع التربة التى شاهدتها حتى الآن فى أى ركن من أركان العالم ، والتربة هنا جيدة الرى وتنمو فيها أشجار الكانورة المثمرة . نحن نسير فى طريق موازٍ للجبال ، التى هى سلسلة جميلة لها تيجان من الثلج ويتردد ارتفاعها بين ٨٠٠٠ و ١٠٠٠٠قدم فوق مستوى سطح البحر . على يميننا مباشرة يوجد تل قمته مربعة الشكل يقع أمام السلسلة الرئيسية ؛ والناس يطلقون على هذا التل الكلمة الفارسية دز التى معناها القلعة . تجاوزنا مخيمات عديدة من مخيمات البختيارى ؛ والناس هنا لهم ملامح برية ، وهم عندما يقصدهم أحد وهو راكب دابته ، يجرون أول ما يجرون على تناول البندقية كما لو كانوا يتوقعون دومًا الهجوم عليهم بصورة مستمرة . وهم يستعملون فى الحراسة كلابًا شديدة الشراسة لم أر مثيلاً لها من قبل ، هى التى جرى منعها بصعوبة بالغة من مهاجمة الكلبة شيخة والكلب صياد . أصحاب هذه الكلاب ليسوا بخلاء إذا ما شرحت لهم الظروف وتفهموها ، وقدم الناس لنا

مـواعـين مـن الحليب على الطريق . وقـد عـرفنا من هؤلاء الناس أن الخـانى ، بمعنى "الشـيخ" ، فى مكان مـا على الطريق ، وقد سـرنا ذلك تمـامًـا . فى هذه الليلة خـيـمنا وحدنا ، فيما عدا رفقة رجل أعرابى عجوز هو وزوجته ، كان قد التقانا على الطريق ، الناس هـنا يطلقـون على أنفسـهم عـرب الغـاب، وقد أفـادونا بمسـاعـدتهم لنا فـى تولى شئون الإبل ، يبدو أن فى هذه المنطقة من بلاد فارس عدداً كبيرًا من البدو والعرب .

اليوم السادس من شهر أبريل : خيام البختيارى شبيهة بخيام العرب ، لكن رجال البـختيارى يرتدون ثيابًا ، كما سبق أن وصفت مثل السجوند ، هم وأهل كريم خـان . وهـم يربون الخيـول ، ويتـسلحـون بالرمـاح أو البنادق ، لكنى لم أر خـيـلاً أصـيلة . فى الصباح البـاكر جاءنا رجل من خيام البختيـارى ، وقال لنا : إن الخانى ، أو بالأحرى الشيخ ، أمضى الليل على مسافة لم تصل إلى عشرة أميـال من المكان الذى كنا فيه بالأمس ، إذ كان فى مكان يدعى عُبيد ، واتضح أن مرشدينا من أهل كريم خان كانا يعرفـان ذلك المكان حق المعرفـة . هـذا يعنى أن هذا المكان الذى يقع إلى اليسـار من الطريق الرئيسى ، أى أسفل التل مربع القمة الذى شـاهدناه بالأمس . وعلى الرغم من شـغفنا بالعودة ثانية إلى شسـتـار ، حتى نتمكن من الحصـول على الخدم (إذ أصبح وجودهم ضرورة أصـبحنا نحسـها يومًا بعد يوم) ، فلم يكن من المعقـول أن نضـحى بزيارتنا لوالد على كـولى خـان ، وعليـه اتخـذنا لأنفـسنا خطًا فى الاتجـاه المطلوب، وشـرعنا فى السـيـر فى اتجـاه الشـمـال وإلى الخلف قليلاً من الخط الذى سـرنا فـيـه بالأمس . كانت مسيرة صـعبة ووعرة عبر أرض صـخرية مكسرة مقسمة إلى مجارٍ مائية هنا وهناك . ومع ذلك كانت المسيرة جميلة ، نظرًا لأن كل تجويف من التجاويف الأرضية كانت تنمو فيه أشجار الطرفاء شديدة الخضرة ، كما كانت الزهور متناثرة فى تلك التجـاويف ، وبخاصـة نباتات شـقائق النعمان ؛ وحـيثما وجدت بركة من برك الماء، كنا نسـمع نقيق الضفـدع بين الحشائش . كان تقدمًا بطيئًا لأن أسـعد ، أحد رجالنا ، كان قد اشترى أتانا (*) من المخيم ومعها جحش صغير ولد حديثًا ، نظرًا لأن

(*) الأتان : هى أنثى الحمار . (المترجم)

الجحش لم يكن قادراً على مواكبة سيرنا فقد حمل الجحش أمامه على الحصان . كان أسعد يترك الجحش ينزلق من فوق الحصان بصورة مستمرة ، الأمر الذى كان يضطر أسعد إلى التوقف لحمل الجحش من جديد . وفى حوالى الساعة التاسعة ، وصلنا إلى سلسلة من جبال الحجر الجيرى ، تطل على وادٍ واسع تبرز منه تلك الصخرة المربعة التى كنا نتتبعها ، والتى بدأت تظهر لنا على شكل جدار من المبانى ، يصل طوله إلى حوالى خمسمائة قدم أو أكثر ؛ خلف هذا الجدار توجد سلسلة جبال بختيارى الثلجية . وبينما كنا ننظر إلى ذلك المنظر ونبدى إعجابنا به ، سمعنا بعض الطلقات النارية ، وعرفنا من ذلك أنه لابد أن يكون هناك مخيم فى الوادى ، كنا نتمنى أن يكون ذلك المخيم هو مخيم الخانى ، أو إن شئت فقل : الشيخ ، وصدق توقعنا . لكن قبل النزول إلى الوادى أصر الفارسيان على الذهاب إلى هناك بعد أن يكونا قد لمَّعا نفسيهما وملابسهما ، وهنا قاما بغسل ملابسهما ونشراها على الصخرة لتجف . ونحن بدورنا بحثنا عن منطقة ظليلة عند صخرة من الصخور ورحنا فى سبات عميق . كان وقت الظهر قد دخل عندما صحونا ، ثم نزلنا بعد ذلك إلى الوادى ، حيث شاهدنا بناية كبيرة ، هى قلعة عُبيد ، وفيها حوالى ست خيام مصنوعة من قماش قلوع المراكب تحيط بالقلعة . كان ذلك هو مخيم حسين كولى خان المتنقل ، كما كانت القلعة للخان نفسه أيضاً . هذه القلعة حديثة وبحالة جيدة ، وهى عبارة عن مبنى مربع الشكل ، له أبراج على الأجناب وتحيط بالفناء .

كانت خيمة الخانى Khani، أو بالأحرى الشيخ، فى وسط المخيم مثل مظلة كبيرة ، نظراً لأن أجناب الخيمة كانت مرفوعة بسبب الحرارة . فى هذه الخيمة كان يجلس حسين كولى جلسة رسمية محاطاً بما يشبه البلاط أو الحاشية .

حسين كولى خان هذا ، هو شيخ شيوخ القسم الغربى من بلاد فارس كلها . ويقال إن لديه القدرة على دفع ٢٠٠٠٠ خيال إلى ميدان القتال ، وهذا يمكن أن يكون كلاماً صادقاً تماماً ، نظراً لأن المنحدرات الجبلية الجنوبية الغربية كلها تحتلها قبيلة حسين كولى خان . على المستوى الشخصى نجد أن لهذا الرجل طلعة مهيبة ، مع أنه

ليس وسيمًا ؛ والرجل قصير وممتلئ ، لكنه ليس بدينًا ، وله وجه عريض ولحيته وشعره بنيا اللون ، وعيناه رماديتان على حد ظني . والرجل يذكرني بصورة من صور جنكيز خان التي رأيتها في مكان ما ، أو بأمير مغولي آخر ، يستحيل ألا يكون قد انحدر من سلالته . أسلوب حسين كولي خان صريح وغاية في البساطة والوضوح ، وهو يترك لدى من يتحدث معه انطباعًا بأنه رجل أمين تمامًا . استقبلنا الرجل استقبالاً وديًا ، وجعلنا نجلس إلى جواره وسط حاشيته ، التي كانت واقفة حوله وناولتنا بعضًا من أكواب الشاي الممتاز .

طريقة عمل الشاي في بلاد فارس تحتاج إلى وقفة ؛ في بلاد فارس يضعون الشاي على الماء وهو يغلي ، أما نحن فنضع الماء المغلي على الشاي ؛ والشاي الذي يجري عمله بالطريقة الفارسية لا يكون له ذلك الطعم المر الذي ينتج عن طريقتنا لعمل الشاي .

أمضينا ساعة أو ساعتين على هذا النحو مع الخان ، وأعطيناه آخر أخبار ولده ، الذي يتوقعون وصوله في أي يوم قادمًا من الأهواز ، وعرفنا الكثير عن الطريق الذي يتعين علينا قطعة من هنا إلى بوشهر والخان في طريقه إلى طهران ، التي يشغل فيها منصب جنرال (لواء) في الجيش تحت حكم الشاه ، وعليه فهو لا يستطيع دعوتنا لزيارته في الجبال التي يوجد فيها موطنه ومنزله ، والذي يحتفظ فيه بقطيع من الأفراس العربية التي يشتهر اسمه بها . ونحن إذا لم نقر بضرورة الوصول إلى الساحل فورًا وبلا أي تأخير فإن ذلك لن يكون في صالحنا تمامًا . ذلك لأن الجو خلال اليومين الأخيرين قد أصبح حارًا بصورة مفاجئة، وسنكون أغبياء إذا ما سمحنا لأنفسنا أن يطلع علينا فصل الصيف ونحن لا تزال أمامنا تلك المسيرة الطويلة. يزاد على ذلك، أن نظام ترحالنا لا يسمح لنا بالقيام بتجارب كبيرة . وعلى الرغم من الجهود التي بذلناها، والأجور التي عرضناها لم نوفق في الحصول على شخص يقوم بقيادة الإبل . واقع الأمر ، أن الجمل هنا يعد حيوانًا غريبًا تمامًا كما لو كان في إنجلترا، فضلاً عن أن الجمَّالة هنا مثل العملة النادرة ، وقليلون جدًا . ونحن يتعين علينا الذهاب غدًا إلى

شستار بصحبة رجل من الثقاة بين رجال الخانى Khani، أو بالأحرى الشيخ ، وأن هذا الرجل سوف يضعنا بين أيدٍ أمينة .

جرى بيننا عندما عدنا إلى خيمتنا حوار كبير حول مسألة إرسال أو عدم إرسال هدايا لمضيِّفُنا ؛ لكن بناءً على نصيحة من الحاج محمد ، وعلى العكس من تقديرنا نحن ، قدمنا الهدايا فى نهاية المطاف . لكنا مُضَيِّفنا رفض قبول أى شىء ، وهو يقول: إن من الواجب عليه إكرام ضيوفه ، وإنه لا يريد شيئًا . كان الرجل قد أرسل لنا عشاء فاخرًا ، مكون من حوالى ستة أطباق مطهوة طهوًا جيدًا ، أشياء لم نذق طعمها منذ أن غادرنا بغداد . كما أرسل لنا أيضًا خروفًا حيًا لنأخذه معنا فى الغد ، كما أرسل لنا صندوقين كبيرين من المُسَكَّرات المصنوعة من الفواكه والزهور .

اليوم السابع من أبريل : على الرغم من أن زيارتنا لحسين كولى خان جاءت مخيبة للآمال من بعض النواحى ، لأنها كانت مجرد زيارة صباحية ، فقد كانت فألاً حسنًا بالنسبة لنا . أوصلنا الرجل الثقة الذى أوفده الخان معنا ، فى ساعة مبكرة إلى شستار، ومن خلال وساطته نحن نقيم حاليًا إقامة مريحة فى مكان جميل بحق ، هذا المكان هو القصر الذى يعد عندنا بمثابة مرفأ للراحة ، وقلعة ، وقصر ، وحديقة ، كل ذلك فى شىء واحد . لكن هذا كله يستحق الوصف .

من يرى شستار من النهر يجد أنها شبيهة بشكل غريب جدًا بدزفول . أما كركيرية التى تقع عليها شستار فهى دز ، لكنى أرى النهر الذى تقع عليه شستار أكبر من الأنهار الأخرى المجاورة ؛ وعلى النهر الذى تقع عليه شستار ، يوجد جسر يبدو أنه يحمل التاريخ نفسه . جسر شستار عمل من الأعمال الجيدة . هذا الجسر يرتفع حوالى خمسين قدمًا عن سطح الماء . وأهم ملمح من ملامح هذا الجسر هو أنه مبنى بطريقة متعرجة ، وبه حواجز كبيرة فى الركائز ، ويبدو أن بعض هذه الحواجز كان مركب عليها سواقى . حاجز هذا الجسر شديد الانخفاض ، والجسر كله بحاجة ماسة إلى الصيانة والإصلاح، إلى حد أننا عندما كنا نعبره، أثناء هبوب الإعصار، كنا نشعر بالقلق على إبلنا . أسفل هذا الجسر يوجد هدَّار ، أو إن شئت فقل : سد صغير ،

يسقط عليه ماء النهر محدثًا ضوضاء تصم الآذان . كما توجد أيضاً بوابة لطيفة على شكل عقد تعزل هذا النهر عن المدينة ، وفوق هذا المكان توجد القلعة التى نحن فيها الآن .

تبدو شستار كأنها بلد أو مدينة أكبر من دزفول ، لكن يقول الناس : إنها أقل ازدهاراً عن دزفول . المدينتان فيهما أراضى فضاء كثيرة بين جدرانهما ، كما أن فيهما أيضًا خرائب كثيرة . القلعة على سبيل المثال ، عبارة عن مكان كثير الغرف والدهاليز ، يضم بعض البنايات المختلفة . فى البداية توجد صفوف من البنايات ذات العقود ، والأرجح أنها ثكنات للجنود ولها حوش خارجى كبير عامر حاليًا بمرعى أخضر ، نوع من الخبَّاز ، أطلقنا إبلنا ترعى فيه . هذه البنايات الخارجية مكونة من طابقين ، وفيها مزاغل تستخدم فى فتح النيران . وهناك فى الفناء الخارجى طريق معبَّد موصل إلى بوابة ضيقة ، هى عبارة عن مدخل قلعة داخلية ، مبنية من حول فناء مربع ، فيه أشجار وأحواض من زهور فى الوسط . من داخل هذه القلعة يوجد طريق هروب آخر عبارة عن سلم به خمس عشرة درجة ، يوصل إلى شرفة ، وحديقة ، وجناح مكون من ثلاثة طوابق. هذا الجناح هو الحمام، وهو المبنى الذى وضعوه تحت تصرفنا. الشاهزاد غائب عن المكان ، والسكان الوحيدون فى هذه القلعة عبارة عن حامية مكونة من حوالى اثنى عشر جندياً ، لكنهم يعيشون فى الدائرة الخارجية للمبانى ، لن يزعجونا . ومع ذلك ، نحن لم نشاهد أحداً اليوم ، وكنا سعداء وراضين عن البرودة والهدوء اللذين كانا يحيطان بكل شىء حولنا . ولم نكن نسمع سوى ضوضاء النهر عن بُعد ، على بُعد مسافة كبيرة فى الأسفل ، والسبب فى ذلك أن الإنسان عندما ينظر من الشرفة نحو الأسفل تكون المسافة بينه وبين الماء حوالى ثمانين قدماً .

اليوم الثامن من شهر أبريل : هذا المكان يشبه شيئًا فى الحكايات الخيالية . الجناح الذى ننزل فيه يحتوى على غرف عديدة فى الطابق الأرضى ، مُجَمَّعة حول قطعة رئيسية فيها نافورة ؛ ومن فوق هذا الجناح يوجد رواق فيه المزيد من الغرف الخالية على جانبى هذا الرواق . نحن نعيش فى الطابق الأرضى ، ونوافذنا تفتح على

شرفة ضيقة ، لها حافة منخفضة من الحجر ، يستطيع الإنسان أن يلقى منها حجراً في ماء النهر . تشكل كركرية منحنى حاداً فوق شستار مباشرة ، حول ما يبدو أنه أجمل المتنزهات الطبيعية ، ذلك المرج الأخضر المستوى ، الذى يحتوى على عدد هائل من الأشجار الظليلة داكنة الخضرة ، التى تنتصب واقفة كما لو كانت مزروعة للزينة . جلسنا فى هذا المتنزه الطبيعى الجميل إلى ساعة متأخرة من المساء وفى ساعة مبكرة من الصباح ، وها أنا أشاهد بجعتين تسبحان أو تطيران فى الأسفل . الشرفة متصلة بالحديقة ، النشوانة بزهور الخشخاش ، وردية اللون ، وبنفسجية اللون وبيضاء اللون وكلها متفتحة . أمامي خزان صغير ، وصَفٌّ من النخيل المتوقف عن النمو، التى تحط فوقها طيور الكناريا ألمانية السلالة ، وطيور خضراء اللون وزرقاء اللون من قبيل طيور أبى زُريق ، فى حين أرى طيور الخُطَّاف وهى تندفع هنا وهناك لتمسك بالبعوض والذباب ، هذه بضع مئات ، يا أسفاه ، من بين الملايين التى تؤذينا .. وما دام أنه ليس هناك ورد بلا شوك ، فإن هذا الكشك البديع وهذه الحديقة العامرة بالزهور المتفتحة لابد أن يكون لها هى الأخرى منغصاتها . الذباب والبعوض هنا يُغيظان ، واليوم فاجأنا حر الصيف . وبعد ليل ساخن طلع علينا نهار أسخن وهبت علينا ريح مشبعة بالملح جلبت معها سحاباً أسود ، وما تزال السماء حولنا سوداء حتى هذه اللحظة .

قبيل المساء سمعنا الرعد ورأينا البرق ، ولم تسقط حبة مطر واحدة ؛ والهواء فى هذه الليلة ثقيل ثقل الرصاص . وأنا بدأت أستشعر القلق إزاء الحرارة. أتمنى الابتعاد عن هذا المكان ، أود الذهاب إلى الجبال أو البحر ، لكنى أخشى أن نحتجز أو نتعطل بضعة أيام . لقد حالت العاصفة بين وكيل الشاهزاد وبين الزيارة التى أعلن أنه سيقوم بها إلينا اليوم فى فترة الصباح ، ونحن فى حقيقة الأمر معتمدون على عونه ومساعدته لنا . أرسلنا لوكيل الشاهزاد فى ساعة مبكرة من صباح اليوم رسالتنا الموجهة إلى الشاهزاد ، وعاد إلينا الحاج محمد برد يفيد أن وكيل الشاهزاد قادم على الفور ؛ لكننا ظللنا ننتظره طوال اليوم ، لكنه لم يأت إلينا . والمؤلم أيضاً هو ذلك الظرف القاهر الذى انطوى على عدم وصول أية رسائل لنا من القنصل البريطانى فى البصرة وهذا

يضعنا فى موقف حرج ؛ وكنا قد أذعنا أننا ننتظر وصول رسالة من هذا القبيل ، وليس من المناسب، والأفضل ألا يكون قد تكلم عن هذه الرسالة مطلقًا .

جاءنا زائرون عديدون للقائنا ، فيهم تاجران أو ثلاثة ، ومنهم أيضًا طبيب وشخصيات أخرى ؛ عندما عرفوا كلهم أننا لم نتسلم الرسالة المنتظرة راحو ينظرون إلينا بعين الشك ، وعلى الرغم من حديثنا عن رسالة التزكية الموجهة إلى الشاهزاد . ومع ذلك سوف نقف على ما سيقوله وكيل الشاهزاد غداً .

اليوم العاشر من شهر أبريل : هذا هو يومنا الرابع فى مدينة شستار ، ونحن لم نتأكد من بداية تحركنا ، على الرغم من أننا نتمنى لو تركنا هذا المكان صباح الغد ... أمس كان يومًا بائسًا . وفى الليلة السابقة لليلة أمس أصيب ولفريد فجأة بالمرض ، وعلى الرغم من انتهاء وعكته الصحية ، فإنها قد أضعفته . الأمر الجلل يحول المصاعب والعقبات الصغيرة إلى توافه ؛ لكن هذه التوافه تصبح لها أهميتها إذا ما تسببت فى التأخير ، ونحن بدأنا نعانى الكثير بسبب عدم عثورنا على خدم يخدموننا .

من المؤكد أن الحياة فى هذه المدينة (شستار) ليست صحية بسبب الحرارة الشديدة ، (وها هو فصل الصيف يدخل علينا بكل ثقله) ؛ وكل يوم يضيع منا سيزيد من مشقة الترحال علينا من ناحية، وتزيد الحرارة أيضًا عما هى عليه من ناحية ثانية . كنا نتمنى تسوية أمورنا كلها مع الحاكم ، لكنى لن أشعر بالارتياح إلا بعد مغادرة هذا المكان .

كان وكيل الشاهزاد قد وعدنا وعداً غير قاطع بأنه سوف يرافقنا إلى بيبهان ، بحجة أن البلاد فيما بين بيبهان وشستار ليست آمنة ، ولعله فى اللحظة الأخيرة يتذكر وعده لنا . ونحن ما نزال بلا خادم ، اللهم باستثناء رجل صغير الجسم يأخذ الإبل إلى المرعى فى الصباح ، ويعود بها فى المساء . هذا الرجل صغير الجسم يقول إنه سيرافقنا ، لكنى أشك فى تنفيذ ذلك إذا ما جاءت اللحظة المناسبة ؛ كثير من الرجال عرضوا علينا خدماتهم ، ولكنهم تراجعوا بعد ذلك ، ومن بينهم ذلك الذى يدعى "الشيخ" محمد ، الذى تعرفناه فى الطاحونة ، وهو ليس بشيخ على الإطلاق ، كل ما فى الأمر

أنه مجرد " زلم " (رجل) من سلالة غاب ، ومستأجر منزل شستار . لكننا لا نستلطف ذلك الرجل ولا أحد من الجماعة يستلطف هذا الرجل أيضاً اللهم باستثناء الجنديين ؛ وهذان لا يمكن لنا اصطحابهما معنا لأنهما من جنود الحامية الصغيرة التي في القلعة، إضافة إلى أن الحاكم يرفض إعطاءهما إجازة .

كان الحاكم قد بدأ يتشكك فينا تشككاً كبيراً ، وراح يلقي في طريقنا كل ما في وسعه من عقبات . جاءنا الحاكم بالأمس ، ومن حسن الطالع أنه جاءنا في الوقت الذي تحسن فيه حال ولفريد الصحي ، إلى حد أنه استطاع استقبال الرجل ؛ كان من الواضح أن الحاكم لم يكن ميالاً إلى تنفيذ ما نريد . كانت طريقة معاملته لنا ، على الرغم من اتسامها بالأدب البالغ ، توضح أن الرجل كان مصمماً على ذهابنا إلى الأهواز وليس إلى بيبهان وقد حثنا الرجل بشدة على التخلي عن طريق بيبهان ؛ كان الطريق غير آمن ، ويجب ألا يقل الحرس المرافق لنا عن ألف رجل ؛ يزاد على ذلك أننا سننقص من احترامنا إذا لم نذهب إلى الشاهزاد ونقدم له الرسالة التي نحملها إليه ؛ كنا مضطرين إلى الذهاب إلى الأهواز ، حيث يمكننا لقاء الشاهزاد . وفيما يتعلق بالرسالة التي كان يجب أن تصلنا من القنصل الإنجليزي في البصرة ، وقد دأب ذلك الوكيل على ترديد قوله إنه لن يفعل لنا شيئاً سوى توصيلنا إلى الأهواز . ورفض الوكيل رفضاً قاطعاً مسألة مرافقتنا في أي شيء آخر غير ذهابنا إلى الأهواز .

كانت الأمور قد وصلت إلى هذا الحد عندما تركنا الوكيل ، وكنا قد فاض بنا الكيل ، عندما جاءنا ، وهذا من حسن طالعنا شاب صغير ، يعمل في مكتب التلغراف اسم هذا الرجل مرزا علي محمد ، وهو رئيس من رؤساء التلغراف الشيرازيين ، وهو يعرف شيئاً من العربية ، مع شيء من الفرنسية . خطر ببال ولفريد أن يبرق إلى القنصلية في طهران ، طالباً إليها أن تطلب من الحكومة أن تصدر أوامر إلى وكيل شاهزاد شستار ، بإعطائنا حرساً مرافقاً إلى بيبهان ، قام رئيس مكتب التلغراف بتنفيذ هذه البرقية ، التي دونها وترجمها لنا إلى اللغة الفارسية ، كما حدد لنا أيضاً المبلغ المطلوب لإرسال البرقية ، لكنه في صباح هذا اليوم أعاد إلينا المبلغ ، ومعه خبر

يفيد عدم إرسال البرقية . واقع الأمر ، أن موظف التلغراف لم يجرؤ على إرسال البرقية دون إبلاغ رئيسه الذى رفض إرسال البرقية . لكن هذه البرقية كان لها تأثيرها . لم يكن لدى الحاكم أى عذر فى الشك فى مسئوليتنا ، ذلك أن الشخصيات التى تدور من حولها الشكوك لا تؤثر الاتصال بالحكومة المركزية فى طهران . وعليه بدلاً من حراسة مرافقة قوامها ألف رجل سنحصل فقط على حراسة مرافقة مكونة من ستة رجال (جنود) ومعهم رقيب سيقومون بمرافقتنا إلى بيبهان ، لقد أعطونا هذا الحرس على غير رغبة منهم ، وأنا لن أندهش إذا ما سحبوا هذا الحرس منا .

بعد ذلك ، يبدو أنه كانت هناك عاصفة فى مكان ما ، والهواء صاف حاليًا ، ونحن نتطلع إلى جو أقل حدة وشدة . لكن يبدو أن المؤشرات الحرارية التى واجهناها كانت بمثابة الإنذار . راجعنا خططنا، واتفقنا على التخلى عن فكرة الذهاب إلى بندر عباس، وأن نكتفى بوصولنا إلى بوشهر . ولن نجد مشقة فى العثور على النقيب كاميرون Cameron ، لأنه سوف يضطر إلى المرور بين بيبهان والبحر ، لكن يتحتم علينا التعجيل وإلا سيكون الرجل قد عبر خطنا قبل أن نصل إلى هناك . كان النقيب كاميرون مخططًا للاقتراب من شاطئ البحر قدر المستطاع ، حتى نتمكن من لقائه فى بندر ديلم أو بالقرب منها .

كان ثلاثة من تجار شستار المحترمين قد جلسوا معنا فى المساء وأعطونا الكثير من النصائح الودية عن أخطار السفر التى لا نصدقها نحن إلى حد بعيد . هزوا رءوسهم عندما أبدى ولفريد ملاحظة مفادها أن البلاد فى ظل إدارة الشاهزاد هو ووكيله الممتاز ، لابد أن تكون آمنة ، وأكدوا لنا أيضًا أن الوكيل كان على حق تمامًا عندما أراد لنا أن نحيد عما خططنا له . وأن من الأسلم لنا الذهاب إلى الأهواز . حاج آخر ، اسمه عبد الله ، كان معه خطاب مكتوب بالإنجليزية من شركة إنجليزية فى بوشهر ، والتمس منا أن نترجمه له . لم تكن الرسالة ودية بأى حال ، وواجهنا شيئًا من الصعوبة فى إخفاء مضمونها تحت ستار الأدب العربى . هذا الحاج عبد الله كان هو الآخر من أنصار جعلنا نحيد عن الذهاب إلى بندر عباس .

لم يكشف هؤلاء الزوار عن رغباتهم فى الانصراف ، وأنا على يقين أنهم كانوا على استعداد للبقاء طوال الليل وهم يتكلمون إذا لم نطلب نحن منهم الانصراف . كان آخر كلام الحاج عبد الله عبارة عن رجاء لنا بأن نعيد النظر فى قرارنا ، ونتخلى عن خطتنا للذهاب إلى بيبهان وهو يقول : إنه سار ذات مرة فى ذلك الطريق ، ولن يكررها مرة ثانية ؛ والطريق ليس مقصوراً فقط على القبائل البرية الخطيرة ، وإنما فيه أيضاً ممرات جبلية وصخور يصعب اجتيازها. كنا نستمع إلى ذلك كله بثبات كبير، ولم يكن أمامنا من خيار فى واقع الأمر .

الفصل الخامس

" يضعون الاضطراب ويسمونه السكينة "

تاكتوس Tacitus

المرض والبؤس – حرس فارسي مرافق – رعايا الشاب العربي – رام هرمز وبلابلها – مسير ليلي – قرية مهجورة – طريقة تحصيل الضرائب في بلاد فارس – بيبهان .

يوم الجمعة المصادف للحادي عشر من شهر أبريل : قد يكون من السهل سرد بعض الأحداث السيئة التي وقعت في يوم الجمعة ، وأنا أخشى أن يكون هذا الحادث واحداً من هذه الأحداث التعيسة . هذا هو ولفريد يمرض للمرة الثانية ، وآمل أن يكون ذلك المرض مجرد إرهاق عابر ، ناتج عن تحميل الإبل صباح هذا اليوم في حرارة الشمس من ناحية وركوب الحصان طوال اليوم في حرارة الشمس أيضاً من ناحية ثانية . ولفريد مستلق حالياً داخل الخيمة في محاولة منه للحصول على قسط من الراحة لكن الذباب هنا لا يطاق .

كانت خطتنا لمغادرة شستار تنطوي على الذهاب مع الحرس المرافق ، المكون من سبعة جنود مشاة ، مسلحين ببنادق فتيلية و أحدهم يحمل نرجيلة ، إلى رام هرمز ، تلك البلدة الصغيرة التي تقع على بعد ثمانين ميلاً على الطريق المؤدي إلى بيبهان ، ثم نحصل منها على دعم فرّاز – باشي » أو إن شئت فقل : نائب حاكم المكان ، ليكون ذلك الدعم معنا طوال الأميال الثمانين المتبقية. كان ذلك يبدو لنا مناسباً تماماً ، لكن المهم أن الحرس المرافق لنا كان قد تخلى عنا بالفعل ، وأصبحنا وحدنا .

بعد تعطيلات متباينة الأنواع ، إذ نحن إلى هذه اللحظة ليس معنا خادم ، قمنا بتحميل إبلنا ، وعند الساعة العاشرة ركبنا وخرجنا من القصر وسرنا عبر شوارع شستار ، ثم عبرنا جسراً من الحجارة ، يعبر الفرع الثانى من أفرع النهر ، الذى تقع عليه المدينة ، ثم سرنا بعد ذلك عبر المناطق الريفية الموجودة خلف بلدة شستار . كان الجو شديد الحرارة ، والريف كله يعج بجحافل البعوض ، التى تطاردنا بأزيزها طول اليوم وتستقر على رءوسنا أثناء الليل .

كانت إبلنا قد استفادت من نبات الخُبَّاز الذى ينمو فى حوش القصر ، الأمر الذى جعل الإبل تسمن وتزداد قوة على قوتها ، وحدثت لنا بعض المتاعب ونحن نقوم بتحميل هذه الإبل . لكن في آخر لحظة ، جاءنا عرض بالمساعدة لم نكن نتوقعه . فقد ظهر أمامنا فجأة شاب عربى يرتدى ملابس خضراء عبارة عن جُبَّة ، وتطوع بأن يقدم لنا خدماته . كان وجه ذلك الشاب يسر الخاطر الأمر الذى شدنا إليه على الفور . قال لنا: إنه من سكان إحدى القرى على نهر دجلة بالقرب من بغداد ، وإنه كان معجباً بالأتراك بسبب بحريتهم التى خدم فيها ثلاث سنوات ، إلى أن أفلح فى ترك العمل مع البحرية عندما كان فى ميناء البصرة، واستطاع الهرب عبر الصحراء إلى أن وصل عبر الحدود إلى المحمرة ، واعتباراً من ذلك التاريخ كان ذلك الشاب يكسب قوت يومه عن طريق العمل كلافًا لخيول واحد من شيوخ الباوية ، ثم بعد ذلك ، وبعد أن سئم العمل فى هذه المهنة ، راح يعمل فى خدمة بعض الفرس فى شستار . وكان يخطط للعودة إلى البحر مرة ثانية ، ورجانا أن نأخذه معنا إلى بوشهر . وعن طريق المصادفة اتضح أن الحاج محمد كان يعرف بعض الأشياء عن أقارب هذا الشاب فى بغداد ، ولما كان الشاب بهذه المواصفات فقد كان ذلك هو كل ما نتمنى ، قبلناه على الفور ، طبقًا لشروطه هو . مجىء هذا الشاب كان مفيداً لنا من أكثر من ناحية ، لأنه كان له تأثير مباشر ، إذ إننا نجحنا فى إقناع شخص آخر من الجمهور الذى يشهد رحيلنا بالتطوع لتقديم خدماته إلينا ، وهذا فارس أصفر صغير الجسم أشقر تقدم لنا ليدرج اسمه ضمن المتطوعين لتقديم خدماتهم لنا . وبذلك لم نعد معتمدين كليةً على الرجل العجوز وعلى أنفسنا .

بعد أن أصبحنا خارج المدينة ، راح رقيبنا هو والجنود الستة يضفون على أنفسهم أهمية عسكرية ، بأن وضعوا أنفسهم فى المقدمة ، متخذين وضع المبارزة وطلبوا منا أن نكون قريبين من بعضنا البعض، على الرغم من أن الريف مسالم تماماً، إذ كان الطريق عامراً بأهل الريف الذين يركبون حميرهم ، فضلاً عن أنهم عُزّل من السلاح ومسالمون . الطريق يمر خلال أرض جرداء يغلب التموج على سطحها ، وتتخللها هنا وهناك بعض البقع الزراعية ، وغالبًا ما تكون هذه البقع بين ضفاف الأنهار العالية . وراح مدافعونا يكشفون عن حماسهم الحقيقى عن طريق الجرى لتسلق أكثر تلك القمم انحداراً أو ارتفاعًا ، وهم يفتحون نيران بنادقهم بطريقة عشوائية ، أو بالأحرى فى الهواء بشكل عام ، لكن واحدة من تلك الطلقات أصابت سحلية كانت راقدة فى جحرها . وتناقص حماس هؤلاء الجنود مع ازدياد درجة الحرارة ؛ وبدخول وقت الظهيرة بدأوا يمشون بتثاقل وبطء مع التلفت بين الحين والآخر بحثًا عن الأعداء. وقبل الساعة الواحدة بحوالى ربع ساعة بدا التعب على الجنود كلهم، ونحن أيضًا كنا سعداء بالوقفة التى امتدت إلى ثلاثة أرباع الساعة ، فى ظل شجرة كبيرة من أشجار الكانورة Canora وسط حقل من حقول الشوفان . تناولنا غداءنا فى هذا المكان فى حين تغذت الإبل على نبات الشوفان . اشتكى ولفريد إلى حد ما من حرارة الشمس ، لكنه لم يستشعر أنه مريض بحق إلا بعد أن واصلنا مسيرنا مدة ساعتين . كنا على وشك الانحراف قليلاً عن الطريق إلى ناحية الشمال ، قاصدين خيام رجل اسمه حسّان خان يعرفه الجنود ، وعندها قال ولفريد إنه لا يستطيع المضى إلى أبعد من ذلك . ولم تكن الخيام تبعد ما يزيد على الميل عن الطريق ، لكننا عندما وصلنا إلى الخيام ازداد حال ولفريد سوءاً . وجدنا الخيام منصوبة على شكل تحويطة دائرية الشكل ، لها سور من أغصان الأشجار ، شبيه بأسوار سسكس sussex الجديدة ، وكان من الواضح أن ذلك المخيم سيستمر فترة أطول من فترات أى مخيم من المخيمات البدوية الحقيقية. وجدنا هذا المخيم مكوناً من اثنتى عشرة خيمة صغيرة ، نصفها من الشعر والنصف الثانى من الحصير . ووجدنا خارج المسوَّر ، قلة قليلة من الأفراس وبصحبتها مجموعة من الأمهار الوليدة الصغيرة كانت كلها ترعى ؛ وكان من

بين هذه الخيول ، فرس لطيفة من سلالة وادنة حرسان على حد قولهم ، كما شاهدنا أيضًا حيوانات مختلفة الأشكال ، أبقار وأغنام ، وماعز ، جرى إحضارها كلها إلى داخل المسوَّر لتمضية الليل .

هذا هو ولفريد متعب تمامًا . يبدو أن الراحة لم تفده ؛ وهو يشكو من آلام فى رأسه وألم فى سائر أنحاء جسمه . وأن أعتقد إن الإرهاق والحرارة سببان كافيان لإحساسه بالمرض . أخشى أن تكون النوبة التى جاءته ونحن فى شستار قد عاودته . ليتنا لم نغادر المدينة . هذا المكان الذى نحن فيه مهجور ، وعلى الرغم من أننا لو كنا فى شستار لوجدنا بعض مظاهر الراحة ، فقد كان بوسعنا أيضًا أن نرسل فى طلب العون والمساعدة من البصرة . ولو قدر ولفريد أن يسوء حاله فسوف نصبح فى موقف لا حول لنا فيه أو طول . كل الأماكن هنا تبدو بعيدة جداً عندما تعتورنا مشكلة من مشكلات التحرك ؛ العودة إلى شستار تكاد تكون غير عملية بالمرة مثل المضى قدمًا إلى رام هرمز ، مسألة السير مدة سبع ساعات تشكل فجوة لا يمكن تخطيها . قمت بنصب ناموسية لمنع الذباب عن ولفريد ، لكن هذه الناموسية تمنع الذباب بعيداً عن الرجل إلى حد ما ، لكن بعض الذباب يفلح فى الدخول إلى الناموسية ، الأمر الذى يضطرنى إلى إعادة ترتيب وضعها من جديد . ها هى الشمس قد غربت ، وهذا يعنى أن الذباب سيخلد إلى النوم أثناء الظلام ؛ وإذا ما برد الليل ، قد يحصل ولفريد على قسط من النوم .

من حسن الحظ أن الناس هنا متعاطفون معنا . الشيخ حسَّان خان ليس فى المخيم وإنما هو موجود حاليًا فى شستار ، لكن ولده كمبر أغا استقبلنا استقبالاً طيبًا. وكمبر طيب السلوك والأخلاق ، يتكلم العربية بطلاقه ووضوح ، وكان يحكى لى عن قبيلته ، التى هى بطن من بطون باوية العجم ، باعتبارها قبيلة مستقلة لا علاقة لها بباوية الممتلكات العثمانية . الناس وشيخهم يبدون فقراء تمامًا . وكمبر يعرب عن رغبته فى مرافقتنا غداً إلى مخيم آخر ليس بعيداً عن هذا المكان ، ويقع على خط سيرنا ، هذا المخيم ، وهو مخيم الحاج سلمان ، تلك القبيلة التى تتحدث العربية ؛ وهذا من

حسن حظنا نظراً لأن الحرس المرافق لنا قد تركنا . يبدو أن الحرس المرافق كانوا يقصدون توصيلنا إلى هذه المنطقة فقط ، ولكن على أى حال ، فقد هجرنا أفراد ذلك الحرس المرافق وعادوا إلى شستار . وعند الظهر ، وبينما كنا جالسين تحت شجرة الكانورة ، طلب الحرس المرافق منا نقوداً ، وتصرف الحاج محمد تصرفًا أحمق ، دون الرجوع إلينا ، وأعطاهم مبلغًا عن الرحلة كلها من شستار إلى رام هرمز ، وترتب على ذلك حصولهم على أجرهم ، ولذلك رحلوا عنا لأنهم لم يعدلهم دوافع للبقاء معنا . لم نأسف عليهم إذ كانوا منفِّرين ومتعبين ، لكن قيمتهم تتمثل فى أنهم علامة من علامات الحماية الحكومية ، من هنا يصبح تركهم لنا من سوء طالعنا .

حرس مرافق أم لا ، هذا الأمر لا يهمنى إذ إن ما يهمنى هو أن يتحسن حال ولفريد ، لكن يبدو أنه لا يتحسن .

مساء السبت المصادف لليوم الثانى عشر من شهر أبريل : ازداد ولفريد مرضًا على مرضه طوال الليل . وسرعان ما ساء حاله ، ثم فقد وعيه بما حوله ؛ بدا لى الحال ميئوسًا منه ، لكنه الآن بدأ يفيق قليلاً ؛ وأعتقد أن الأسوأ قد انقضى . كنت قد عقدت العزم على ألا أفكر إلا فى الأزمة التى تنتابنى ، والواقع أن هذه الساعات الأربع والعشرين كانت كافية لطمس الماضى وحجب المستقبل . وأنا لا أعرف سببًا لكتابة هذه اليوميات . ولفريد لا يقوى بعد على الجلوس ، وعلى الرغم من قوله ، إنه سوف يتمكن من الترحال هذه الليلة ، فأنا لا أعرف ماذا أفعل ، لكن الرغبة فى التحرك شىء مكتسب ؛ منذ فترة وجيزة كان ولفريد يستطيع الكلام بصعوبة بالغة ، ولو كان فعلاً قد اجتاز محنته فإن بضع ساعات قد تحدث فارقًا كبيراً . هو يقول : إن السفر أثناء الليل سيمكنه من مواصلة المسير .

تَصرُّف غاضة ، رفيقنا العربى الجديد تصرفًا حسنًا . وأنا لا أعرف ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم يكن هذا الرجل موجوداً وحافظ على النار مشتعلة طول الليل ، ومساعدته لى فى عمل الأدوية وإعداد مرق لحم البقر . فى النهار وفى الليل حاولت الإفادة من مجموعة الأدوية التى كانت معنا لكن دون جدوى . طلعت الشمس وكانت

شديدة الحرارة ، وتجمع الذباب علينا مثلما حدث من قبل . لكن فى فترة العصر ، اتخذ المرض مساراً آخر ، والآن ، وعلى أى حال ، يبدو أننا تعدينا مرحلة الخطر .

إرضاء لولفريد ، وعلى الرغم من شكى فى قدرته على مواصلة الترحال ، قمت بحزم كل شيء وقوضت الخيام ، وجهزت كل حمل من الأحمال على حده ؛ ذلك لأن تنفيذ خطة السير أثناء الليل ، تحتم علينا التحميل بعد دخول الظلام ، أى فى ضوء قمر صغير جداً ، عندما يطلع فى حوالى الساعة الواحدة . تقرر أن نرحل ، على أن يركب ولفريد ناقته ، وأن نسير بأسرع ما يمكن ؛ قمت بوضع الشاى البارد ، ومرق لحم البقر فى زجاجات ، حتى يمكن الوصول إليهما عند الطلب . بقى ولفريد مضطجعاً على السجاد والمخدة ، وهما الشيء الوحيد الذى لم يجر حزمه، لكن سيجرى وضعهما فوق ناقته إذا ما حانت لحظة الرحيل .

كمبر أغا هو وقبيلته أناس طيبون . ولا يمكن أن يكون هناك من هم أحنّ من هؤلاء الناس علينا . وهذا هو حسَّان خان ، أوفد إلينا أخًا ثالثًا من شستار اسمه أغا إبراهيم ، الذى تقرر أن يصحبنا هو وست من رجاله إلى مخيم الحاج سليمان .

اليوم الثالث عشر من شهر أبريل : استطاع ولفريد لمدة أربع ساعات ، وعلى الرغم من إرهاقه الشديد ، لم يزدد حاله سوءاً . وصلنا إلى مخيم السلامات عند الساعة السادسة من صباح اليوم . ونحن نتطلع إلى استئناف ترحالنا بعد غروب الشمس مباشرة .

طلع القمر علينا الليلة الماضية عند الساعة الواحدة تقريبًا ، لكن فى ضوء تباطؤ الجميع استغرق تحميل الإبل منا أكثر من ساعة من الزمن . كانوا جميعًا يودون الانتظار إلى أن يرتفع القمر فى السماء قبل التحميل . سرنا فى البداية عبر سهل من المراعى والأشجار القصيرة الكثيفة لنعود إلى الطريق من جديد ، ثم استأنفنا سيرنا على الطريق فى اتجاه الشرق . وعند الساعة الخامسة والنصف شاهدنا بعض الخيام فى اتجاه الجنوب ، لكن مرشدينا قالوا لنا إن هذه ليست خيام السلامات . وبعد ذلك بساعتين التقينا زلمين (رجلين) ، أخبرانا عن المكان ، لكن أوان العودة كان قد فات ؛

كما قالا لنا إنهما قادمان من مخيم من مخيمات عرب السلامات يبعد عن هنا مسير ساعة أو نحو ذلك في اتجاه الشرق . كان الجو حاراً بالفعل ، لكننا واصلنا المسير ، إذ كان الطريق جيداً ومستوياً ، وكان هناك مرعى ممتاز ، وتلال على اليسار ، وسهل في الأمام وعلى اليمين ، يمتد إلى كركرية وما بعدها . أشاروا لنا إلى بعض الخيام ، وقالوا إنها على الضفة الأخرى من النهر . وصلنا مخيم السلامات ، الشيخ عبية ، عند الساعة التاسعة .

نرى أمامنا قلة قليلة من الخيول الصغيرة جداً جميلة المنظر . والواضح أن المخيم كان مقامًا في هذا المكان منذ أسابيع ، وبالتالي كان منظره بذيئًا ، إذ كان شبيها بالقرية أكثر منه مخيماً .

نصبنا أو بالأحرى كنا قد نصبنا ، لأني أكتب ونحن على وشك المسير ، خيمتنا على تل صغير تعزله عن مخيم السلامات حفرة في الأرض . الأرض هنا يغطيها عشب صغير له أطراف مدببة ، شبيه بنبات الشعير عند كل من ينظر إليه، هذا العشب يخترق كل شيء . أشواك هذا العشب شبيهة بزعانف السمك التي يصعب انتزاعها ، وملابسنا وفراشنا عامرة بهذه الأشواك .

أمضي ولفريد النهار مستلقيًا في الخيمة ، يستطيع الكلام لكنه متْعَب . الناس هنا ليسوا سيئي التربية ، بل إنهم مشفقون علينا . وهذا شيخهم عبية ، جاء بصحبة عديد من أصدقائه وأقاربه ، للقائنا عقب وصولنا مباشرة . قال لنا عبية : إن قبيلته تنتمي إلى أهل الشمال ، وإنه يعرف كل شيء عن قبائل الحماد (السهل) وكل شيء عن خيولهم . وقد أرانا شقيقه راشد مهراً رماديًا جميلاً ، عرض أن يبادله بفرسنا الحمراء التي تعاني من التهاب في ظهرها . هذا المهر صغير جداً في السن ، ولا يستحق أن نأخذه ؛ يقول صاحب المهر ، إنه لا يمكن أن يُفَرِّط في المهر ، لولا أن الشاهزاد أعرب عن انتوائه شراء هذا المهر . يبدو أن الشاهزاد ، معتاد على شراء الخيول الجميلة كلها التي تصل إليه أخبارها ، كما أنه لا يدفع ثمنًا لهذه الخيول ، لكنه لا يأخذ الأفراس الإناث ! هذه هي ، في أضعف الأحوال ، الحكاية التي حكوها لنا .

فرسنا ، على الرغم من أصالتها ، حالها شديد السوء ، إلى حد أن الشاهزاد لن يفكر في الاستيلاء عليها .

وافق عبية على الفور ، على اصطحابنا إلى رام هرمز ومعه ستة خيَّالة ، فى حين عرض راشد مرافقتنا سيرًا على الأقدام بصفته واحدًا من الجمَّالة ، كما عرض أغا إبراهيم (وهو من مخيم حسَّان) أن يجىء معنا . الساعة الآن الخامسة ، موعد حزم الأشياء . الساعة الثامنة . كان ولفريد قد أحس بمرض شديد قبل ذلك بساعة ، الأمر الذى جعل من هذه الترتيبات نسيًا منسيًا . لكنه الآن يتحسن ، وها نحن قد استأنفنا المسير .

اليوم الرابع عشر من شهر أبريل : يبدو أن خطتنا الجديدة للترحال أثناء الليل جاءت على مايرام . تمكن ولفريد من السير من الساعة التاسعة حتى الساعة الخامسة صباحًا . صحيح أنه يتعافى على الرغم من الضعف الشديد الذى أصابه . حرارة النهار لا تطاق ، وحتى إذا لم يكن هناك سبب للقلق ، فإننا لا يمكن لنا السير أثناء النهار . الذباب لا يطاق ، وهو يتابعنا وموجود فى كل مكان؛ أثناء الليل وعندما نركب الإبل يحط الذباب على شكل جحافل فوق رءوسنا ، وإذا ما أبعدناه عنا ، فإنه يعود ثانية ويحط على رءوسنا على الرغم من الظلام . ومع ذلك ، يهدأ الذباب فى الظلام إلا إذا جرى إزعاجه . ليلة أمس كان طريقنا فى معظمه عبارة عن مرتفعات ومنخفضات ، ويمر عبر وديان صغيرة ومجارٍ مائية ، وبرك وحفر مليئة بالماء . فى بعض الأحيان كنا نخوض خلال أعشاب طويلة ، جميلة المنظر ، تنمو بريًا ولا يعنى بها أحد من الناس. القمر لا يخدمنا إلا بالنذر اليسير ، لكن الرؤية كانت ضعيفة فى ضوء النجوم . مجموعة نجوم العقرب هى المرشد الذى نهتدى به إلى طريقنا ، وهذه المجموعة تطلع من الجنوب الشرقى . لم أنم سوى هنيهات قصيرة فى الفترة الأخيرة ، وفى الليلة الماضية رحت فى النوم وأنا على ظهر الفرس ، وصحوت على صوت المضغ والقرش . كان ذلك الصوت صادرًا عن فرسى وهى ترعى بنهم فى نبات الشوفان البرى الذى يصل ارتفاعه إلى الركبة . أما أين كانت الإبل فهذا ما لا أعرفه ، لكنى سمعت

أصواتها بعد ذلك فى مكان بعيد عنى فى الأمام . تحمل ولفريد قدر المستطاع ، وعند الساعة الخامسة قال لى : إنه لا يقدر على الحركة بعد ذلك ولو لياردة واحدة ، وخيمنا فترة النهار ، بأن نصبنا الخيمة فوق تل يشرف على التلال المجاورة كلها . اعترض الحرس المرافق لنا على هذه الوقفة . قال الشيخ عبية : " إن الشيرازيين سينزلون من هذه التلال ويسرقوننا ، وإن بلدة رام هرمز لا تبعد عن هنا سوى مسير ثلاث أو أربع ساعات . هيا بنا نواصل المسير " . كان اعتراض الشيخ عبية أمراً طبيعيًا ؛ وهذه الأرض مكشوفة ومعرَّضة بالفعل ، وعلى مقربة منا فى اتجاه الناحية الشمالية توجد سلسلة من الصخور ، يمكن أن يكون الشيرازيون يستخدمونها فى مراقبتنا . لكن وجودنا فوق التل أعطانا شيئًا من الهواء وهذا يستحق ويستأهل شيئًا من المخاطرة. يضاف إلى ذلك أن الشيرازيين لم يأتوا بعد ونحن بدورنا سوف نرحل عن هنا على وجه السرعة . راح الشيخ عبية يجادلنا دون جدوى ؛ لو كان هناك عصابة من اللصوص تلوح فى الأفق ، فأنا لا أعتقد أن ولفريد كان يمكن أن يتحرك . لم يكن ولفريد قادراً على الحركة ، بل إنه كان مستلقيًا على الأرض فى ظل الخيمة منذ أن نصبناها . والوقفة التى من هذا القبيل لا تنطوى على كثير من الراحة ؛ الحر يغلبنا على أمرنا ، والذباب مزعج تماماً . ونحن نرى خلف سلسلة الصخور قمماً ثلجية عالية ، مغرية جداً فى ظل هذا الفرن الذى نحن فيه ، وإذا ما نظرنا فى الاتجاه الآخر ، نجد أسفلنا مباشرة مرجًا أخضر جميلاً على ضفتى مجرى مائى جارٍ . التجاويف كلها عامرة بالمرعى . عبية هو ورجاله كانوا على حذر ويراقبون كل شىء ، بعضهم اتخذوا لأنفسهم مواقع فوق المرتفعات ، والباقون كانوا يحرسون الخيول المُقَيَّدة التى أطلقت وفكت قيودها فى المرعى .

الساعة الرابعة الآن ؛ وبدأت الحرارة فى الانحسار ، وولفريد يقول : إنه مستعد لمواصلة الترحال . وهنا يتحتم علينا حزم أمتعتنا وأشيائنا .

اليوم الخامس عشر من شهر أبريل : أخيراً ، وصلنا إلى رام هرمز أو "راموز " ، كما ينطقها بعض الناس . تركنا المكان الذى بتنا فيه على التل فى العراء دون خيام

عند الساعة الخامسة عصر يوم أمس . حاول ولفريد الركوب على ظهر الفرس ، لكن كان المجهود شاقًا عليه، وتحتم عليه ألا يركب الفرس ، لكنه ركب ناقته . كان طريقنا يمر خلال أعشاب طويلة ، وخلال حفر ، وماء . أما أنا ، والنوم يغالبنى مثل الليلة الماضية ، كنت أروح فى غفوة بعد أخرى وأستيقظ فجأة وأنا فى منتصف حلم طويل ، عاجزة عن تذكر المكان الذى كنت فيه . ليس هناك من شيء مؤلم مثل مغالبة النوم ، التى لازمتنى الليل بطوله . أخيرًا أصبحنا نرى فجأة نيران مخيم من مخيمات على بُعد مسافة نصف ميل عن يميننا ، ونتيجة لتخوف عبية من التقدم أبعد من ذلك ، أمرنا الرجل بالتوقف . قال الرجل : التقدم المفاجئ نحو مخيم من المخيمات يكون محفوفًا بالمخاطر، مخافة أن يتعامل معنا أهل المخيم باعتبارنا أعداء . لم نتوقف لمناقشة الأمر، لكننا أطعنا أمر الشيخ عبية بكل سرور ، وفى غضون دقائق معدودات كنا نيامًا على الأرض فى سبات عميق – ولم نصح إلا بعد طلوع النهار بالفعل .

دار حوار بيننا عما يجب عمله بعد ذلك . قيل لنا إن هذه الخيام هى خيام الخميس ، والخميس قبيلة عربية شبه بدوية ، وشبه فلاّحة ، وكان عبية من أنصار قضاء اليوم معهم . لكن النوم العميق أفاد ولفريد ، عندما طلع النهار تمكنا من رؤية بيارات نخيل رام هورمز ، التى تبعد عنا حوالى عشرة أميال ، وعرفنا أننا يمكن أن نحصل هناك على مأوى من هذه الشمس الحارقة . وعليه تركنا بقية الجماعة تأتى أولاً تأتى بعدنا على حسب ما يشاءون – وركبنا فرسينا ورحنا نعدو بهما ، ويبدو أن الكلبة شيخة والكلب صياد كانا سعيدين بذلك الجرى غير المتوقع . فى البداية لم نجد أمامنا طريق ، وتعثرنا فى بعض المجارى المائية ، ولكننا بعد أن تجاوزنا هذه المجارى المائية وصلنا إلى طريق للمشاة كان المسير فيه طيبًا ، ومررنا على جماعة من العرب ، رجالاً ونساءً ، كانوا يركبون حميرًا وقاصدين سوق المدينة . وأعربوا كلهم عن سرورهم بلقائنا ، وظنوا أننا عرب مثلهم ، وهم هنا فى بلاد فارس يسعدون بلقاء إخوانهم المواطنين. أشاروا لنا إلى الطريق المؤدى إلى المدينة ، نظرًا لأنه كان هناك عدد كبير من بيارات النخيل ، وفى ظل السراب الذى أصبح يغطى كل شيء مع شروق الشمس

أصبحنا لا نرى من المدينة شيئًا . وعند الساعة السادسة والنصف وقفنا أمام باب فرّاز – باشى ، وبعد دقيقة واحدة كنا جالسين فى فناء بَراد فى ظل جدار ، فى انتظار أن ينتهى مضيِّفنا المحترم من صلاته وتعبده .

بعد اطلاع فراز – باشى على الرسائل التى كنا نحملها إليه من حاكم شستار ، رحب الرجل بنا ترحيبًا حارًا ، وكان يتحاور معنا من خلال سكرتيره الذى كان يجيد اللغة العربية . جرى إحضار وفرد السجاد ، وتصليح الشاى – ألذ شاى شربناه فى حياتنا – كان الشاى بنكهة البرتقال ، ونوع من الفاكهة الحمضية. يزاد على ذلك أن الجرى بالخيول شفى ولفريد ، وهو يقول : إنه لن يمرض بعد ذلك .

بعد وصول قافلتنا ، انتقلنا إلى خارج المدينة ، نظرًا لأن فناء فراز باشى لم يكن يتسع لنا جميعًا ، وها نحن نخيم على جبل صغير يطل على الحدائق التى تحيط ببلدة رام هرمز . ليتنى أتمكن من وصف جمال المكان . كان يحيط بنا عدد من أفدنة القمح الخضراء ، التى تتناجى فيها طيور السمان وبعض الطيور الأخرى ، كما كان هناك مجرى مائى صغير يمر ملتويًا عبر حقول القمح هذه . وبالقرب منا، على جبل آخر ، يوجد ضريح صغير جميل ، هو ضريح أحد الأولياء وعلى الجانبين توجد بعض الحدائق شبه البرية ، كما توجد مجموعة أخرى من أشجار الرمان ، والتين ، والكروم ، تتخللها هنا وهناك بعض أشجار الليمون ، والخوخ ، ومجموعة من النخيل . أشجار الرمان فى قمة تزهيرها هذه الأيام ، وهذا هو أيضًا حال الورود ، وكل الأشجار الكثيفة التى تعيش فيها البلابل . أوشكت الشمس على الغروب ، وهذه مجموعة من الفرس الذين يرتدون ملابس زرقاء اللون يمرون عبر هذه الحقول قادمين إليها من المدينة لكى يغتسلوا من المجرى المائى ويؤدون الصلاة عند النهر والضريح . المدينة نفسها شبه مخبأة فى الحدائق ، لكن منظرها رائع من خلال هذه الحدائق والبساتين ، ومن خلفها سلسلة من التلال قرمزية اللون ، التى تتميز بظلالها الزرقاء . ونحن بدورنا كنا نسير محاذين لحافة هذه التلال طوال الطريق من شستار . هذه التلال هى التى يقال إنها تأوى اللصوص الشيرازيين ، الذين يخشاهم الحراس العرب المرافقين لنا .

وضع العرب هنا وضع بائس . والعرب هنا في حرب مع الشيرازيين ، والحكومة هي الأخرى تسلبهم وتنهبهم ، ولا تفعل شيئًا لحمايتهم ، وهم لا يزالون يتعلقون بضيعاتهم الزراعية الصغيرة في المناطق التي توجد فيها المياه وتكون قريبة من التلال. وهم يمضون نصف العام كبدو رحّل يذهبون جنوبًا وغربًا مع قطعانهم ، لكنهم يعودون إلى التلال في فصل الربيع ، حيث يقومون بحرث بضعة أفدنة ، ويعملون على جنى المحصول قبل وصول جباة الضرائب إليهم . الحكومة الفارسية ضعيفة ، كما أن حامية رام هرمز لا تكفي إلا لمهمة التحكم في المدينة وحدها ، لكن قد تأتي بين الحين والآخر تدعيمات من الأهواز أو من الفلاّحية ثم يحدث بعد ذلك غزو متذرعًا بتحصيل المتأخرات، ويجرى الاستيلاء على الخيول والماشية وفاءً لتلك الديون أو المتأخرات . ويبدو أن هذه اللحظة متعبة في سائر أنحاء المنطقة . سألنا كلاً من الشيخ عبية ، هو والشيخ خميس الذي جاء معه اليوم إلى مخيمنا ، سألناهما عن أسباب وضع أنفسهما في فخ تلك الحكومة، عن طريق المجيء إلى التلال، في الوقت الذي يمكن أن يبقوا فيه بلا مضايقات في السهل ، أو بالذهاب إلى أي مكان يريدونه . وأجابانا متعجبين : " إنها التربة ، التربة هنا شديدة الخصوبة . أين لنا بتربة مثيلة لها في أي مكان آخر ؟ " واقع الأمر أن هذا الجانب كله من بلاد فارس خلق لكي يكون حديقة أو بستان . وهذا على العكس من سهول بغداد ، التي لا يمكن زراعتها مطلقًا إلا عن طريق الري ، أما الأرض هنا ، فهي تنبت المحاصيل كما هو الحال في أوروبا ، أي أنها تروى بالمطر الذي ينزل عليها . سلسلة جبال بختيارى التي تجذب السحب إليها هي التي تعطى هذه المنطقة تلك الميزة الفريدة .

رام هرمز هذه لابد أنها كانت مدينة كبيرة في يوم من الأيام . يزاد على ذلك أن موقع هذه المدينة عند ملتقى أنهار عدة ، وعند سفح سلسلة جبلية ، ومجاز يؤدى إلى بلدة شيراز كل ذلك يزيد من أهمية هذا المكان ؛ ومع ذلك فإن رام هرمز في الوقت الراهن لا يزيد حجمها عن كونها سوقًا للقبائل البدوية ومحطة عسكرية .

فراز – باشي شخصية أنيسة جداً لدينا ، على الرغم من أنه مثل سائر الناس الآخرين ، يعارض اتجاهنا إلى بيبهان . وهو يقول : إن الطريق خطر للغاية ، وكل قرية من القرى في حرب مع القرية المجاورة لها ، وإنه لا يمكن أن يجرؤ على إرسال جنود لمرافقتنا حتى وإن توفرت هذه الجنود لديه. وقال لنا أيضًا إن هناك رجلاً صاحب سلطة في المنطقة التي سنعبرها في أول الأمر، وإن اسم هذا الرجل هو محمد جعفر، ويشغل منصب خان سلطان أباد ، وهو الوحيد الذي يستطيع حمايتنا . وأوصانا فراز – باشي بالذهاب إلى هذا الخان ، وقال أيضاً ، إنه ربما يكون معنا صباح باكر . إنهم عرب ، أناس أمناء ، وجمّالون ولذلك ودعناهم ونحن آسفون . لكن الناس من الآن فصاعداً من الفرس ، والفارسي والعربي في كل مكان على طرفي نقيض . فكرة الدخول في عش الدبابير هذه ليست جيدة أو مناسبة ، على حد وصف الناس للأرض القادمة ، لكن لابد من الذهاب إلى هذه الأرض ؛ العودة شيء مستحيل . كل شيء هنا يزداد حرارة على حرارته ، وأملنا الوحيد حاليًا يتركز على البحر .

اليوم السادس عشر من شهر أبريل : أحسسنا بالانتعاش نتيجة النوم العميق الذي حظينا به أثناء الليل ، هذا النوم العميق لم ننعم به منذ أن غادرنا شستار . هذا هو فراز - باشي يزورنا مرة ثانية صباح هذا اليوم ، وهو يتمشى حاليًا في الجو البَراد الذي يصاحب شروق الشمس ، وهو يحمل زهرة في يده ، لكي يحيينا . يبدو أن من عادة الفرس السير وفي أيديهم الزهور ، التي يهدونها لبعضهم البعض باعتبار ذلك من سمات الأدب واللياقة ، هذا بالإضافة إلى أن هذه هي بداية موسم الزهور . قال لنا سيادته إن القائد محمد جعفر ، سيكون جاهزًا للسفر إلى سلطان أباد عند صلاة العصر (أي في حوالي الساعة الثالثة والنصف) ، وعليه قمنا باتخاذ الاستعدادات اللازمة للرحيل. وعلى الرغم من شدة الحر ، إذ بلغت درجة الحرارة ستًا وتسعين درجة في الظل، فإني قد حاولت عمل مخطط لرام هرمز ، لكن ليس هناك ما يُنْصِفُ جمال هذا المخطط . لقد اسْتُقْبِلنا هنا استقبالاً طيبًا ، عن أي مكان آخر في بلاد فارس ، وأنا على يقين أن بوسعنا مصادقة الناس هنا إذا ما استطعنا تعلم لغتهم . السفر إلى بلد لا يعرف الإنسان لغته ، يشبه من يمشي وهو مغمض العينين .

اليوم السابع عشر من شهر أبريل : وصل محمد جعفر عند الساعة الرابعة تماماً، وبدأنا تحركنا على الفور . كان مهمًا ألا نضيع وقتنا سدى ، إذ كان أمامنا نهر يتعين علينا عبوره ، هذا النهر هو نهر الجرَّاحى الذى يهبط نازلاً إلى هنا من الجبل ، ثم ينساب بعد ذلك إلى الخليج الفارسى عند قرية الفلاَّحية ، هذه المنطقة التى وصلنا إليها كانت صعبة جداً على الإبل ، نظراً لأنها شبكة من شبكات الرى ، فيها بعض المجارى المائية التى عليها جسور صغيرة خادعة . لكن الإبل تخطت كل هذه الجسور بلا حوادث . هذا النهر الذى عبرنا فرعين من فروعه ، ينساب عبر حوض من الزلط ، ولم يتعد عمقه فى أى مكان منه بطون خيولنا . كان ماء النهر شديد البرودة ، وفيه بعض الثلج المنصهر ، الأمر الذى تسبب فى هبوب نسيم بارد من الهواء المثلج مع التيار . كانت الشمس قد غربت منذ مدة ، وكنا نتطلع إلى الخروج من هذه الأرض المسوَّرة ، قبل دخول الليل البهيم ؛ لكن القائد كان قد رتَّب - بحكم أنه رجل متعب - مع بعض الأصدقاء فى قرية من القرى الصغيرة ، لتناول العشاء معهم ثم استئناف المسير أثناء الليل ، وهذه اللحظة لم تكن تناسبنا على الإطلاق . واقع الأمر ، كان من المستحيل علينا ، أن نتوقف فى مثل هذا المكان ومعنا إبلنا، إذ يتعذر علينا منع الإبل من هرس عيدان القمح ، الأمر الذى سنكون معه بلا حول أو طول أثناء الليل . وعليه ، وبعد رفضنا لذلك التصرف رفضًا فيه كثير من الأدب ، تركنا قائدنا يتناول عشاءه هو وخيالته الأربعة ، وواصلنا مسيرنا وحدنا . أرسلوا معنا أحد القرويين لكى يرينا الطريق ؛ إذ إننا لم نكن نبعد سوى أقل من الميل عن الأرض المفتوحة المستوية ، وكان الليل يرخى سدوله علينا ، والدقيقة الواحدة لها ثمنها فى مثل هذا الظرف ، كما أننا كنا مصممين على الوصول إلى القرية . ومع ذلك ، اتضح أن القرية لم يكن لها طريق يؤدى إليها ، وهذا هو الذى جعل القائد يأخذنا بعيداً عن الطريق الرئيسى ، ومع دخول الليل بدأنا نزداد حيرة على حيرتنا ، إذ كنا ننزل فجوات لنخرج منها إلى حفر . وفى لحظة من اللحظات انتابنا شىء من اليأس ، فقد صادفنا ترعة عميقة عرقلت تقدمنا؛ يزاد على ذلك أن القروى الذى جاء بنا إلى هذا الممر ، انتهز فرصة ارتباكنا ، وفر هارباً . من يمن طالعنا أن ولفريد أدرك أو لاحظ ذلك الفرار فى حينه ، وجرى خلف

الرجل وأطلق مسدسه فى الهواء ، وأعاده إلينا ثانية ، وتحت ضغط الخوف ، أرانا المكان الذى يمكن أن نعبر منه هذه الترعة. كان مكان العبور عبارة عن مخاضة بسيطة جداً ، وأدى ذلك إلى ابتلال بعض أحمالنا ، لكن بعد أن عبرنا المخاضة كانت الأرض متماسكة ، الأمر الذى مكننا من الانتظار إلى أن يجيء القائد هو ورجاله . يبدو أن الطلقة التى أطلقها ولفريد نغصت عليهم عزيمتهم ، الأمر الذى جعلنا لا ننتظر طويلاً . ومشينا بعد ذلك فى صمت وظلام دامس ، لكن الطريق كان لا بأس به ؛ ومضينا على هذا الحال إلى الساعة الواحدة والنصف صباحًا ، عندما سمعنا نباح بعض الكلاب بصوت عالٍ ليعلن وصولنا إلى سلطان أباد .

القائد له هنا فى سلطان أباد منزل ، الأمر الذى جعله يلجأ إليه على الفور ، تاركًا إيانا ننام على الأرض ملفوفين فى عباءاتنا ، ومعنا إبلنا وخيولنا إلى أن طلع علينا النهار . كان بوسعه أن يدعونا عن طيب خاطر إلى دخول المنزل ، لكننا لا يمكن لنا أن نترك دوابنا وأمتعتنا وحدها ، وها نحن قد نصبنا خيمتنا بالفعل أثناء النهار وكشفناها من الأجناب لتكون مثل مظلة فقط ، وحتى يمكن لنا استنشاق كل نسمة من نسمات الهواء . عندما طلع النهار شاهدنا منزل القائد على جانب من جوانبنا ، وشاهدنا فى المنزل ثلاث أشجار كانورة تنشر ظلها على مدخل المنزل، كما رأينا أيضًا خلف المنزل حديقة مسوَّرة ؛ على الجانب الآخر من القرية شاهدنا حقول الشعير ومحاصيل عشبية رائعة . كانت بيوت القرية المبنية من الطوب اللبن على شكل مربع سكنى يبعد حوالى مائتى ياردة عن الجبل الصغير الذى نصبنا فوقه خيمتنا ؛ كانت توجد أمام هذه المنازل خيمتان أو ثلاث خيام سوداء . منزل القائد كبير الحجم ، ويبدو أن المنزل يحتوى على أفنية عدة . سلطان أباد نفسها، عبارة عن مكان يبدو متواضعًا ، لكن فى رأى الحاج محمد ، إن هذا المنزل عبارة عن وكر للقتلة والعصابات التى كل فرد من أفرادها على استعداد لأن يقتل أى إنسان فى الحال نظير قران (فرنك) واحد ، هذا يعنى أن هذا المنزل عبارة عن معقل حقيقى من معاقل اللصوص ، الأمر الذى يصيب المنطقة المجاورة بالرعب والفزع . لكنى لا أعرف كيف أتصرف ، نظرًا لأن الحاج محمد

يصدق كل الحكايات التى تُحكى له ؛ يضاف إلى ذلك أن الخيالة كانوا يحشونه بتلك الحكايات طوال الطريق، وبخاصة ما يتعلق منها بمغامرات محمد جعفر ، من باب تعزيز أهمية رئيسهم . كيف لهذا الرجل أن يفعل ما يشاء على مسمع ومرأى من الحكومة ، التى لا تجرؤ على معاقبته لقتله العديد من رجال الشاهزاد قبل عامين فقط ، كيف يسمح لهذا الرجل وحده هو ورجاله من سلطان أباد التنقل بسلام على طريق بيبهان ؛ وهنا أجدنى عاجزة عن لوم الحاج محمد المسكين الذى يتوقع منا أن ندخله فى بعض المشكلات والإشكالات ، لأننا سبق لنا أن فعلنا ذلك ، إضافة إلى أن الرجل يحسبنا متهورين لا نلقى للأخطار بالاً . الحاج محمد دائم الحديث إلينا عن الحرص ، على الرغم من أنه هو نفسه خليط من الحذر والتهور ؛ حدث ذات مرة وفى لحظة من اللحظات الحرجة ، أن كان الرجل على وشك أن يدس مسدسه فى كيس لا يمكن الوصول إليه ، لمجرد أن شريط حزام المسدس كان مكسوراً ، فى مرة أخرى كان على وشك أن يعطى بندقيته لشخص غريب كى يحملها عنه ، لولا أننا منعناه من ذلك . أمضينا صباح هذا اليوم فى شرب الشاى وتناول البيض مع الزبد وتيس صغير، ونشرنا الأشياء المبتلة كى تجف . من يمن الطالع أننا لم تحدث لنا أضرار بالغة ، وسرعان ماجففت الشمس الفظيعة كل شىء . هب علينا أيضًا نسيم ساعد بدوره فى تجفيف الأشياء المبتلة ، وأبعد عنا الذباب .

فوضنا الحاج محمد خلال فترة الصباح فى التفاوض مع القائد ، الذى بدأ يتكلم مع الرجل العجوز حول المبلغ الذى يمكن أن يحصل عليه منا . وقد قام الحاج محمد بذلك التفاوض على خير وجه ، وتوصل الرجل إلى ترتيب يتم بمقتضاه عندما نصل بيبهان ، دفع مبلغ مائة قران Krans (فرانك) للقائد . كان القائد قد طلب فى البداية عباءة أو شال كشمير ، لكن يبدو أن الحاج محمد تكلم فى هذا الموضوع كلامًا حاسمًا وحازمًا.

نحن نود استئناف مسيرنا عند الساعة الرابعة والنصف ، الأمر الذى يحتم علينا حزم أشيائنا فى الحال ، لكن الخدم يتلكأون فى بقية لحم التيس ؛ هذا يعنى أنهم لن

يرحلوا قبل أن يأتوا على البقية الباقية من ذلك اللحم . يضاف إلى ذلك أن الخدم لديهم العديد من الأحزمة التى يتعين إصلاحها قبل الرحيل .

اليوم الثامن عشر من شهر أبريل : صادفنا قدراً كبيراً من المتاعب قبل أن نبدأ مسيرنا عصر يوم أمس ، وبعد مسير طويل وشاق لم نصل إلى أبعد من قرية جازون ، التى تبعد حوالى خمسة عشر ميلاً، ووصلناها عند الساعة الخامسة صباحًا . لو سرنا بهذا المعدل فذلك يعنى أننا يمكن أن نصل إلى بيبهان بعد شهر تقريبًا ، وبخاصة إذا كان الممر الذى يتعين علينا المرور خلاله ، يمر عبر سلسلة الجبال الصخرية ، من النوع الوعر غير المستوى ، على حد ما ورد فى التقرير .

اتضح بعد ذلك أن القائد نفسه لا يود استكمال المسير معنا ، لكنه سيوفد معنا ابن أخيه ومعه أربعة آخرون من المشاة ، على أن يلحق بنا هو بعد ذلك ومعه الخيالة الأربعة . وقف القائد بجوارنا ونحن نقوم بعملية التحميل ، ثم تمنى لنا ليلة سعيدة وانصرف إلى حال سبيله . وعندما أصبح كل شيء جاهزًا ، طلب منا أن نسدى إليه معروفًا بأن نأخذ معنا حزمة من الصوف بنى اللون إلي بيبهان ، ولما كانت تلك الحزمة غير ثقيلة فقد وافقنا على أخذها معنا . وعندما استدار ولفريد ليلقى نظرة على تلك الحزمة ، قام قروى بأخذ بندقية ولفريد من فوق الناقة ، لكنه سرعان ما أعادها إلى مكانها عندما صاح ولفريد قائلاً : " قف ، أيها اللص " ، وراح القروى يجرى بصحبة الجمع الصغير الذى تجمع حولنا ، راح يجرى وهو يشعر فى داخله بالذنب ، والخوف من الكلمات التى ستلحق به . وهنا بدأنا السير من جديد – كانت الساعة حوالى الخامسة والنصف ، أمسية لطيفة يهب خلالها نسيم عليل، اختفى عند غروب الشمس ، وبقى الهواء بعد ذلك طوال ساعتين مشبعًا بالحرارة الخانقة . كان لابد من تخطى حقول المحاصيل فى سلطان أباد ، لكن هذه الحقول كانت فى أرض جافة ، ليس فيها سوى بعض الحفر السهلة . وصلنا بعد ذلك إلى أرض شبيهه بالمنتزة ، كانت مزروعة من قبل ، لكنها متروكة حاليًا للطبيعة ؛ كانت أشجار الكانورة متناثرة هنا وهناك مثل أشجار الزعرور، كما لو كانت مزروعة للزينة، الأعشاب كلها هنا محصولية تنمو بريًا ،

هذه هى نباتات الشوفان ونباتات الشعير بسنابلها . وترى هنا وهناك قرية مهجورة ، فى حين تبدو الأبيار حمراء لامعة فى ضوء الغروب . بعض هذه القرى كانت مأهولة بالسكان منذ وقت قريب ، واستمعنا إلى حكايات كثيرة عن هذه القرى ؛ فى بعض الأماكن هجر السكان منازلهم من تلقاء أنفسهم هربًا من جباة الضرائب ، وبخاصة عندما يحل موعد الزيارة الثانية ، مخلفين وراءهم محاصيلهم على عيدانها ؛ وهرب السكان من مكان آخر ، بقوة النار والسيف ، إذ من عادة الجنود أن يضرموا النار فى القرية بعد أن يسرقوها وينهبوا ما فيها .

بعد حوالى ساعتين عبرنا نهر ابن الفارس ؛ هذا النهر ليس بالواسع أو العميق ، لكن ضفتيه عامرتان بالأشجار الكبيرة والأدغال الكثيفة . يوجد أيضًا ممر ضيق وشبه عمودى يؤدى إلى المخاضة . هذه هى الإبل ، أصبحت ماهرة فى السير فى الأراضى الوعرة ؛ هذا هو الجمل شكران يحمل أمتعتنا الشخصية ، لقد شُفى الجمل تمامًا ، بل أصبح أمهر الإبل كلها . وهذا هو الحاج محمد جالسًا بلا اهتزاز فوق ناقة ولفريد ، ورأسه يوشك أن يلامس أغصان الأشجار . بعد هذه المخاضة كان أمامنا مخاضة أخرى أو اثنتان تعين علينا عبورهما أثناء الظلام ، كنا نتعرف اقترابنا من هاتين المخاضتين من خلال نقيق الضفادع ؛ ثم أصوات صراصير الغيط من بعد نقيق الضفادع ، ثم أصبحنا نسير بعد ذلك على أرض متماسكة ، وسطح الأرض هنا كانت فيه بعض الارتفاعات والانخفاضات ، ومقسم إلى وديان صغيرة بسبب الأمطار . عند الساعة العاشرة ، وذلك من واقع ضوء النجوم ، أصبحنا نسير فوق مرعى منبسط وجيد ، هذا مرعى حقيقى وليس مرعى محصولى ، كما أن أشجار هذا المرعى تنمو على شكل مجموعات كما لو كانت فى منتزه ، كما توجد صخرة منخفضة فى الجهة اليسرى . توقفنا فى هذا المكان مدة ساعة لتناول شىء من الطعام ، وخطر ببالنا أن نأخذ غفوة قصيرة ؛ لكن محمد جعفر الذى كان قد انضم إلينا منذ فترة وجيزة ، لم يوافق على تلك الوقفة . الوقفة فى هذا المكان ستكون خطيرة ؛ لأن الشيرازيين سوف ينسابون من هذه التلال قاصدين الشمال . ورفض الرجل بقاءنا فى هذا المكان

أكثر من اللازم ، كان أسلوب الرجل يصطبغ بصبغة الجد القائم على القناعة واليقين ؛ كان محمد جعفر مؤمنًا تمامًا بالخطر الذى حدثنا عنه . كان الليل جميلاً ، يا أسفاه إذا لم نغتنم ذلك ؛ وواصلنا مسيرنا فوق أرض مناسبة مدة ساعة من الزمن ، ثم بدأنا نسير فى الوحل بعد ذلك ، وفى الحفر ، وفوق الضفادع ؛ وفى حوالى الساعة الواحدة صادفنا حفرة بيضاء وسيعة سدت طريق تقدمنا . ها نحن من جديد أصبحنا بين المحاصيل ، التى تبلغ من الكثافة حدًا يصعب معه السير بين هذه المحاصيل ، وعندما وصلنا إلى هذه الحفرة ، تجمعنا كلنا حولها فى محاولة منا للعثور على ممر يمكن أن تمر من خلاله الإبل . لم يكن أمامنا أى طريق من أى نوع كان ؛ وواقع الأمر ، أن الخيَّالة ضلوا طريقهم ، ولم يستطيعوا الاهتداء إليه مرة ثانية ؛ ومع ذلك لم يكن هناك خلاف أو أية مشكلة فى اتجاهنا العام، إذ كان نجم العقرب مرشدنا ودليلنا أثناء الليل. على كل حال ، لقد وجدنا أنفسنا هنا غارقين فى شبكة من شبكات الرى ، والسبب فى ذلك أن الحفرة فى هذا المكان بالذات لم تكن سهلة على الإبل ، كما أن كل الجهود التى بذلناها من أجل الوصول إلى مخاضة ، باءت كلها بالفشل . هؤلاء هم الخيالة عبروا الحفرة وينادون علينا طالبين إلينا اتباعهم ؛ وواقع الأمر ، أن هؤلاء الخيالة كانوا يرشدونا ، طوال الساعة الأخيرة ، بطريقة عشوائية وعن طريق الصياح والغناء . كان واحد منهم يغنى بطريقة جيدة ، وكان يحافظ فى غنائه على لازمة واحدة هى :

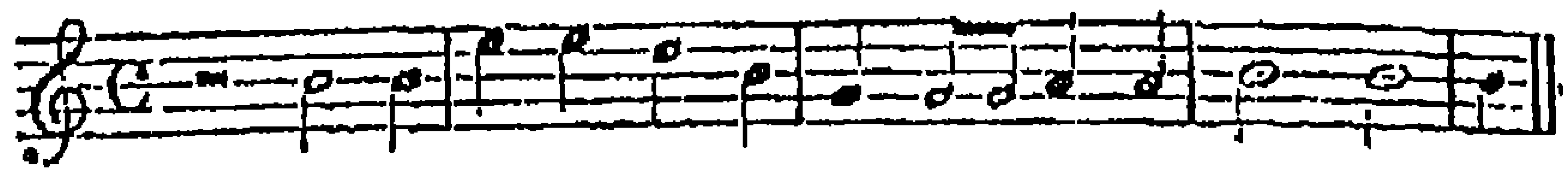

لكنهم الآن يصرخون ، ويصيحون ويغنون بلا هدف . ونحن بدورنا رفضنا إهدار المزيد من الوقت فى بحث لا طائل من ورائه ، وجلسنا أرضًا انتظارًا لطلوع النهار . عاد إلينا واحد من الخيالة وجلس معنا حتى الساعة الرابعة صباحًا، ونحن نتكلم مع الحاج محمد عن الشيرازيين . وجلسنا أرضًا ورحنا فى سبات عميق . عند الساعة الرابعة والنصف اهتدينا إلى ممر خلال طين الترعة ومائها ، وبعد أن تجاوزنا ذلك الممر وصلنا إلى أرض صحراوية ، مررنا فيها على العديد من بساتين النخيل الصغيرة

الشبيهة بالواحات والمنفصلة عن بعضها البعض . واصلنا مسيرنا بعد ذلك مدة نصف ساعة وصلنا بعدها إلى قرية جازون .

جازون واحدة من قرى كثيرة كانت موجودة ذات يوم فى المسافة بين سلطان أباد وبيبهان ، وها نحن قد تجاوزنا أنقاض هذه القرية . هذه القرى تخلى عنها سكانها منذ سنوات قلائل فقط ؛ حكام هذه المنطقة الذين وجدوا مسألة جباية الضرائب من السكان فى هذه القرى أمراً مستحيلاً ، وجدوا أن حل هذه المشكلة يتمثل فى تدمير هذه القرى فأمروا بتدميرها . قرية جازون عبارة عن مجموعة من المنازل الطينية صغيرة الحجم على الضفة اليسرى للمجرى المائى الطبيعى جارى الماء . والقرية تحيط بها الحقول هى ومجموعات النخيل. هذه هى خيولنا مقيدة بحبال طويلة ، جرى ربطها فى النخيل ، تركناها تتغذى على نباتات الشعير الخضراء ؛ الإبل موجودة على بُعد مسافة كبيرة بصحبة شافعى . هذا واحد من العمال الممتازين ، لكنه لا يتكلم كلمة عربية واحدة، وإلا عبرت له عن مدى قناعتنا به ورضانا عنه . نحن أنفسنا خيمنا على الأرض المرتفعة التى يقع المجرى المائى خلفها ، الأمر الذى مكَّن القرويين ، الذين هم جماعة مُتْعبة من الناس ، من المجىء إلينا من جانب واحد .

قرية جازون هى وسلطان أباد، مملوكتان لأسرة محمد جعفر. والرجل جالس معنا يتحدث إلينا من خلال الحاج محمد . يقول محمد جعفر ، إنه على الرغم من أن أسرته لم تعد تتحدث العربية، فإنها من قبيلة صافية، وإنها جاءت أصلاً من نجد، وأحضرت معها خيولها ؛ ويقول أيضًا : إن الفرس الجميلة الصغيرة البيضاء التى يركبها ابن أخيه ، التى أبديت أعجابى بها الليلة الماضية ، إنها من السلالة الحمدانية السمرية هذه الفرس صغيرة الحجم ؛ إذ لا يزيد طولها بأى حال من الأحوالى على ثلاث عشرة قبضة واثنين من عشرة من القبضة ، لكنها تكاد تكون كاملة من جميع النواحى ؛ رأس الفرس جميلة جداً وأنفها أسود اللون ، والعينان سوداوان ومستديرتان كما لو كانتا مرسومتين ، وجبهة الفرس بارزة ، ومتبخ الفرس غاية فى الجمال ؛ وذيلها متناسق ومقنطر ، وينساب انسياباً جميلاً ، عظام الفرس صغيرة ، وأرجلها نحيفة لكنها قوية .

قال رجل يركب فرسًا كستنائية اللون : إن هــذه الفـرس من سلالة كحيلة شيخة ، وإن طولها حوالى أربع عشرة قبضة ، ولها أربع أقدام بيضـاء ، ورأس أنيق ومتبخ . قال محمد جعفر إن السلالات الخاصة التى لدى قبيلته حاليًا هى: الحمدانى السمرى ، والعبيـان ، والهدبان ، والودنان ، والمليحـان ، والصقلاوى والكحيلان يبدو أن الفرس التى يركبها هذا الرجل ليست أصيلة ، كما أنه لم يقل عنها شيئًا . قال لنا محمد جعفر الآن : إن ولد أخيه سوف يواصل مسيره معنا إلى بيبهان فى حين يتعين عليه هو العودة إلى موطنه ، وإنه يود منا أن ندفع له الآن مبلغ المائة قران (فرنك) . وبعد شيء من الحوار وافق الرجل على قبول مبلغ سبعين قرانًا ، على اعتبار أن هذا هو استحقاقه ، على أن نعطى لابن أخيه الثلاثين قرانًا المتبقية عند نهاية الرحلة . المؤكد أن محمد جعفر يحصل على نصيب الأسد ، لكن الشحاذين لا يخيرون ، كما أننا نعتمد على صداقة الرجل وحسن نيته فى مرورنا خلال هذا الجزء من البلاد ، إلى حد أننا يجب أن نكون سعداء لأنه لم يطلب مبلغًا أكبر . نحن كلنا فى موقف هش ، نبلغ فيه من الضعف حداً لا نستطيع معه فرض شروطنا ، وأفضل ما يمكن عمله فى مثل هذه الظروف هو المضى قدمًا بأسرع ما وسعنا الجهد إلى أن نصل بيبهان ، ومن سوء طالعنا أنه لا توجد فقط صخور وعرة يتعين عبورها ، وإنما هناك أيضًا نهر كردستان الذى يتعين علينا خوضه وعبوره .

اليوم التاسع عشر من شهر أبريل : مرت علينا أربع وعشرون ساعة غير طيبة ، ولقد تسلقنا الصخور الوعرة ، وهربنا من أهل جازون، الذين كانوا يضمرون لنا سوءًا. لكن لا يزال أمامنا نهر كردستان الذى يفصلنا عن بيباهان .

أفلحنا فى أن نبدأ مسيرنا من جازون بعد الساعة الثانية ظهراً ، وخرجنا على الفور من السهل إلى أرض مكسرة ، ازدادت تكسيراً على تكسيرها إلى الساعة السابعة ، موعد توقفنا ، حيث تورطنا فى كتلة من التلال المتصلة ببعضها البعض بطريقة عشوائية . نجحنا فى عبور الكثير من المجارى المائية الصغيرة فى كثير من الوديان العميقة ، كما نجحنا أيضًا فى تجاوزنا صخرة مشاكسة عند رأس أحد

الوديان ، كان يمكن أن تكون عقبة أمامنا فى ظلام الليل . رأينا أيضًا ثلاثة أو أربعة من الغزال ، ومن حسن حظنا أن كلاب الصيد لم تشاهد تلك الغزلان ، نظرًا لأننا ليس أمامنا متسع من الوقت لممارسة هواية الصيد . تكثر فى هذا المكان طيور القطا ، وأكل النحل ، وطيور الزقزاق وكذلك اليمام . عند الساعة السابعة كنا قد قطعنا حوالى عشرة أميال وصعدنا ما يزيد على ستمائة قدم، واقترح ولفريد أن نتوقف بضع ساعات . كنت سعيدة بذلك الاقتراح لأنى لا أستلطف الممرات والمنحدرات أثناء الليل ، ونحن لا يزال أمامنا الممر الذى يتعين اجتيازه ، لكن عبد الله خان ، ابن أخى القائد ، اعترض على التوقف ، الذى يمكن أن ينطوى على شىء من الخطر . ومع ذلك، أصدر ولفريد أمرًا حاسمًا بإنزال الأحمال من فوق الإبل وإعداد وجبة سريعة وتصليح شىء من الشاى ، كما اقترح علينا عمل شىء من العليقة للإبل ، لأنها قطعت مسيرة مضنية، ولا تستطيع الأكل أثناء الليل .

قبل أن ننتهى من تناول الوجبة جاءنا الحاج محمد ليقول : إن أربعين من الجزوين كانوا يتتبعوننا ابتغاء سرقتنا وسلب ونهب ما معنا . قال إن شافعى رأى هؤلاء الجزوين ، وأبلغه بذلك ، وأضاف أيضًا أن ولد عبد الله خان أبلغوا بتلك المؤامرة وجرى تحذيرهم عن طريق القرويين بألا يبقوا معنا . استدعى ولفريد ، الشاب عبد الله خان ، الذى أكد هذه الحكاية ، كما أكدها أيضًا الآخرون كلهم ، هؤلاء الآخرون هم الرجال الأربعة الذين رافقوا عبد الله خان سيرًا على الأقدام . وأنا أرجح مسألة الهجوم هذه ، نظرًا لأن شافعى لن يغنم شيئًا من وراء هذه القصة . لكن ولفريد ، يرى أن ذلك ربما كان مجرد " تعبير عن المشاعر الطيبة عند أهل جازون " . على كل حال ، وافق ولفريد على التزامنا الحيطة والحذر وعلى استئناف مسيرنا على وجه السرعة ، كان ذلك أمرًا مستحيلاً فى هذه اللحظة . جرى تجهيز البنادق والمسدسات ، كما جرى أيضًا تعيين حراس ، وأكد لنا عبد الله أنه سيقف إلى جوارنا ويساندنا . أعتقد أنه سيبر بوعده ، فقد كان لنا مرشدًا أفضل من عمه ، كما أثبت جاهزيته لتقديم العون والمساعدة ، كما كان ينتظر أيضًا الإبل فى الأماكن الصعبة . بعد كل هذا الاستياء

لم يحدث أى شىء ، اللهم باستثناء إنذار أو إنذارين كاذبين ، ولا أظن أنى نمت أحلى من ذلك النوم الذى استمر من الساعة التاسعة إلى الساعة الثانية من تلك الليلة - حيث لا يوجد بعوض أو ذباب .

استغرقت عملية التحميل منا فى الظلام أكثر من ساعة ، ولم نبدأ التحرك إلا بعد الساعة الثالثة صباحاً ؛ فى البداية بدأنا نتحسس طريقنا على شكل صف واحد بقيادة عبد الله خان ، وكنا نمشى فى طريق منحدر ومكسر تماماً . فى جزء من الطريق لقينا شيئًا من المساعدة من خلال ضوء القمر الذى كان هلالاً أحمر اللون. عند الساعة السادسة إلا ربع كنا قد وصلنا إلى أعلى نقطة فى هذه السلسلة الجبلية ، التى يتراوح ارتفاعها بين ١٦٠٠ و ١٧٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، هذا يعنى أننا كنا على ارتفاع يزيد على ارتفاع جازون بحوالى ٩٠٠ قدم. المنظر هنا وسيع ، ويمتد منحدراً إلى نهر كردستان ، هو وقرية النخيل التى يسمونها كيكوس ، وهناك قرى نخيل أخرى خلف النهر ، لكن هناك شيئًا ما غائب عن هذا المنظر ؛ إنه قرية بيبهان نفسها .

نزلنا عن طريق منحدر هين إلى سهل على شكل شريط فيه أعداد كبيرة من طيور الوقواق ، والطيور آكلة النحل ، وطيور القطا واليمام وطيور الدُّرَّاج ، كما كانت أشجار الكانورة تتخلل ذلك السهل ، على شكل أشجار فردية أو مجموعات ، كما كانت فى الوادى أيضًا حقول للقمح تنتشر هنا وهناك .

رؤيتنا لذلك الجبل الذى يتحكم فى الهواء ، إن كان هناك هواء ، هى التى أملت علينا التوقف ، وها نحن الآن فى هذا المكان فى انتظار طلوع النهار حتى نبدأ من جديد لكَى نعبر النهر . هذا السهل المجاور للنهر لا يزيد انخفاضه على أكثر من ثلاثمائة قدم عن الممر الذى عبرناه هذا الصباح .

الأحد ، المصادف لليوم العشرين من شهر أبريل : وصلنا أخيراً إلى بيبهان . هذه آخر مسيرة من مسيراتنا ، وعلى الرغم من أنها ليست طويلة فإننا لم نصلها قبل منتصف الليل ، إذ كان يتعين علينا عبور نهر كردستان . كان نهر كردستان أعمق الأنهار التى عبرناها ، وقد استغرق اختيار مكان العبور منا وقتًا طويلاً ، ومع ذلك

طاول ارتفاع الماء منحنيات سُرُج الخيل ، وكان الماء يجرى مثل تيار دافق . لكن الإبل أصبحت معتادة على الماء على اختلاف أشكاله بدءاً بالطين إلى البول ، الأمر الذى دفع الإبل كلها على المشى الشجاع خلال أشكال الماء المختلفة ، ولم يبتل من أمتعتنا سوى جزء صغير جداً . على الرغم من أن المنطقة لم تكن مناسبة للإبل من نواحٍ كثيرة ، فنحن يحق لنا أن نهنئ أنفسنا بالفكرة التى مفادها أننا استطعنا نقل أمتعتنا عبر الأنهار دون استعمال حيوانات أخرى غير الإبل . لو كنا حمَّلنا تلك الأمتعة على بغال ، لجرف تيار الماء هذه البغال .

يشكل نهر كردستان الحدود من ناحية السهل المنزرع من بيبهان . وبعد هذا السهل نجد أنفسنا نسير بين حقول القمح ، وفى طريق واسع يتجه صوب عاصمة كردستان . وعندما أصبحنا على بُعد مسير حوالى ساعتين من المدينة ، أوفدنا الحاج محمد ليعلن عند الحاكم ، عن وصولنا ، لكن حاكم البلدة كان نائمًا بالفعل ، لكننا لم نتجاوز بوابة المدينة إلا بعد شىء من الصعوبة مع الحراس ؛ ولم يكن بوسعنا فى ذلك الظلام الدامس اختيار الأرض المناسبة لنصب مخيمنا . توقفنا فى أول مكان مفتوح لقيناه ؛ وفى هذا المكان استلقينا أرضًا ونمنا (نحن لا يهمنا الآن كيف وأين استلقينا ، نظراً لأن الأرض تكون دائمًا طرية مثل سرير من الريش) . ومع ظهور أول ضوء ، واصلنا سيرنا داخل المدينة ، وتوقفنا مرة ثانية أمام السراى هنا رحت أدون يومياتى ، وأرسم صورة تخطيطية للقصر القديم ، بمآذنه الشامخة ، التى تغطيها أعشاش طيور اللقلق . يقول الحراس : " إن الشاهزاد ما يزال نائمًا ، وبالتالى لن يوقظه أحد من منامه " .

الفصل السادس

" أخر المشاهد كلها ...... هو النسيان ليس إلا " .

شكسبير

اندفاع أخير خلال الشمس – الوصول إلى ديلام على الخليج الفارسى – سياسة الخليج – رحلة " إلى المجاهل " – باشاير – النهاية .

كانت بقية رحلتنا أفضل قليلاً مـن حلم محمـوم في جو حار وموبوء بالذباب . بعد أن أمضينا يوماً فى بيبهان ،التى استقبلنا فيها الشاهزاد ، احتشام الدولة ، هذا النبيل الفارسى كريم المحتد ، ابتدأنا مسيرتنا المرهقة ، وكان تفكيرنا منصباً على النزول إلى بوشاير ونحن أحياء .

لم تفد تلك الدعوات الودية من جانب مضيّفنا ، ولا الاهتمام الدمث من جانب زوجاته ، ولا حتى الزيارات الودية التى قام بها التجار ، وبعض الشخصيات الأخرى، التى كانت تتوافد على مساكننا بدءاً من طلوع الفجر إلى فترة الشفق ، لم يفد ذلك كله فى تعطيلنا أو تأخير قيامنا بالرحلة التى عقدنا العزم على القيام بها. واقع الأمر أن بيبهان كانت مثل الفرن ، ومن هنا أحسسنا أن مسألة إطالة معاناتنا لمدة أسبوع آخر ، أكبر بكثير مما تتحمله قوانا . معروف أن الأراضى الخفيضة من بلاد فارس ، التى تقع على حدود الخليج الفارسى ، تعد إقليماً من الأقاليم الشبيهة بالفرن فى سائر أنحاء العالم ، وعلى الرغم من أن بيبهان تقع على ارتفاع حوالى ١٤٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، فإن مناخها من مناخ منطقة الخليج الفارسى . يزاد على ذلك ،

أننا لم يعد أمامنا ما نخشاه على الطريق سواء أكان من جانب اللصوص أو الغزاة ، فضلاً عن إعدادنا لأنفسنا لاندفاعة أخيرة خلال الشمس إلى أن نصل إلى بوشهر . كانت المسافة المتبقية على بوشهر تقدر بحوالى مائة وعشرين ميلاً ، لكن فيما بين بيبهان وديلم يوجد إقليم من التلال – هو من وجهة نظر التقارير – أسوأ من أى إقليم من الأقاليم الأخرى التى تجاوزناها حتى الآن ، وهذا الإقليم يصعب على الإبل اجتيازه تمامًا . ومع ذلك ، كان لدينا من الأسباب ما يجعلنا واثقين بإبلنا ، ولا يمكن لنا التخلى عنها . وبناءً على ذلك كله ، بدأنا فى اليوم التالى وشجاعتنا فى ذروتها ، ويرفقتنا ثلاثة من خيالة الشاهزاد .

بدأنا ترحالنا الأخير عند الساعة السادسة مساءً ، لنستفيد إلى أبعد حد ممكن من آخر أضواء النهار ، فى الوصول والاستقامة على الطريق الذى سنسلكه . من المعروف أن المصاعب تتزايد بالقرب من المدن ، لكن إبلنا بعد أن جرى وضعها على الطريق المعروف ، لم يعد أمامها ما يغريها على التسكع . على الطريق من بيبهان إلى الديلم يوجد خطان كبيران من السلاسل الجبلية أو بالأحرى التلال – المدرَّجة ، وهاتان السلسلتان بالغتا الانحدار ، وهذا الانحدار الشديد يتجه ناحية سهل البحر . فى بداية الأمر كانت المسألة سهلة عند الإبل ، لكن بعد ساعة من دخول الظلام ، وجدنا أنفسنا نسير فى أرض مكسرة ، رحنا نتعثر فيها إلى الساعة التاسعة والنصف ، لنصل فى نهاية المطاف إلى وقفة أصبح الطريق عندها مسدوداً ، فقد وجدنا أنفسنا على حافة هوة عميقة ، أو إن شئت فقل خليج عميق ، اختفى الطريق عنده . وقد حتم ذلك علينا الانتظار لحين طلوع النهار ، وعليه استلقينا أرضًا مع إبلنا ، ونمنا نومًا عميقًا إلى أن ظهرت أول خيوط الفجر عند الساعة الرابعة والنصف صباحًا . وهنا اكتشفنا أننا ضللنا الطريق ، على الرغم من أن ذلك لم يستمر سوى بضع ياردات قليلة ، وأن الجرف الذى وجدناه أمامنا كان سببًا كافيًا للوقفة التى وقفناها . المكون الرئيسى فى هذه التلال ليس الصخر وإنما الصلصال ، الخالى تمامًا من الحياة النباتية اللهم باستثناء بعض الأماكن ؛ هذه التلال الصلصالية مقسمة إلى وديان وأحواض صغيرة

بفعل المطر، الأمر الذى يجعل المنطقة صعبة العبور إلا من الطريق المعروف والمطروق . صحيح أننا ارتفعنا بضع مئات من الأقدام عن بيبهان ، وعليه نكون قد أوشكنا على الوصول لقمة المضيق الأول ، الذى استطعنا منه رؤية شيء على مدد الشوف عرفنا من خلال الغريزة ، أنه البحر . وقد رفعت هذه المعرفة من روحنا المعنوية ، وهنا بدأنا على الفور عملية النزول .

كان المضيق شديد الانحدار ، وعندما نظرنا من فوق حافة هذا المنحدر ، إلى الأسفل بدا لنا أن نزول الإبل إلى الأسفل لمسافة تقدر بحوالى ألف قدم فى طريق ملتو، تعد أمرًا مستحيلاً ، وبخاصة أننا كنا نرى القاع واضحًا ونحن فى الأعلى عند حافة ذلك المنحدر . فى بعض الأماكن كنا نرى الصخور بارزة من التربة ، مشكّلة بذلك ممرات ضيقة ، وفى بعض الأماكن الأخرى كنا نشاهد انخفاضات تصل إلى ثلاث أقدام أو أكثر . لم تشكل إبلنا أية مشكلة أمامنا ، لكن مسألة مراقبة الإبل بحد ذاتها كانت عملية مستفزة ، علمًا بأننا كنا نعلم أننا ليس لدينا ما يمكن أن نساعد به هذه الإبل . ومع ذلك ، حاولنا بذل قصارى جهدنا قدر المستطاع ، بأن رحنا نمشى أمام الإبل وندللها كما يفعل البدو عندما يقولون للإبل " هاهو - هاهو " ، وهذه إشارة تفهمها الإبل فهمًا جيدًا . هذه الإبل أصبحت تعرفنا الآن وتثق بنا ، ولذلك بدأت تواصل سيرها بشجاعة . يزاد على ذلك أن الدلول المكى ، والناقة الصفراء ، وكذلك الجمال الصغيرة كل هؤلاء تعلموا الجد والرزانة والوقار . نزول ذلك المنزل شديد الانحدار استغرق ثلاث ساعات بالتمام والكمال أمضيناها وخرجنا من المَنْزَل فى نهاية المطاف بلا أية حوادث . مشينا ساعة أخرى وصلنا بعدها إلى زيتون تلك القرية الجميلة التى تقع على نهر زورة ، وفيها بساتين نخيل ورقعة طيبة من الأرض المنزرعة . توقفنا عند النهر ، متعبين بالفعل بسبب الشمس وحرارتها ومأخوذين بمنظر الماء الجارى البارد . بقينا فى هذا المكان إلى فترة المساء .

عبرنا النهر عند الساعة الرابعة ، هذا النهر عريض وواسع مثل نهر كردستان لكنه أقل منه عمقًا (ومجرى النهرين من الحصى أو إن شئت فقل الزلط) ، وواصلنا

مسيرنا . حصلنا على آخر كوب الماء المثلج، لكنها لم ترو ظمأنا، الذى لا يروى أبداً ، على الرغم من أننا لا نشرب شيئًا من الصباح إلى المساء . جاء مسيرنا تكراراً لمسير الليلة السابقة، تعثر طويل ونحن شبه نائمين فى طريق غير معبد ينتهى بطريق مسدود، وأمضينا بقية الليل مستلقين على الأرض . نحن مرهقون تمامًا ، بسبب توقفات هذه الليلة بصفة خاصة ، التى لم نستطع خلالها تبين المكان المناسب الذى يمكن أن ننام فيه ، نظراً لأن المنطقة كانت عامرة بالحشائش والأعشاب الشوكية التى يسميها الناس هنا الشُّبَّيط . كل قطعة من الملابس كانت عامرة بتلك الأشواك . هذه الأشواك هى والذباب كافيان لأن يحولا بين المرء وبين النوم أثناء النهار ، يزاد على ذلك أن ولفريد وأنا مرهقان تماماً ، أمّا ولفريد فقد أوشك أن يكون مجرد هيكل عظمى .

اليوم الثالث والعشرون من شهر أبريل : عند الساعة الثالثة والربع ، استأنفنا السير من جديد ، على أضواء الفجر الكاذب ، كان نجم العقرب ما يزال أمامنا . نحن نعرف الآن أن هذا النجم يطلع فى الجزء الجنوبى الشرقى من السماء . كان المطلع فى هذه المرة أطول وأكثر تدرجًا ، لكن المَنْزَل كان أقصر من المْنزَل السابق ، لكنه صعب ووعر مثله تماماً. هذه السلسلة الثانية من الصخور أكثر انخفاضًا من السلسة الأولى ، وعند سفح الممر الذى كنا نسير فيه يوجد واد من شكل معين وجدنا فيه بعض برك الماء . وينفتح المضيق بعد ذلك لنجد أنفسنا فى السهل عند الساعة الثامنة ، وعلى مقربة من قرية من القرى ، كما شاهدنا أيضًا كلاً من ديلم هى والبحر على بُعد حوالى ثمانية أميال ؛ كان البحر عند خط الأفق يبدو كما لو كان رصاصًا منصهراً يغلى على نار هادئة .

ثمانية أميال ، تبدو كأنها مسيرة هينة ولينة ؛ لكن الحرارة التى لا تطاق حاليًا على ساحل البحر أكثر إيلامًا عن ذى قبل ؛ هذه الحرارة استوقفتنا فى منتصف الطريق ، وهنا وجدنا أنفسنا ننصب خيمتنا فى السهل من جديد ، واستلقينا تحتها طوال فترة المساء . ثم استأنفنا سيرنا بعد ذلك إلى ديلم ، كان أول سؤال لنا يتعلق

بالنقيب كاميرون Cameron، الذى كان ينبغى لطريق أن يلتقى بطريقنا عند هذا الحد؛ لكن لم يسبق أن مر غريب أو أى أحد من الفرنجة من هذا المكان. (*)

ديلم شأنها شأن السواد الأعظم من القرى البحرية على الشاطئ الشمالى الشرقى للخليج الفارسى ، يسكنها أناس من أصل عربى ، ويقومون بنوع من أنواع التجارة المختلطة ، كما يمارسون القرصنة فى هذا المكان من قديم الأزل. القرصنة من بين هاتين الحرفتين هى الحرفة الأكثر ربحًا عند هؤلاء الناس ، نظرًا لأن المدن بدأت تضعف بعد أن قامت البحرية الإنجليزية أو بالأحرى البحرية الهندية بقمع مهنة القرصنة هذه . فكرة العرب عن القرصنة البحرية هى فكرة الغزو البرى نفسها . هذا يعنى أن أى فرد غريب لا يكون مرتبطًا بتحالف مع القبيلة ، أو ليس تحت حمايتها ، يعد عدوًا ، وهذا يعنى أن بضاعة مثل هذا الشخص تعد جائزة مشروعة . ومع ذلك ، فإن القسم الأكبر من الحملات المسلحة ، التى سبق القيام بها فى الخليج الفارسى كانت موجهة من قبيلة أو قرية ضد قبيلة أو قرية أخرى وكانوا يطلقون عليها بالعربية "غزوات" ، ولا تقل أبدًا عن الغزوات البرية . ومع ذلك ، كان من الطبيعى أن تكتشف الحكومة البريطانية تقادم هذه الأفكار ، كما اكتشفت أيضًا أن ممارسة هذه الأفكار لها أضرارها ؛ وحفاظًا على مصلحة تجارتها ، قامت الحكومة البريطانية، قبل ثلاثين أو أربعين عامًا ، بإنشاء شرطة الخليج . وأجبرت الحكومة البريطانية شيوخ مختلف المدن والقرى على الدخول فيما يسمى هدنة الخليج ، وبذلك تختفى القرصنة . هذا يعنى أن الحملات التى من هذا القبيل أصبحت حملات برية اعتبارًا من توقيع تلك الهدنة ، كما كان يجرى مصادرة السفن المسلحة إذا ما التقاها طراد من الطرادات الإنجليزية . وقد أدى ذلك إلى إضعاف القرى الساحلية وتحديد مصيرها ، نظرًا لأن تجارة الخليج وحدها لم تكن كافية لإعاشة هذه المدن والقرى ، وهنا اضطر أهل هذه القرى إلى الانتقال إلى أحياء جديدة فى الداخل، وتحولوا من بحارة إلى زُرَّاع للأرض.

(*) لم يقم النقيب كاميرون من بغداد بالمهمة التى اتفقنا عليها فيما بيننا . كانت الرسائل التى وصلته بعد رحيلنا تنص على استدعائه للهند ، التى سافر إليها على ظهر باخرة عبر نهر دجلة والخليج الفارسى .

لا تزال القرى البحرية التى فيها موانئ تحيا حياة فقيرة ، أما الأماكن التى ليس فيها موانئ فقد تخلى عنها سكانها وهجروها . بلدة ديلم ليس فيها ميناء ، اللهم باستثناء القوارب الصغيرة ، لكن المرسى جيد فى قرية ديلم ، وأنا أرى أن مرفأ رسوّ السفن فى ديلم يعد واحداً من أفضل المرافئ فى الخليج . الناس يتكلمون عن هذا المرفأ باعتباره محطة نهائية من محطات خط حديدى هندى متوسطى مزمع القيام به .

ديلم فى الوقت الراهن عبارة عن مكان متواضع وفقير الحال يصل عدد منازله إلى حوالى مائتى منزل ، لكن هناك قلة قليلة من الأثرياء فى هذه القرية ، خرجوا ليعبروا لنا عن احترامهم وتقديرهم لنا . كلمة الإنجليز ، اسم شهير على الساحل هنا ، والمكان هنا يعانى من البذاءة وقلة الأدب . قام الناس على الفور بمحاصرتنا بعروض الكرم والضيافة لنا ولدوابنا أيضًا ، لكننا آثرنا نصب مخيمنا خارج القرية . نصبنا مخيمنا على شريط من الكثبان الرملية مواجه للبحر ، ويفصله عن السهل المستوى الذى يمتد نحو الداخل إلى مسافة عشرة أميال عند سفوح التلال . هذا الشريط كانت تكسوه الأدغال الشوكية ، التى كان يرقد فيها زوج من غربان البحر . اعترض زوارنا على اختيار ذلك المكان ، وأكدوا لنا أنه ملىء بالثعابين السامة ، لكن ذلك كان كلامًا فارغًا . جاءنا من بين الزوار رجل تبدو عليه الشراسة وكان يحمل بندقية ، وقال لنا إنه بلوشى ، وإنه موفد من قبل حاكم ديلم ليكون حارسًا لنا ، لحمايتنا أثناء الليل . هذا الرجل كان يعمل فى الجيش التركى ، لكنه الآن يعمل فى الجيش الفارسى . كان ذلك أول لقاء لنا بشىء من الهند. استلطفنا الرجل . فى المساء وعندما دخل الليل والظلام ، وبعد أن انصرف الجميع لحال سبيلهم ، أمتع ولفريد نفسه بالاستحمام فى الماء المالح.

لقد أنجزنا الآن ذلك الذى فعلته قلة قليلة من الأوربيين بل ربما لم يفعله أوروبى من قبل . لقد قطعنا المسافة كلها براً من البحر المتوسط إلى الخليج الفارسى ، هذا يعنى أننا قطعنا ما يزيد على ألفى ميل .

اليوم الرابع والعشرون من شهر أبريل : دار بيننا جدل كبير حول مواصلة الرحلة براً ونحن نقطع المائة ميل المتبقية أمامنا قبل الوصول إلى بوشهر أو القيام ببيع إبلنا

هنا فى ديلم ، على أن نقوم باستئجار سفينة ، أو إن شئت فقل : قارب محلى ، ينقلنا نحن وأشياءنا عن طريق البحر . كان ولفريد مبهوراً كثيراً بهذه الفكرة الأخيرة ، ظناً منه أن هذا الترتيب سيوفر علينا مؤونة أسبوع آخر من التعب والشقاء فى هذا الحر الخانق ؛ لكن منظر تلك القوارب الكسيحة التى يتعين علينا أن نسلم لها أنفسنا وخيولنا وأن نكون تحت رحمة الرياح والأمواج ، كان كافياً لأن يجعلنى أفرح بفشل المفاوضات التى دارت حول مسألة الرحلة البحرية . وهنا قررنا السير مثلما كنا نفعل من قبل . كانت هناك أيضاً مسحة من الحزن لفراقنا لإبلنا فى هذا المكان وركوبنا السفينة دون أن تكون معنا هذه الإبل ؛ وعلى الرغم من أننا كنا نعرف أن فراقنا لتلك الإبل أصبح وشيكاً ، فإن ذلك كان مجرد مهلة لتلك الإبل . ونحن بحكم رعايتنا واعتنائنا فترة طويلة بهذه الإبل ، بدأنا نتفاخر بحالها ، فقد سمنت الإبل وشفيت من الجرب ، هذا النجاح الإدارى لا يحسبه ولا يعرفه أو يفهمه سوى أولئك الذين قاموا بأسفار طويلة وأحبوا إبلهم .

فى مساء اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل ، وبعد مضى أربع وعشرين ساعة علينا فى ديلم ، قوضنا خيامنا واستأنفنا مسيرنا الأخير .

المنطقة الواقعة على حدود الخليج الفارسى هنا عبارة عن أرض منبسطة تماماً ، يكاد لا يكون فيها شىء أو مكان أكثر ارتفاعاً عن مستوى سطح البحر . الأرض هنا جرداء، وغنية بملح البارود، والأرض هنا مجزأة إلى نهيرات صغيرة بفعل المد والجزر ، وأيضاً فى المناطق التى يوجد فيها مجرى مائى نازل من التلال إلى هذه المنطقة . هذه النهيرات الصغيرة هى العقبة الوحيدة التى تعترض مسيرنا ، وهنا وجدنا أنفسنا نتنقل بسهولة ويسر أثناء الليل ، إذ بدأ القمر يطلع علينا .

كنت أستعجل مرور تلك الأيام القلائل الأخيرة ، نظراً لأن الحرارة هى والمسير كانا يستحوذان على جناننا وتفكيرنا . كنا قد رسمنا خطة للتحرك عند الساعة الثالثة عصراً ، أى عندما يبدأ فى الهبوب نسيم لطيف خفيف قادماً من الجنوب الشرقى ، ونواصل السير إلى أن يختفى القمر ، أو إلى أن يواجهنا نهير يسد علينا الطريق أثناء

الليل ؛ وعندها ننام على الأرض إلى أن يطلع الفجر ، ثم نواصل المسير بعد ذلك إلى الساعة الثامنة . عند الساعة التاسعة تكون الشمس قد اشتدت وأصبحت شيئًا لا يطاق ، وتروح تضرب رءوسنا كما لو كانت ثقلاً من الأثقال ؛ وتخيرنا مكانًا فيه شيء من المرعى ، وأنزلنا أحمالنا عن الإبل ، وأطلقنا دوابنا ترعى فى ذلك المرعى ، ورفعنا أطراف الخيمة محولين أياها إلى مجرد مظلة واستلقينا تحتها ونحن نلهث فى ذلك الهواء الخانق ، ورحنا نحافظ على رمق الحياة فينا عن طريق تناول شيء من الشاى . لم يعد الحاج محمد قادرًا على عمل أى شيء سوى تصليح الشاى . لقد أصبح عاجزًا عن القيام بأى شيء آخر ، سوى الجلوس منحنيًا فوق دابته ، أو داخل الخيمة وهو يردد " الله كريم " . حاولنا تجربة أحوالنا المزاجية كلها ، لكننا لم يعد فى وسعنا شيء يمكن أن نفعله لنساعد به بعضنا بعضًا . وهذا هو غاضة ورحيم ، أحدهما عربى والآخر فارسى ، سحبا خنجريهما على بعضهما البعض وراحا يتشاحنان . ظهور الخيل بدأت تلتهب لأول مرة ، وهذه هى الكلاب كادت أن تفقد أعصابها . وهذه هى الكلبة شيخة والكلب صياد أُصيبا أثناء مطاردة غزال أفلحا فى صيده ؛ فقد أصيبت شيخة فى أقدامها . أخيرًا ، وهذا هو المحزن فعلاً ؛ كان واحد من الإبل قد جرى تحميله بطريقة خاطئة ، الأمر الذى أدى إلى سقوط الحمل ، وترتب على سقوط ذلك الحمل سحق الصقر رشم كما انكسرت أيضًا رجل الصقر، وظهر خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من الرحلة أن بقاءه على قيد الحياة يعد أمرًا مستحيلاً ، إذ كان المسكين يتعلق برجل واحدة فى سرج الحصان. يبدو أن الأمور كلها تحولت إلى كابوس ثقيل ، لكننا أصبحنا على يقين أن النهاية أصبحت على قيد باع منا .

فى اليوم الخامس والعشرين من شهر أبريل : وصلنا إلى جناوة ، وفى اليوم السادس والعشرين وصلنا إلى بندر رك ، وفى اليوم السابع والعشرين وصلنا إلى روح الله ، وفيها عبرنا النهر ، لنسير بعد ذلك دون توقف وطوال الليل ، وخضنا خلال ذراع ضحلة من أذرع البحر ، ووجدنا أنفسنا فى صبيحة اليوم التالى عند طلوع الفجر فوق حافة الخور ، أو بالأحرى بحيرة بوشهر المالحة . ومع شروق الشمس بدت لنا بوشهر ، وبذلك تنتهى مسيرتنا الطويلة .

أصبح من الضرورى الآن التخلى عن حياتنا البدوية ، وبعد أن شَحَنَّا أشياءنا كلها فى baggara " بقَّارة " ، وبعد أن خلَّفنا وراءنا الإبل غير المحملة ليجرى اقتيادها عند انخفاض المد إلى عنق جزيرة بوشهر ، ركبنا ومعنا كلابنا وطائرنا على ظهر البقَّارة ، ومع هبوب النسيم العليل وصلنا إلى مرسى الجمارك . وفى مرسى الجمارك حسبونا عربًا ، فتعين علينا الانتظار طويلاً ، لكننا أحضرنا جمَّالين فى نهاية المطاف ، وسرنا على شكل موكب خلال الشوارع قاصدين المفوضية البريطانية . وعندما وصلنا إلى باب المفوضية منعنا الحراس المهندمين ، فى زى جميل من الاقتراب من الباب ، مستخدمين فى ذلك بنادقهم . رفض الحراس تصديق أن هؤلاء المتشردين، الذين أحرقتهم الشمس ، والذين يعانون من قلة النوم ومن النوم أيضًا على الأرض ، من الإنجليز أو أناس أمناء من أى جنس آخر .

الملاحق

الملحق رقم ١

ملاحظات على الجغرافيا الطبيعية لشمال الجزيرة العربية

توصف الجزيرة العربية فيما بين خط عرض ٨٤ْ وخط العرض ٢٩ْ، بشكل عام بأنها سهل من حصى الحجر الرملى ، أو إن شئت فقل الزلط ، هذا السهل المنبسط لا تكسره أية سلسلة كبيرة من التلال، أو أى ممر من الممرات المائية المستمرة ، وذلك باستثناء وادى الحوران ، الذى يعبر الجزيرة العربية فى أقصى شمالها ، ويشكل فى فصول المطر سلسلة متتالية من البرك بدءًا من الحرة شرقى جبل حوران ، إلى نهر الفرات . هذا السهل الحجرى يعرفه البدو باسم " الحمد " أو إن شئت فقل " السهل " . وعلى الرغم من خلو القسم الأكبر ! ذلك السهل من المراعى التى تعتمد على الرى ، أو المياه الجارية فوق سطح الأرض ، فإن هناك بعض المناطق فى هذا السهل ، عامرة بالمراعى الأمر الذى يجعل منها مناطق شتوية خاصة . وادى حوران سالف الذكر هو واحد من هذه المناطق ، وهو يعد مقامًا وملاذًا لعنَزَة البِشْر ، وهناك أيضًا وادى الروثى ، الذى يعد مقامًا للظافر Daffir والشَّمَّر . هناك قلة قليلة من الأبيار على امتداد بعض الطرق القديمة ، التى تعبر الحمد من نقاط مختلفة على نهر الفرات ، وهذه الأبيار تشكل مراكز جذب للقبائل . ولكن المناطق المجاورة لتلك الأبيار قاحلة وجرداء ، إذ يجرى رعى تلك المناطق رعيًا جائرًا منذ قرون من الزمن . الطرق التى من هذا القبيل تربط قرية كاف بقرية شدادى ، كما تربط أيضًا مسكاكة بسوق الشيوخ ، كما تربط أيضًا بلدة الجوف ببلدة معان ، لكن طريق الحج الذى يمتد من مشهد على إلى جبل شمر ، الذى يطلق الناس عليه اسم طريق زبيدة هو الطريق المعروف ، كما أنه

الطريق الوحيد المزود تزويداً جيداً بالماء . طريق الحج هذا عليه أبيار وأسبلة أمرت ببنائها في القرن التاسع الميلادي أرملة هارون الرشيد ، وبعض الخانات لراحة الحجاج ، وما تزال أنقاض هذه الأبيار والأسبلة موجودة إلى يومنا هذا .

الحمد ، أو بالأحرى السهل يبدأ من مستوى نهر الفرات ويأخذ في الارتفاع السريع إلى مسافة أميال قليلة ، خلال منطقة تقسمها الوديان الصغيرة إلى حد بعيد إلى أن يصبح هضبة عالية ، تبدأ من هذه المنطقة في الانحدار التدريجي المنتظم في اتجاه الغرب والجنوب بمعدل يتردد بين ٨ أقدام و ١٠ أقدام في الميل الواحد . ومع ذلك يبدو أن صرف هذا السهل ، أو بالأحرى تصريف مياهه ، لا يكون في اتجاه النهر بصورة مستمرة ؛ لكن هذا الصرف ينتهي إلى تجاويف رملية تعرف باسم بطن الجوف أو إن شئت فقل البقعة ، والمعروف أن " البطن " و " البقعة " كلمتان عربيتان ، والمرجح أن هذه البطن أو البقعة كانتا في الماضي بحيرات أو بحار داخلية صغيرة . هذه البطن أو البقة لم تعد في هذه الأيام تحتفظ بماء فوق سطح الأرض ، لكن على عمق أقدام قليلة تحت سطح الأرض ، ويمكن العثور على ذلك الماء على شكل أبيار . والبطن التي على طريق الحج هي واحدة من هذا القبيل ، والمعروف أن وادي الروثة ينتهي في هذه البطن ، وفي واحتي الطيبية وجبّة في الجنوب ، وواحة تيماء على حد علمي في الغرب ؛ لكن أشهر هذه البطون على الإطلاق وبلا منازع هو ما يسمى بوادي وجوف السِّرحان.

وادي السرحان ينصِّف شمالي الجزيرة العربية على شكل خط موازٍ لنهر الفرات وموازٍ أيضاً لخطوط ساحل شبه الجزيرة العربية ، هذا يعني أن وادي السرحان يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي . إلى الشرق وإلى الشمال مباشرة من وادي السرحان نجد أن الحمد (السهل) يصل إلى أقصى ارتفاع له هو ٢٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ؛ كما نجد أن الصخور التي تحد السهل من ناحية الشرق والشمال هي عبارة عن قمم صخرية مفاجئة ، تتماثل في رأيي مع التشكيل العام للسهل . هذا التشكيل الصخري يتكون من سلسلة من الرفوف الموضوعة الواحد فوق الآخر ، بحيث تكون حوافها مواجهة للانحدار العام ؛ هذا التشكيل الصخري يظهر

بصورة واضحة جداً فى طريق الحج ؛ والمسافر من نجد سالكاً طريق الحج ، على الرغم من أنه يصعد فى واقع الأمر بمعدل عام يزيد على ثمانى أقدام فى الميل ، فإنه يتخيل نفسه على طريق صاعد ، بسبب تكرار العقبات ، أو إن شئت فقل : القمم الصخرية المتحدرة التى يتعين عليه تسلقها . وأنا أميل إلى الاعتقاد أن وادى السرحان هو والجوف يتلقيان الصرف من ناحية الغرب بصفة أساسية ، كما أميل إلى الاعتقاد أيضاً بأن هناك مستجمع مياه كبيراً ثانياً لهذا السهل فى المنطقة البركانية ، التى يرى كارلو جوار مانى ' أنها مستمرة فى سلسلة جبال الحوران جنوباً إلى تبوك . شرقى وادى السرحان هالنى غياب الوديان الفرعية الكبيرة التى تكون من قبيل الوديان التى يتوقع الإنسان وجودها إذا ما كانت منطقة الصرف واحدة من المناطق الكبيرة . ومع ذلك ، فإن وادى السرحان، يوم أن كان بحراً داخلياً ، لابد أنه كان يتلقى إسهامات من جميع الجوانب . ذلك أن وادى السرحان فى موقعة يشبه غديراً يقع بين مستجمعين مائيين فى السهل ، وربما كان الماء يصله من جبل أجا فى الجنوب ، مثلما تصل إليه إمدادات المياه من جبل حوران فى الشمال . المستوى العام لوادى السرحان ينخفض بحوالى ٥٠ قدماً عن مستوى السهل المجاور له من ناحية الشرق ، فى حين يبدأ السهل فى الارتفاع من جديد كلما اتجهنا غرباً .

فى كل الأحوال ، هناك شىء واضح ، هو على وجه التحديد أن وادى السرحان كان ولا يزال مستودعاً رئيسياً من مستودعات السهل ، وهو يتماثل تماماً مع جاره البحر الميت الذى لا يزال موجوداً إلى يومنا هذا ، فى حين نجد أن وادى الرَّاجل الذى يدخل إلى وادى السرحان من ناحية الشمال هو الذى يجعل موقع الأردن مائلاً نحو وادى السرحان . الماء فى سائر أنحاء وادى السرحان يوجد على عمق موحد هو ١٨٥٠ قدماً ؛ وهذه القاعدة تنطبق على ذلك الجزء من وادى السرحان الذى يعرف باسم الجوف كما تنطبق أيضاً على بقية الوادى فيما بعد الجوف . يزاد على ذلك أن وفرة الماء الذى يجرى الحصول عليه من أبيار وادى السرحان فى مساحة تمتد إلى حوالى ثلاثمائة ميل من الحدود السورية ، وحوالى ٢٠٠ ميل نحو الداخل من حدود

نجد ، يبرز وادى السرحان على أنه الطريق الطبيعى المطروق فى شمالى الجزيرة العربية ، وهذا هو حال هذا الطريق منذ قديم الأزل . المرجح أن الجزيرة العربية يوم أن كانت كثيفة السكان عما هى عليه حالياً ، كان فيها قرى على مسافات فيما بين إزرق والجوف . فى الوقت الحالى لا يوجد من هذه القرى سوى الأبيار ، باستثناء واحتى كاف وعزرى ، اللتين جرت المحافظة عليهما بفضل البحيرتين المالحتين اللتين تمدان هاتين القريتين بشكل من أشكال التجارة . هاتان القريتان ليستا سوى مكانين بسيطين ، وعدد سكانهما لا يزيد بأى حال من الأحوال عن مائتى نسمة .

الجوف ومسكاكة لا تزالان بلدين منتعشتين ، لكنى لدى من الأسباب ما يجعلنى أقول إن السيد بالجريف بالغ فى عدد سكان هذين البلدين . وأنا لا يمكن أن أقدر إجمالى عدد منازل الجوف بأكثر من ٥٠٠ منزل ، ومنازل مسكاكة بأكثر من ٦٠٠ منزل ، فى حين أقدر عدد منازل قرية قرة بحوالى ١٠٠ منزل ومعها بقية الهجر (الكفور) الأخرى التى فى واحة الجوف . هذا يعطينا إحصاءً مقداره ٨٠٠٠ نسمة ، فى حين قدر السيد بالجريف عدد هؤلاء السكان بحوالى ٤٠٠٠٠ نسمة . ومع ذلك ، أنا لا أدعى الدقة التامة فى هذا التقدير .

فيما يتصل بجيولوجيا الحمد ، والمناطق المجاورة لشمالى النفود ، أرى أن الحجر الرملى هو العنصر السائد فى هذه المنطقة كلها . واقع الأمر ، أن أقصى الشمال العنصر السائد فيه هو الحجر الجيرى ؛ وإذا ما استثنينا منطقة وحيدة تبعد عن جنوب مشهد على حوالى مائة ميل ، نجد أن طريق الحج لا يمر بعد ذلك على أية صخور جيرية حقيقية . القمم الصخرية التى تشكل الحد الشرقى لوادى السرحان ، هى فى رأيى ، كلها من الحجر الرملى ، وبخاصة جنوبى جبل مزمة ، وهذا ينطبق أيضاً على تلال الجوف ومسكاكة ، وعلى صخور العالم وجبة ، كما ينطبق أيضاً على القمم البعيدة كلها وسلاسل جبال الشمال الغربى من حائل . هذه القمم الصخرية وهذه السلاسل الجبلية سبق أن قلنا إنها من البازلت أو إن شئت فقل : الجرانيت غامق اللون ، وهى على الرغم من تنوعها وتباينها تكون سوداء اللون فى كثير من الأحيان .

الشكل الخاص للحجر الرملى الذى يحتوى على الحديد ، يكون لونه معتمًا أو غامقًا بفعل الطقس ، وما لم يجر فحصه فحصًا دقيقًا ، فإن شكله يبدو كما لو كان رملاً بركانيًا . ومع ذلك ، أنا لا أعتقد أننا يمكن أن نصادف أحجار حوران البركانية جنوبى خط العرض ٣١ْ ؛ اللهم إلا إذا كان ذلك فى الناحية الغربية من وادى السرحان . جبل مزمة ، على سبيل المثال ، أعلى نقطة فيه من ناحية الشرق ، هى الوحيدة التى من الصخر البازلتى. أما منطقة الجوف بالكامل ، فقد ذكرتنى بتكوين الحجر الرملى السيناوى سواء أكان ذلك فى الإطار الخارجى الغريب لصخورها التى غالبًا ما تكون على شكل عيش الغراب ، أم فى لون هذه الصخور التى نجد منها اللون الوردى ، والبنفسجى ، والأحمر الغامق ، والبرتقالى ، والأبيض ، بل والأزرق و الأخضر، وأشد هذه الصخور صلابة هو الصخر المعرض للطقس الذى يكون أسود اللون . وأنا أؤكد أن الصخور البازلتية لا وجود لها على الطريق الذى يربط الجوف بحبل أجا . وأنا لست متأكدة من جبل مزمة ، نظرًا لأنى لم ألمس صخور هذا الجبل ، لكن إن ثبت أن أحجار هذا الجبل من النوع البركانى ، فذلك يعنى أن جبل مزمة هو أقصى حدود الحرّة من ناحية الجنوب . وأما تلال قرية كاف ، فأنا على يقين أنها من البازلت وقد تأكدت من ذلك أثناء مرورى على هذه التلال . لكنى لم يخطر ببالى أن أكون قد أخطأت . عمومًا ، أنا أرجح أن يكون خط العرض ٣١ْ هو حد المنطقة البركانية الموجودة فى شمال وادى السرحان .

حوض وادى السرحان مكون أصلاً من الرمل ، على الرغم من وجود بعض الرسوبيات الصلصالية الكافية لتكوين السبخات ، أو البحيرات المالحة ، وبخاصة فى كل من كاف وعزرى وعلى بعد مسير ثلاثة أيام شرق – جنوب – شرق عزرى ، سمعت عن وجود الرمال المتحركة ، لكنى لم أعبر أية أرض فيها مياه فى هذه المنطقة . رمل وادى السرحان ، شأنه شأن رمال التجاويف كلها ، سواء أكانت فى الحمد أم فى شمالى نجد ، هى رمال بيضاء ، لكن فيها ما يميزها عن الرمال الأخرى العادية التى على شاطىء البحر أو فى برزخ السويس . هذا الرمل الأبيض أقل خصوبة من الرمل

الأحمر الذى فى النفود ، كما يسهل تأثير الرياح على هذه الرمال البيضاء . الغاضة تنمو فى الرمال النقية وقد لاحظت ذلك فى المنطقة كلها لحد قرية كاف . فى بعض أجزاء الوادى التى تحتوى على الماء فى مواسم الأمطار ، يكثر وجود ملح البارود على سطح الأرض ، وهنا نعد الحياة النباتية غزيرة النمو لكنها قليلة الفائدة ولا تصلح أن ترعاها الماشية . الرمل الأبيض النقى لا ينمو فيه شىء سوى أشجار الغاضة . وادى السرحان هو المكان الذى يقيم فيه بدو الشرارات فى فصل الصيف .

الحرة عبارة عن إقليم مرتفع من الكتل البركانية سوداء اللون الشهيرة على نحو لا تستحق معه الوصف . هذه الحرة تبدأ من خط عرض دمشق وتمتد من سفح تلال حوران فى اتجاه الشرق لمسافة تقدر بحوالى خمسين ميلاً ، وبعدها يبدأ سهل الحمد . هذه الحرة تمتد فى اتجاه الجنوب إلى أن تصل إلى قرية كاف مكونة بذلك مستجمع مياه السهل شرقى وادى السرحان . واستناداً إلى كارلوجوارمانى ، تمتد الحرة من جديد غربى الوادى ، إلى أن تصل إلى الجنوب فى قرية تبوك . يبدو أن مستجمع المياه الشرقى فى الحرة ، هو وجبل حوران هما اللذان يغذيان وادى الراجل ، وادى الراجل هذا عبارة عن حوض يحتوى على ماء جارٍ فى بعض الأحيان ، وعلى المنحدر المقابل نجد وادى حوران الذى يصل إلى نهر الفرات . الحرة فيها الماء أوفر وأغزر من الماء فى الحمد ، ويذيع صيت خصوبة الحرة فى المناطق التى لا تغطيها كتل الصخر .

النفود إلى الشمال قليلاً من خط عرض ٢٩ْ ، نجد أن الحمد فى هذه المنطقة عبارة عن سهل قاحل من الزلط الذى تتخلله بين الحين والآخر بعض التجاويف التى هى عبارة عن أحواض لبحار قديمة ، ثم تبدأ النفود بعد ذلك فى التحول فجأة إلى سلاسل عالية من الجبال المكونة من الرمل الأحمر النقى . تحول النفود هذا من سهل صلب ناعم إلى سلسلة من الكثبان الرملية المكسرة أمر يثير الدهشة والعجب . الأرض ترتفع فجأة عن مستوى السهل وبدون تدرج من أى نوع كان ؛ ومن السهل تبين عدم تغير السهل فى واقع الأمر، وإنما يجرى ستره عن الأعين بواسطة كتلة علوية . حافة النفود شديدة التحديد إلى حد أننا لن نبالغ إذا قلنا إن الإنسان بوسعه أن يقف وقدمه

على الحمد والقدم الأخرى على النفود ؛ يزاد على ذلك أن الحدود الخارجية للنفود خالية من التعاريج. حد الرمال يمتد على مئات الأميال شبه مستوٍ تماماً من الشرق إلى الغرب ؛ النفود فى هاتين النقطتين فقط تصبح مكسرة وكثيرة التعاريج . هذا ، فى رأيى ، هو الحال ؛ وإذا كانت الرمال المتراكمة قد تشكلت بواسطة الرياح الشرقية السائدة فى هذه المنطقة ، فذلك يقلل من غرابة هذه الظاهرة على الفكر .

تمتد صحراء النفود الكبرى فى شمالى الجزيرة العربية من أبيار لينا فى الشرق إلى تيماء فى الغرب ، ومن حافة حوض الجوف فى الشمال إلى سفح جبل أجا فى الجنوب . النفود يصل عرضها فى جزء من أجزائها إلى حوالى ١٥٠ ميلاً ، ويصل طولها فى أقصى أجزائها إلى حوالى ٤٠٠ ميل ، لكن هذا الامتداد كله ليس عبارة عن رمال . أقصى الجزء الشرقى (وربما أيضًا أقصى الجزء الغربى) من النفود عبارة عن سلسلة من الأشرطة أو القطع الطويلة، التى يتراوح عرض الشريط أو القطعة الواحدة منها بين نصف الميل والميلين ، وتمتد موازية لبعضها البعض وتفصلها عن بعضها البعض شرائط مُتَخَلِّلة من السهل الصلب . يزاد على ذلك أن عمق الرمل ليس واحداً فى سائر الأنحاء ؛ أضف إلى ذلك أن النفود المتقطعة تعد ضحلة إلى حد ما ، ويبدو أن هناك تناسباً محدداً بين عمق هذه الأشرطة وعرضها . من هنا نجد أن أعلى سلسلة من سلاسل الجبال الرملية التى يعبرها طريق الحج لا يزيد عرضها على ثمانين قدمًا ، فى حين نجد أن عرض الشرائط الأخرى يتردد بين خمسين وعشرين قدمًا . النفود الطويلة الموجودة على الجانب الآخر ، فيما بين الجوف وحائل لا يقل عمقها عن مائتى قدم . هذه السلاسل الجبلية المتقطعة ربما توحى بتفسير مفاده أن هذا هو التكوين الأصلى لهذه الكتلة . يبدو كما لو أن تأثير الرياح على الرمال هو الذى حولها إلى خطوط ، وأن هذه الخطوط عندما راحت تكبر وتزداد عمقًا بدأت تملأ الفرغات التى بين هذه الخطوط ، الأمر الذى جعلها تجعل من نفسها كتلة مستمرة عند نهاية جوانبها المحجوبة عن هبوب الريح . إذا ما صح ذلك ، فإن السلاسل الجبلية المُتَخلَلة توضح اتجاه تقدم الكتلة الصلبة ، وهو الاتجاه المعاكس لهبوب الرياح . وأنا هنا يتعين

على ترك ذلك الاستنتاج إلى فطنة الأشخاص الأكفاء، بدلاً من أن أقوم به أنا بنفسى ، وأنا هنا أكتفى بتسجيل هذه الحقيقة .

رمل النفود الأحمر قوامه مختلف عن قوام الرمل الأبيض فى الصحراء ويبدو أن هذا الرمل الأحمر يخضع لقوانينه الميكانيكية الخاصة به . الرمل الأحمر أكثر خشونة من الرمل الأبيض ، كما أنه أقل تطايراً ، وأنا أميل إلى تصديق أن الرياح العادية الخفيفة التى تؤدى إلى تباين الأسطح الرملية فى الأماكن الأخرى لا تؤثر على رمل النفود الأحمر . الريح الشديدة وحدها ، التى تصل إلى حد العاصفة ، هى التى تستطيع رفع هذا الرمل الأحمر فى الهواء . ويجب أن أقول هنا : إنه إذا كان الرمل الأبيض يوجد عادة فى التجاويف المنخفضة ، أو على الجوانب المحجوبة عن هبوب الريح فى التلال ، فإن رمل النفود الأحمر يتكوم على شكل قمة مرتفعة تظهر فى أعلى أجزاء السهل . الحمد (السهل) الذى تبدأ عنده النفود يصل ارتفاعه إلى ٢٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر . وأى رحال يرى للوهلة الأولى هذه الصحراء حمراء الرمال يسلم على الفور بتفردها . هذه الصحراء تشبه إلى حد ما الكثبان الرملية العادية فى الصحراء ، وهذا يجعلنى أشبهها وسط حقل عادى من حقول الثلج فى جبال الألب . النفود ، شأنها شأن النهر الجليدى ، لها قانون خاص بها ، قانون خاص بتزايدها ، وبحركتها ، وأيضًا بحياتها . ومن يعبر النفود يجد نفسه مشدوداً إلى معرفة هذه القوانين ، كما يجد نفسه مشدوداً أيضًا إلى تعرف هذا الكائن المتكامل .

أشهر ظاهرات النفود هى ظاهرة الخطوط الطويلة التى على شكل حدوة الحصان، وهى عبارة عن تجاويف يسميها الناس هنا " أفلاج " ، وهى تتناثر على سطح النفود ؛ هذه الأفلاج يمكن ملاحظتها فى الأماكن التى يتردد فيها عمق الرمل بين ٨٠ و ١٠٠ قدم ، لكن يندر وجود مثل هذه الأفلاج فى الأجزاء المتقطعة من النفود؛ ومن الواضح أيضًا أن الجزء الأوسط تماماً ، الذى يفترض أن يصل عمق الرمال فيه إلى أبعد حد ممكن ، تكون هذه الأفلاج فيه أقل عمقًا عنها فى الحواف الشمالية والحواف الجنوبية ، فى حين نجد أن خطوط هذه الأفلاج تصبح أكثر انتظامًا . واقع

الأمر ، أن الأفلاج الكبيرة ، لا توجد على جانبى صخور العَالِم، ولمسافة بضعة أميال ، والمعروف أن صخرة العَالِم تمثل وسط صحراء النفود ؛ لكن الملاحظ أيضًا أن خيوط

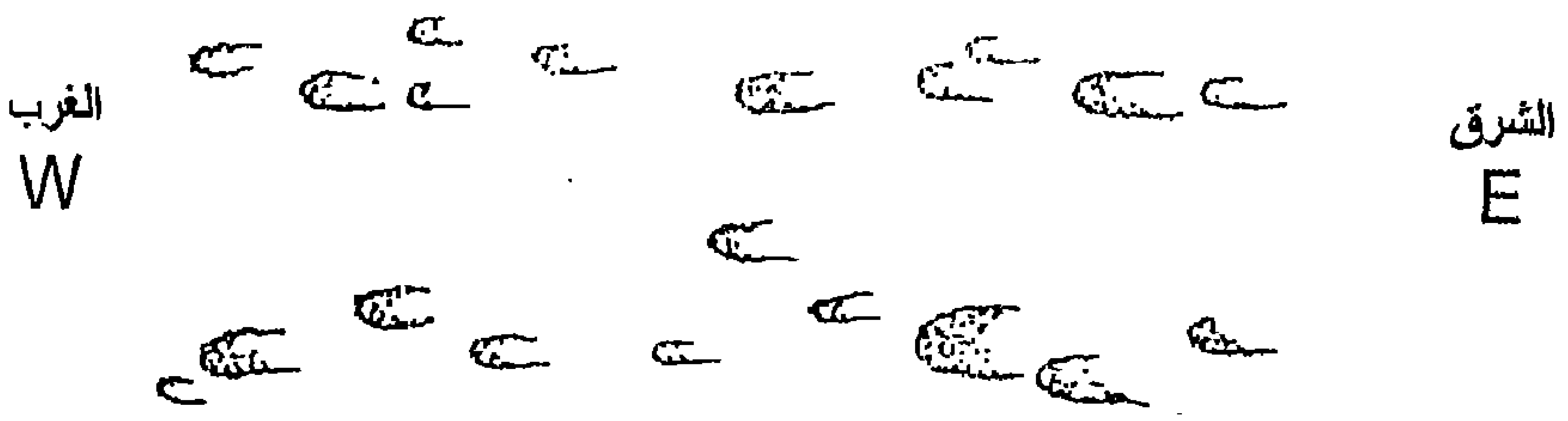

هذه الأفلاج تبلغ من الانتظام حدًا ، يجعلها تشكل ، مع الفراغات المُتخلِّلة ، نوعًا من الحافة الضحلة مستطيلة الشكل تمتد من الشرق إلى الغرب ، وتشبه إلى حد بعيد جداً تلك الأخاديد التى تتشكل منها المروج فى كثير من الأحيان فى بريطانيا . وقد ظهر هذا التشكيل بشكل واضح لمن يقفْ على قمة صخرة العالم .

الأفلاج بحد ذاتها لها كلها شكل واحد ، على الرغم من تباين أحجامها . هذه الأفلاج تمثل إلى حد بعيد آثار أقدام الخيول على نطاق واسع ؛ هذا يعنى أن الفلج عبارة عن نصف دائرة ، عميقة عند الطرف المنحنى ، أو إن شئت فقل: الإصبع الكبير، ويرتفع الفلج إلى مستوى السهل عند الطرف المربع أو الكعب . جوانب هذا الكعب تكون شديدة الانحدار حسب طبيعة الرمل ، وهذه الجوانب تنتهى بصورة مفاجئة فى المنطقة التى تلتقى فيها بأرض الفلج . أرض الفلج ، تنحدر نحو الأسفل فى اتجاه الإصبع الكبير بزاوية مقدارها حوالى ٧٠ ، وتخترقها مجارٍ مائية تلتقى فى المركز ، مشكلة بذلك ما يشبه الضفدعة ، الأمر الذى يجعل التجويف يبدو بالشكل الذى هو عليه فى مخطط مطبوع الكليشهات الخشبية أ ؛ فى حين إذا ما أحدثنا فى الفلج قطاعاً فإنه يبدو بالشكل الذى هو عليه فى مخطط مطبوع الكليشهات الخشبية ب . من هنا يتحتم عند دخول أى فلج من هذه الأفلاج على ظهور الخيل ، أو بصحبة الإبل ، أن يكون ذلك الدخول من ناحية الشرق ؛ أما من يدخل تلك الأفلاج سيراً على الأقدام فقد ينزلق

أسفل الرمل فى أية نقطة من النقاط . وقد لاحظت أن الناحية الغربية من كل ـج من هذه الأفلاج فيها جبل عالٍ من الرمل ؛ وأن هذا الجبل يزيد من العمق الظاهرى لتلك الأفلاج ، كما يزيد أيضًا من الوهم بأن هذه الأفلاج إنما هى اصطناعية فى أساسها ، أى أن الرمل يبدو كأنه جرى إخراجه بواسطة أو عن طريق الحفَّارين .

حجم وعمق الأفلاج يتباين تباينًا كبيرًا ؛ بعض هذه الأعماق تبدو ، كما لو كانت أعماقًا تقليدية ، فى حين تصل أعماق البعض الآخر من هذه الأفلاج إلى عمق مائتى قدم أو أكثر . وصل أعمق تلك الأفلاج إلى حوالى ٢٠٠ قدم ، وقد قست هذا العمق بنفسى ، بما فى ذلك التل الرملى ، الذى ربما يصل ارتفاعه إلى حوالى ٦٠ قدمًا فوق مستوى سطح السهل ؛ ويصل عرض هذا الفلج إلى حوالى ربع الميل تقريبًا . يمكن الوصول فى قيعان هذه الأفلاج العميقة إلى الأرض الصلبة ، وفى تلك القيعان توجد عادة بعض الرسوبيات الحجرية ، من قبيل تلك الرسوبيات التى سبق أن لاحظتها فى الأماكن الرملية التى استقرت عليها المياه . هذا الفراغ لا يزيد قطره بأى حال من الأحوال على خطوات قليلة . وقد سمعت ، لكنى لم أر ، عن وجود بئر فى فلج من تلك الأفلاج. أبيار الشقيق ليست فى فلج من هذه الأفلاج؛ لكنها فى وادٍ خالٍ من الرمل ، أما أبيار جُبَّة فهى فى حوض دائرى ينخفض عن مستوى النفود بحوالى ٤٠٠ قدم . الأفلاج ، كما سبق أن قلت، تمتد على شكل خيوط غير منتظمة من الشرق إلى الغرب ، متفقة فى ذلك مع اتجاه كل فلج من تلك الأفلاج(*) . هذه الأفلاج توجد بصورة غير منتظمة فى المنطقة المحيطة بصخرة العالم ، لكن أحجام هذه الأفلاج فى هذه المنطقة أقل منها فى شمالى صخرة العالم أو فى جنوبها . يبدو أن شكل الأفلاج لا يتأثر بالأرض الصلبة الموجودة أسفل هذه الأفلاج ، وسبب ذلك أن صخور الغوطه يوجد فيه فلج كبير تخترقه الصخور ، لكنه لا يزال محتفظًا بشكله شبه الدائرى .

(*) من الصعوبة بمكان تحديد الاتجاه الدقيق لتلك الخيوط ، تحديدًا دقيقًا ؛ وربما كان الأقرب إلى الصحة هو أن هذه الخيوط تتجه من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشمال .

مخطط مطبوع الكليشهات الخشبية

A أ

مخطط مطبوع الكليشهات الخشبية

خصائص صحراء النفود الطبيعية سواء أكانت سلاسل جبلية، أم جبالاً أو أفلاجاً، يبدو أنها خصائص دائمة وثابتة . الرمل الأحمر الذى تتكون منه هذه الخصائص أقل تطايراً من سلاسل الجبال المكونة من الرمال العادية فى الصحراء ، يضاف إلى ذلك أن هذا الرمل الأحمر لا يتأثر بالرياح ولكن يستثنى من ذلك الرمل الموجود على قمم الجبال والسلاسل الجبلية . هذا الرمل الأحمر موجود فى كل مكان من النفود فيما عدا الأماكن التى تتأثر فيها أشجار الآراك ، وأشجار الغاضة (الطرفاء) وأدغال الحشائش . أجناب الأفلاج بصفة خاصة تغطيها الأشجار التى من هذا القبيل ، ولم يكن بالوسع بقاء الحال على ما هو عليه لو أن هذه الأجناب معرضه للتغير بسبب تغيير الرياح . لاحظت فى النفود فيما بين جبة وعجنة وجود مدقات (طرق) عليها آثار أقدام الأغنام ، وأن هذه المدقات تصعد منحدرات الأفلاج بطريقة حلزونية وقد أكد الناس لى أن هذه المدقات حديثة العهد . يزاد على ذلك ، أن الطريق المسوًى ، الذى يقول الموروث إنه من صنع أبى زيد ، ما يزال أثره باقياً وواضحاً فى الأماكن التى جرت فيها بعض

أحداث هذه السيرة ، يزاد على ذلك أن العصى والأحجار التى خلفها الرحالة والمسافرون فى النفود ، وكذلك عظام الإبل ، بل وفضلات الإبل ، كل ذلك يبقى طوال سنوات بلا غطاء ، يزاد على ذلك أن أولئك الذين يعبرون النفود يتمكنون من ذلك العبور بفضل معرفة العلامات الأرضية التى من هذا القبيل . وأنا هنا أوثر القول بأن النفود تحتل حالة من حالات الارتياح النسبى فى الطبيعة . وهذا يرجع إلى أن الرياح السائدة التى كوَّرت تلك النفود ربما أصبحت الآن أضعف مما كانت عليه من قبل ، أو قد تكون تلك الأفلاج راجعة إلى أسباب استثنائية لم تحدث منذ سنوات كثيرة . مسألة أن ريحًا من شكل معين ، وفى زمن معين كانت هى السبب وراء تشكيل هذه النفود ، أمر لا يرقى إليه الشك ، لكن الطريقة التى حدث بها ذلك التشكيل أمر لا يمكننى القطع به أو تحديده . هذا هو السيد بلاندفورد Blandford ، الذى يعد حجة فى هذه الأمور ، يقول : إن الأفلاج عبارة عن فراغات غير مملوءة بالرمل ؛ وإذا ما كان الأمر كذلك ، فإن خيوط الأفلاج قد تكون فى واقع الأمر علامة على موقع هذه الخيوط ، أو إن شئت فقل الشرائط التى يجدها الإنسان فى الأجزاء غير المتصلة من النفود . والمعروف أنه كلما ضاقت الفراغات التى بين السلاسل الجبلية الرملية ، فإن الريح التى تنحصر فى الفراغات بين هذه السلاسل الجبلية تكتسب حركة دائرية هى التى تصنع الجسور الرملية التى ترتبط بين هذه الفراغات ، الأمر الذى يؤدى إلى ملء هذه الفراغات فيما عدا هذه الأفلاج . ولكنى لا أجد نفسى مقتنعة بتلك النظريات . ترى ما هو السبب وراء بقاء قيعان تلك الأفلاج عارية ؛ وهذه الأرضيات تبدو صغيرة إلى الحد الذى يمكن معه لعاصفه واحدة أن تمحوها ، أو حتى إلى التسرب التدريجى من المنحدرات الرملية إلى هذه الأرضيات ؟ . أنا أرى أن هناك سببًا دائمًا وراء بقاء هذه الأرضيات عارية . ومع ذلك ، أين هو السبب الحالى الذى يعمل عمله فى تكويم هذه الجدران أو حفر الحفر التى من هذا القبيل ؟ .

الظاهرة الغريبة الأخرى من ظاهرات النفود هى خاصة بالأماكن التى من قبيل منطقة جُبَّة فى وسط النفود ، وبدون أى سبب ظاهر نجد أن الرمل يُدفع إلى الأعلى

وناحية الأسفل على الأجناب كلها قادماً من سهل مركزى منخفض من الأرض الجرداء يمتد إلى مسافة ثلاثة أو أربعة أميال . فى الشمال ، والجنوب ، والشرق ، وفى الغرب أيضًا نجد أن الرمل يرتفع حول النفود على شكل جبال يتردد ارتفاعها بين ٤٠٠ و٥٠٠ قدم ، لكن السهل نفسه قاحل مثل جُرْن من الأجران . وهنا يبدو الأمر كأن هذا الرمل الأحمر لا يمكن أن يستقر فى تجويف من التجاويف ، وأن حقيقة انخفاض مستوى جبة هو الذى أبقى على حرية ذلك الرمل فى التنقل . وأنا أرى أن جُبّة إذا ما جرى إخلاؤها من الرمل، تناظر من حيث السطح كلاً من الجوف أو الطيبية بلا أدنى شك. هذا يعنى أن جبة يمكن أن تبدو كما لو كانت حوضًا جرى حفره فى السهل ، أو بالأحرى خزانًا قديماً تنصرف إليه الحياة القادمة من جبل أجاع . ترى هل جرى تطويق هذا الخزان بالرمال فى السنوات الأخيرة فقط ؟

جبل الشمّر إلى الشمال قليلاً من خط عرض ٢٠°، نجد أن النفود تتوقف فجأة مثلما بدأت . ويبدأ السهل الحجرى فى الظهور مرة ثانية بلا أى تغيير من الناحية الجيولوجية ، لكن السهل يبدو أكثر تكسيراً بسبب قربه من سلسلة من التلال المرتفعة ، هى ما يسميه الناس هنا جبل أجا . فيما بين سلسلة التلال هذه والرمال ، توجد مسافة لا يقل عرضها عن خمسة أميال تتكون تربتها من الحجر الرملى ، أحمر اللون فى معظمه ، وهو عبارة عن المادة التى يتكون منها رمل النفود ، لكن هذا الرمل الأحمر يختلط بنوع آخر من الرمل أكثر خشونة انجرف من سلسلة الجبال الجرانيتية إلى الأسفل، حيث السهل. هذا السهل يأخذ فى الارتفاع السريع فى اتجاه سفوح الجبال . عند سفوح هذه الجبال وبلا سابق إنذار ، نصادف بصورة واضحة لا تخطئها العين مجموعة من الصخور الجرانيتيه حمراء اللون على شكل كتل مستديرة ضخمة تبرز من وسط السهل ، ويصل ارتفاعها إلى حوالى ١٠٠٠ و ١٥٠٠ قدم . شكل هذه الصخور رائع ، حيث نجد جلموداً فوق آخر على شكل ذُرى هائلة مخروطية الشكل ؛ وقد لاحظت أن كثيراً من هذه القمم المخروطية كانت تخترقها هذه الثقوب المستديرة التى نجدها فى صخور الجرانيت . قوام الصخور فى جبل الشمر خشن ، وشبيه تماماً

بقوام صخور جبل موسى فى شبه جزيرة سيناء ، وهذا هو أيضًا حال الحياة النباتية الضئيلة جدًا التى تغطى الوديان . يوجد فى هذا الجبل أيضًا أشجار السنط نفسها التى تنمو فى جبل موسى ، كما يوجد فيه أيضًا النخيل البرى ، وكذلك نبات الكَبَر(*)، كما سمعت أيضًا أن الحيوانات التى تعيش فى التلال هى الحيوانات نفسها التى فى جبل موسى فى شبه جزيرة سيناء .

سلسلة جبل أجا ، هذه السلسلة لها اتجاه رئيسى واحد إذ إنها تتجه من الشرق إلى الشمال ومن الغرب إلى الجنوب . وأنا مقتنعة بذلك من واقع الملاحظات التى استطعت تدوينها عندما اقتربت من هذه السلسلة من الناحية الشمالية الغربية . كان الطقس صحواً ، ولذلك تمكنت من رؤية قمم هذه السلسلة ممتدة إلى مسافة أميال كثيرة فى الاتجاه سالف الذكر . وفيما يتعلق بطول هذه السلسلة ، فأنا أعتمد على الروايات التى سمعتها ، التى تقدر طول هذه السلسلة من الجبال بحوالى ١٠٠ ميل ، وتقدر عرضها بما يتردد بين ١٠ و١٥ ميلاً . وأنا هنا أختلف مع الجغرافيين الألمان ، الذين يقولون : إن جبل أجا يتجه من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ، وذلك اعتماداً على ما جاء به والين Wallin . ونظراً أيضًا لأن الجغرافيين الألمان يضعون حائل على المنحدر الجنوبى للتلال ، وهذا خطأ كبير ، فأنا لا أعول كثيراً على ذلك التداخل ، أو الفارق .

جبل سلمان ، كلامى عن هذا الجبل سيكون مستنداً إلى الفكرة البعيدة التى لدىَّ عن هذا الجبل ، ولكنى أندهش إذا ما عرفت أن أى جزء من جبل سلمان يمر بخط عرض حائل . هذا الجزء من ذلك الجبل الذى يمكن رؤيته بصورة واضحة من حائل يقع بالقطع فى الناحية الجنوبية الشرقية ، وعلى بعد مسافة تقدر بحوالى ٨٠ ميلاً ، دون وجود أى دليل على تواصل امتداد ذلك الجبل ناحية الغرب . جبل سلمان مكون ، إلى حد كبير ، من الصخر نفسه الذى يتكون منه جبل أجا ، وهو الجرانيت الأحمر .

(*) نبات الكبر بفتح الكاف وفتح الباء ويصح فيه أيضًا " القبّار " نبات يستخدم فى عمل المخللات . (المترجم)

تقع فيما بين جبل سلمان وصحراء النفود تلال متعددة ومنعزلة ترتفع من الأرض المكسرة . هذه التلال كلها مكونة من الحجر الرملي الذى يتكون منه الحمد، ولا علاقة لهذه التلال بكل من جبل أجا أو جبل سلمان . والجبال التى من هذا القبيل هى جبل جلدية ، وجبل ياتوب ، وجبل جلفة ، والمعروف أن جبل جلدية هو الأطول من بين هذه الجبال وقد يصل ارتفاعه إلى حوالى ٨٨٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، أو ٨٠٠ قدم فوق مستوى حائل .

تقع حائل إلى الشرق من أقصى الركيزة الشرقية لجبل أجا ، وليس إلى الجنوب من هذه الركيزة حسبما قيل من قبل . كل من حائل وكيفر ، بل فى الواقع مدى وقرى المنطقة كلها ، تقع فى وادٍ وحيد وسيع ، تتصرف فيه مياه الصخور الجنوبية الشرقية من جبل أجا ؛ هذا الوادى يدور حول هذه الصخور من ناحية الشمال إلى أن يصل إلى النفود . يقدر ارتفاع حائل بحوالى ٣٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، أما السهل فيرتفع فى اتجاه الجنوب من خلف حائل على نحو تصعب ملاحظته أو إدراكه . وأنا أرى أن التلال المنعزلة الصغيرة القريبة من المدينة ، تنتمى فى رأيى من الناحية الجيولوجية إلى سلسلة الجبال الجرانيتية . ويبدو أن وادى الحناسى هو الذى يستقبل الصرف الرئيسى الذى يأتى من السهل فى منطقة جنوبى حائل ؛ والمعروف أن مجرى وادى الحنَّاسى شمالى ، الأمر الذى يجعل أعلى أجزاء السهل تقع بين جبل أجا وجبل سلمان ، وقد يصل ارتفاع هذا الجزء إلى حوالى ٤٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر وأنا أرى أن هذا الجزء هو أعلى أجزاء هضبة الجزيرة العربية – ويعد جبل أجا أعلى جبال هذه الهضبة ، إذ يتردد ارتفاعه بين ٥٠٠٠ و ٥٦٠٠ قدم ، – وهذه الأسباب كلها هى التى تجعلنا ندرج جبل شمر ضمن المصطلح نجد أو الأرض المرتفعة .

وأنا عند هذا الحد أجدنى فى حل من الجغرافيين ، عندما أضع حائل على بعد حوالى ٦٠ ميلاً فى أقصى الجنوب، وذلك على العكس من موقعها الحالى على خرائطنا الحديثة . ومع ذلك ، أنا أرى أنى على صواب فيما ذهبت إليه تأسيسًا على معرفتى القديمة لموقع حائل من ناحية ، واعتماداً من ناحية ثانية لا على رحلة الذهاب إلى حائل

وإنما على رحلة العودة مقاسة من مشهد على ؛ وقد أقدمت على ذلك كله إلى أن يجرى تحديد موقع حائل تحديداً علمياً دقيقاً . وقد درجت على قياس المسافات بطريقة حسابية تقريبية عن طريق عدد الخطوات والزمن أيضاً ، الأمر الذى يجعلنى أتشكك فيما ذهبت إليه فى هذا الأمر. ومع ذلك فأنا أمتنع عن التعصب لرأيى أو التركيز عليه .

كنت آمل أن أختم هذه الملاحظات بقائمة للنباتات التى فى صحراء النفود . لكن يبدو أن المجموعة الصغيرة التى جمعناها انسحقت بسبب الرحلة التى قطعتها بصحبتنا ، الأمر الذى عجز معه السيد جوزيف Joseph هوكر Hooker ، الذى تفضل بإلقاء نظرة عليها ، عن التعرف عليها اللهم باستثناء ست أنواع منها .

فيما يتصل بالحيوانات البرية ، تأكدت من وجود النعام ، والفهد ، الذئب ، والثعلب والضبع ، والأرانب البرية ، والجربوع ، والوعل الأبيض ، والغزال ، هذه هى حيوانات كلها موجودة فى النفود ؛ أما الوعل الأبيض هو والمرموط (*) فهما موجودان فى جبل أجا . النعام من بين هذه الحيوانات البرية كلها ، هو الأقيم والأندر ؛ أنا لم يحالفنى الحظ برؤية نوع برى واحد، على الرغم من إحضار بيضة طازجة لى فى مرة من المرات . وأنا لم أر ، إلا فى الأسر ، الوعل الأبيض(**) الذى يعد أهم ذوات الأربع فى النفود . هذا الوعل يتردد على كل أجزاء صحراء الرمل الأحمر ، وقد عثرت على آثار أقدام ذلك الوعل على بعد مائة ميل عن أية بئر من أبيار الماء ، الأمر الذى يجعلنا نغفر للعرب قولهم بأن الوعل الأبيض لا يشرب الماء مطلقاً . الأرانب البرية موجودة أيضاً وبأعداد كبيرة فى سائر الأنحاء ؛ لكن الغزال يؤثر الأطراف الخارجية التى تكون قريبة من التلال أو الأبيار التى يسقى العرب منها ماشيتهم وقطعانهم . الشىء نفسه يمكن أن يقال عن الذئب ، والثعلب ، والضبع التى توجد هى الأخرى بأعداد كبيرة .

(*) المرموط : جنس حيوانات قارضة من فصيلة السنجابيات . (المترجم)

(**) عن الوعل الأبيض راجع كتاب مغامرة فى شمال الجزيرة العربية وهو من تأليف دوجلس كرورز ، وترجمة وتقديم الدكتور صبرى محمد حسن ؛ والكتاب من منشورات كتاب الجمهورية الذى يصدر عن دار التحرير للطباعة والنشر، بجمهورية مصر العربية . (المترجم)

آثار أقدام هذه الحيوانات تزداد كلما اقتربنا من جبل أجا ، ويمكن القول إن تلك الحيوانات تتخذ في جبل أجا أوكاراً لها ، مستفيدة في ذلك من النفود باعتبارها منطقة من مناطق الصيد . جبل أجا ، تلك السلسلة من الجبال الجرانيتية التي لا يقل ارتفاعها عن ٥٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، هو الذي يوفر الماء الذي تحتاجه هذه الحيوانات ، وليس من الضروري أن يكون ذلك الماء في مجارٍ مائية ، إذ لا يوجد أي نوع من أنواع المجاري المائية ، في سلسلة جبل أجا ، وإنما يوجد الماء في ينابيع وخزانات طبيعية تتجمع فيها مياه المطر . يبدو أن هذه الينابيع والخزانات كثيرة العدد ؛ وإذا ما صح ذلك ، فإن الموروث القديم الذي يقول بوجود حصان برّي في النفود يصبح أمراً محتملاً منذ الوهلة الأولى . الواقع أن هناك مرعى ، بل ومرعى جيد للخيول في كل جزء من أجزاء النفود . أغنام النفود بحاجة إلى الماء ، لكن بمعدل مرة واحدة كل شهر ، وهنا يمكن القول أيضاً إن حصان النفود لم يكن يحتاج إلى الماء سوى مرة واحدة في الشهر .

تفخر النفود بوجود كل من الحيَّة المقرنة وثعبان الكوبرا ، إضافة إلى ثعبان رمادي اللون يسمونه سليمان ، الذي يشيع وجوده في سائر أنحاء صحراء النفود . كما يوجد في النفود أيضاً أعداد كبيرة من السحالي .

الطيور أقل تعداداً من الحيوانات البرية ، لكني لاحظت طيور الحباري ، كما لاحظت أيضاً صقراً أو اثنين . أما الصقر الجرّاح أو الحوّام فيوجد بأعداد كبيرة . والبدو في نجد يقومون بتدريب الصقر الحر ، وهو الصقر النبيل الوحيد لدى هؤلاء البدو ؛ هذا يعني أن البدو يدربون ذلك الصقر الحر على اصطياد الأرانب البرية والحباري . النفود تحتوي على أكثر الطيور الصحراوية شيوعاً ، من قبيل القُبَّرة الصحراوية ، والأبلق ، أو أبو بريق كما يسميه الناس ، والصّعو (*) ، الذي يعيش في أشجار الغاضة (الطرفاء) وأدغال نبات اليرتا .

(*) الصّعوة ، وقد يقال له أيضاً النمنيمة هو طائر صغير جداً . (المترجم)

فيما يتصل بالحشرات : لاحظت اليعسوب ، وأنواعًا متعددة من الخنافس ، ولاحظت أيضًا ذباب المنازل ، والنمل ، الذى يصنع جحوره من مادة جيلاتينية مخلوطة بالرمل ، ويمكن ملاحظة هذه الجحور أسفل الأدغال ، اهتممت أيضًا بمشاهدة النمل وهو يتشَمَّس على صخور العالم ، كما شاهدت أيضًا نوعًا من إناث الفراش ، الشهيرة بالمغامرة فى طيرانها . هذه الحشرة لا يمكن أن تربى مطلقًا فى أى مكان أقرب من الشام أو نهر الفرات اللذين يبعدان عن هنا ٤٠٠ و ٨٠٠ ميل . والبراغيث لا وجود لها بعد فى النفود ، ولذلك تحررت كلابنا من البراغيث بعد أن وصلنا حائل . أما الجراد فكان يوجد بأعداد كبيرة فى كل مكان ، وهو بمثابة المكون الرئيسى لغذاء الإنسان ، والحيوان والطير . والجراد هنا من لونين : جراد أحمر اللون وجراد أخضر اللون ، والجراد الأخضر هو الذكر ، على حد معرفتى ، أما الجراد الأحمر فهو الإناث والنوعان ممتازان فى الطعام ، لكن الناس هنا تفضل الجراد الأحمر .

العواصف الرملية قد تكون شائعة فى صحراء النفود عنها فى الصحارى التى يشيع فيها الرمل الأبيض ، وهذا يرجع إلى الأسباب التى سبق أن تناولتها ؛ والبدو لا يخشون تلك العواصف الرملية أو يخافونها . هذه العواصف الرملية لا خطر منها سوى تأخير الرحالة أو المسافرين عن الوصول إلى محطات وصولهم ، أو إن شئت فقل ديارهم ، عن المواعيد المحددة لذلك ، الأمر الذى يترتب عليه نفاد مؤنهم وتمويناتهم . والناس هنا لا يروون حكايات عن قوافل أو حتى أشخاص قهرتهم العواصف الرملية . أما هؤلاء الذين يموتون فى صحراء النفود فهم يموتون عطشًا . تحريت مسألة رياح السموم التى أتى بالجريف على ذكرها لكنى لم أحصل على أية معلومات عن هذه الرياح .

فى جبل أجا يوجد نوع من الوعول شاهدت له مثيلاً فى حائل ، كما شاهدت أيضًا غزالاً جبليًا ، كما سمعت أيضًا عن الفهد ، وربما كان من النوع الذى شاهدته فى سيناء . الحيوان الوحيد الذى ربما يكون جديداً علىَّ هو ذلك الحيوان الذى وصفوه

على أنه نوع من الويبر Webber ، وهو حيوان فى حجم الأرنب البرى ، يتسلق النخل البــرى ويـأكل البلح . ويصف الناس هذا النوع من الويبــر على أنه يقف على أرجله ويروح يصفِّر ، ومن وصف الناس لذلك الحيوان أرى أن يكون هو المرموط ، لكن اللورد ليلفورد Lilford ، الذى تحدثت إليه بشأن هذا الموضوع يرجح تمامًا أن هذا الحيوان هو الحيوان الذى يطلقون عليه الاسم العلمى Laphiomys Imhausii .

ولفريد سكاون بلنت

الملحق الثانى

موجز تاريخى عن قيام الوهابية وسقوطها فى الجزيرة العربية

جرى تجميع هذا الموجز من المادة المقدمة من العميد إى. سى . روس Ross الممثل المقيم لصاحبة الجلالة فى بوشهر .

فى بداية القرن الماضى ، كانت نجد والجزيرة العربية بشكل عام ، وذلك باستثناء كل من عمان ، واليمن ، والحجاز ، مقسمة إلى عدد من المناطق المستقلة ، أو إن شئت فقل البلديات ؛ وكانت كل بلدية من هذه البلديات تحت حكم شيخ قبيلى ، طبقًا لقاعدة الحكم الذاتى فى ظل الحماية البدوية ، والذى سبق توضيحه والإشارة إليه . كان أهل الحضر قد نسوا الدين ، اللهم باستثناء شكله البدائى فى الجزيرة العربية ، ولم تكن تربطهم أية روابط أو علاقات ببقية العالم الإسلامى .

فى كل الأحوال ، كان محمد بن عبد الوهاب ، مؤسس المذهب الوهابى ، قد ولد فى العام ١٦٩١ ؛ ولد هذا الرجل فى بلدة العيينة فى العارض ، وكان والده من قبيلة بنى تميم ، التى كانت تستحوذ على السلطة فى جبل شمر . سافر محمد بن عبد الوهاب فى شبابه إلى البصرة ، وربما إلى دمشق ، لدراسة الشريعة ، وبعد أن أدى فريضة الحج فى مكة وبعد أن زار المدينة المنورة عاد إلى موطنه ، وسرعان ما تزوج بعد ذلك مباشرة فى قرية حريميلاء بالقرب من الدرعية . بدأ محمد عبد الوهاب دعوته فى كل من حريميلاء والعيينة ، ونجح الرجل فى حوالى العام ١٧٤٢ الميلادى فى كسب أو ضم محمد بن سعود إلى جانبه ؛ والمعروف أن محمد بن سعود كان فى ذلك الوقت

أميرًا للدرعية ، البلدة الرئيسية فى العارض فى ذلك الوقت . كانت السمات الرئيسية لدعوة محمد بن عبد الوهاب على النحو التالى :

أولاً : إعادة بعث المعتقدات الإسلامية كما هى واردة فى القرآن ، ورفض تلك المعتقدات الأخرى التى يسلم بها أهل السنة بناء على الحديث .

ثانيًا : رفض السلطة الروحية العثمانية كلها أو سلطة أية خلافة أخرى ، ورفض ذلك الاحترام الخاص الذى يحظى به الأشراف ، والأولياء ، والدراويش ، أو الأشخاص الآخرين .

ثالثًا : إعادة النظام والانضباط فى مسائل الصلاة ، والصوم ، والحج .

رابعًا : تحريم النبيذ ، والدخان ، ولحم الخنزير ، والسحر ، والحرير والذهب فى الملابس ، وشواهد قبور الموتى تحريمًا قاطعًا .

عاش محمد بن عبد الوهاب إلى سن متقدمة فى الدرعيه ثم لقى ربه فى العام ١٧٨٧ .

محمد بن سعود ، الأمير الوهابى الأول ، ينتمى إلى قبيلة المساليخ من العنزة ، والعنزة هى نفسها قبيلة فرعية من قبائل وِلد على ، وهى من غربى نجد (وولد على ، نقلاً عن أبناء سعود أنفسهم ، هى من بنى بكر وعيل ، من خلال مُعان بن ربيعة ، ملك نجد ، والأحساء ، وعمان فى القرن الخامس عشر) . اعتنق محمد بن سعود دعوة محمد بن عبد الوهاب ومبادئه ، كما سبق أن أوضحنا ، فى العام ١٧٤٢ ، وتبعه فى ذلك الاعتناق كثير من سكان الدرعية والمناطق المجاورة لها ، الذين زادوا فى نهاية الأمر من أعداد مؤيدى ابن سعود ومريديه، وهو الأمر الذى جعله رئيسًا لذلك الإصلاح الدينى ، وبالتالى هو بحكم الادعاءات الوهابية رئيسًا ، بل ورأسًا ، للإسلام كله . عملاً بنصائح محمد بن عبد الوهاب ، وركوبًا لموجة التعاليم الجديدة فرض محمد بن سعود سلطته على العارض كلها ، ثم بعد ذلك على القسم الأكبر من نجد . جاءت أشرس معارك محمد بن سعود مع أهل الرياض ، الذين تماسكوا وصابروا تحت قيادة

شيخهم محمد بن داعس ، وبمساعدة من ابن غُرَيِّر (أو بالأحرى ، ابن عرير أو ابن عروق) ، وشيوخ بنى خالد Khaled . شيوخ بنى خالد هؤلاء كانوا يمتلكون مناطق الأحساء والقطيف ، وعلى الرغم من إجبارهم على دفع الجزية (الإتاوة) ، فقد كانوا يناصبون ابن سعود العداء بصورة مستمرة ، وهم لا يزالون على هذا الحال إلى يومنا هذا . الغريم الثانى الذى كان يناصب المذهب الجديد العداء ، هو ثنيان شقيق الأمير محمد بن سعود ، الذى لا يزال أحفاده ينتمون إلى الحزب المعارض للحزب الوهابى فى العارض . وقد توفى محمد بن سعود فى العام ١٧٦٥ وخلفه ولده عبد العزيز .

عبد العزيز بن سعود ، رجل صاحب طاقة وطموح ، أكمل إخضاع كل من نجد والأحساء ، ووصل بالسلاح الوهابى إلى الشمال حتى مدينة البصرة ، بل إلى بلاد الرافدين ، وإلى تلال سنجار أيضًا . هذه الغزوات الأخيرة أدت إلى إثارة الذعر والفزع فى حكومة السلطان ، الأمر الذى أدى فى العام ١٧٩٨ إلى إرسال حملة عسكرية تركية عن طريق البر من بغداد إلى الأحساء، بقيادة شخص يدعى على باشا ، الذى كان سكرتيراً لسليمان باشا الوالى التركى . كانت هذه الحملة مكونه من ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ جندى من جنود المشاة النظاميين ، وبعض قطع المدفعية ، وفرقة كبيرة من العرب البدو الذين جرى تجميعهم من قبيلتى المنتفق ، وظافر وبعض القبائل الأخرى المعادية للقوة الوهابية . سارت تلك الحملة البرية محاذية للساحل واستولت على القسم الأكبر من الأحساء، لكنها بعد أن فشلت فى إخضاع الهفوف ، تلك المدينة المحصنة ، بدأت تعود ناحية الشمال ، وعندها قام سعود ، ولد الأمير ، باعتراض طريق عودة هذه الحملة، من موقعه الذى كان يحتله تحت أسوار بلدة تاج. وأوشك القتال على النشوب ، لولا وساطة بعض شيوخ العرب، التى مكنت على باشا من مواصلة انسحابه إلى البصرة، فى حين أعاد سعود استيلاءه على الأحساء وعاقب أولئك الذين استسلموا للأتراك . وقد أدت هذه العملية إلى توسيع القوه الوهابية وزيادة شهرتها ؛ وهنا بدأت تنهال على القوة الوهابية عروض الاستسلام من كل حدب وصوب . وعلى الرغم من ذلك ، وجد

الأمير أن من الحكمة والحصافة أن يحاول استرضاء الوالى التركى ، ولذلك قام على الفور بإرسال الخيول والهدايا القيمة الأخرى إلى بغداد .

هنا تحولت الدولة الوهابية إلى حكومة نظامية ، لها إدارة مركزية ، ومنظومة ضرائبية بدلاً من الإتاوة ، كما أصبح لها جيش نظامى كان يتحرك بأوامر من سعود ابن سعود ، أكبر أبناء الأمير . ويبدو أن الأمير عبد العزيز كان رجل سلام ، وبسيطًا فى ملبسه وعاداته ، ومتدينًا إلى أبعد الحدود . وعلى الرغم من ذلك كان سعود محاربًا ، ومن خلاله استطاع الوهابيون زيادة حظوظهم . ومع ذلك ، يبدو أنه كان هناك فى الصحراء حزب معارض ؛ كان البدو متعلقين بموروثاتهم الاستغلالية وكانوا يئنون من التشدد الدينى المفروض عليهم . معروف أن القصيم وجبل الشمر ، وكلاهما مركز من مراكز الحياة البدوية ، لم يقبلا مطلقًا المفاهيم الوهابية بأى شكل من أشكال الحماس ، يزاد على ذلك أن أهل الأحساء ، هذا العرق الجاد من البشر الذى يرتبط بعلاقات وثيقة مع إيران ، لم يقبلوا حكم ابن سعود إلا قسراً . ويبدو أن جنوبى نجد وحده كان متعصباً للوهابية ، وأن قوة هذا الجنوب كانت تتمثل فى تشدده .

فى العام ١٧٠٠ الميلادى قام سعود بالسفر إلى مكة لأداء أول حجة له ، وكان على رأس ٤٠٠٠ من أتباعه المسلمين ، وفى العام التالى كرر سعود هذا العمل نفسه . يبدو أن المرور خلال نجد كان ممنوعًا على الحجاج الشيعة ، الذين يدرجهم الوهابيون ضمن الكفار ، الأمر الذى أثار مشاعر العنف ضد الوهابية فى بلاد فارس ، وفى ولاية بغداد ، حيث السواد الأعظم من سكانها من الشيعة . وانتهى الأمر إلى اغتيال الأمير عبد العزيز بواسطة سيد فارسى من كربلاء ، وكان ذلك فى العام ١٨٠٠ الميلادى ، وكان عمر الأمير عبد العزيز فى ذلك الوقت اثنين وثمانين عامًا . (يقول العقيد روس Ross إن ذلك الاغتيال حدث فى العام ١٨٠٣ ، لكن أعضاء أسرة ابن سعود أكدوا أن حادث الاغتيال وقع قبل هذا التاريخ بثلاثة أعوام ؛ وهذا التاريخ يتفق مع بعض الأحداث الأخرى) .

فى العـام ١٨٠١ الميلادى ، جرى تجريد أول حـملة على عُمـان ، بقيـادة سليم الحـارق ، أحد عقداء سعود ، وفى العام نفسـه ، وعلى سبيل الانتقام لاغتيال والده ، سار على رأس حمله قوامها ٢٠٠٠٠ رجل ، واتجه صوب الشمال إلى نهر الفرات ، وفى اليوم العشرين من شهر أبريل قام بغزو وتخريب كربلاء ، وقتّل كل رجالها بل كل الذكور فيها ، ودمر قبر الحسين ، وعاد فى مساء اليوم نفسه وهو يحمل غنيمة قيمة وهائلة . نجاح هذا الهجوم الذى جرى تحت اسم الإسلام الحق ، على معقل الشيعة الكفار ، وداخل حدود ممتلكات السلطان ، أثار الفزع والدهشة فى سائر أنحاء العالم الإسلامى .

فى العـام ١٨٠٢ جرى إخضـاع جزيرة البحـرين لدفع الإتاوة ، وامـتـدت القـوة الوهابية على الساحل الشرقى ، لتصل إلى بلدة باطنة على بحر عُمان ، واعتنقت قبائل عمانية متعددة المذهب الوهابى وأصبحت تابعة لابن سعود .

فى العام ١٨٠٨ نشب نزاع بين الأمير الوهابى وغالب شريف مكة ، وهنا توجه سعود على رأس جيش كبير إلى الحجاز وأخضع الطائف ثم دخل مكة فى اليوم الأول من شهر مايو ، وعزل الشريف وعين حاكمًا (محافظًا) من عنده . لم يظهر سعود فى مكة على أنه عدو وإنما كواحد من الحجـاج ، ومنع قواته من السلب والنهب ، وكان العمل العنيف المسموح به هو تحطيم الأضرحة الكبيرة فى المدينة " إلى حد أنه لم يعد فى المدينة صنم واحد فى المدينة الطاهرة " على حد قولهم . ثم قاموا بعد ذلك بإلغاء الضرائب والجمارك ؛ ودمروا أيضًا كل الأدوات المستخدمة فى تدخين التبغ ، كما دمروا أيضًا منازل هؤلاء الذين يبيعون الحشيش ومنازل أولئك الذين يعيشون فى حماقة ورذيلة علنية . وعاد سعود إلى نجد ، بعد أن تلقى استسلام وخضوع المنطقة الوسطى كلها بما فى ذلك المدينة المنورة نفسها . وهذا بحد ذاته يمكن أن يكون ذروة ما وصلت إليه القوة الوهابية . وساد القانون والنظام فى ظل حكومة مركزية ، وأصدر الأمير عند عودته إلى الدرعية إعلانًا يعد فيه بالمحافظة الصارمة على الحياة ، وعلى الممتلكات ، وعلى التجارة فى سائر أنحاء ممتلكاته . واستمر هذا الحال سنوات عدة .

فى العام ١٨٠٧ جَّرد سعود حملة ثانية على الفرات وحاصر مشهد على ، لكنه فشل فى الاستيلاء على هذه المدينة المحصنة ، واضطر الرجل إلى الانسحاب.

فى العام ١٧٠٩ جمَّع سعود جيشًا قوامه ثلاثون ألف رجل بقصد الهجوم على بغداد ، لكن الاضطرابات التى حدثت فى نجد جعلته يتراجع عما انتواه وتوجه بجيشه إلى مكة لأداء فريضة الحج ، ثم عاد إلى نجد من مكة عن طريق المدينة المنورة ، التى كان قد ضمها إلى إمبراطوريته .

فى عُمَان واصل السلاح الوهابى ضمه لأراضٍ جديدة ، وبدأ اسم الوهابيين يظهر ويذيع فى الهند مقترنًا بأعمال القرصنة التى كانوا يقومون بها فى البحر الهندى. وقد أدى ذلك إلى قيام الإنجليز بتسيير حملة على رأس الخيمة على الخليج الفارسى فى العام ١٨٠٩ الميلادى . لكن على الرغم من تسيير هذه الحملة على رأس الخيمة ، تقدم الوهابيون فى العام الثانى إلى مطرّح ، التى تبعد أميالاً قليلة عن مدينة مسقط ، ومنها إلى البحرين التى قاموا باحتلالها وتعيين حاكم وهابى عليها .

فى العام ١٨١٠ قام سعود بغزو العراق ، وفى العام ١٨١١ وصل ولده عبد الله إلى منطقة قريبة من بغداد ، فى عملية سلب ونهب ، فى حين قام جيش وهابى آخر بقيادة أبى نقطة ، أحد عبيد الأمير ، بغزو الشام وفرض إتاوة وفدية على دمشق . واقع الأمر ، أن الفدية (الإتاوة) ظلت تدفعها سوريا طوال سنوات عدة ؛ والمعروف أن البلدان الصحراوية فى حوران ، هى ومناطق شرق الأردن ، هى التى كانت تدفع الإتاوة إلى نجد ؛ وأصبح مرجحًا أن تمتد الدولة العربية الجديدة إلى البحر المتوسط ، كما يمتد الإصلاح الوهابى إلى سائر العرق العربى كله . ومع ذلك ، فقد أدى تحالف بدو الشمال بقيادة الضَّريحى بن شعلان، شيخ الروالة إلى إنقاذ دمشق من أبى نقطة ، وبدلاً من أن ينهزم الجيش الوهابى على أيدى ذلك التحالف عاد إلى نجد .

ومع ذلك ، جرى ، عند هذه المرحلة ، تعرُّف خطر الإسلام الأصولى ، وفى العام نفسه ، أى العام ١٨١١ قام السلطان العثمانى ، بتحريض من رعاياه السُّنّة بإعادة

الأماكن المقدسة فى الجزيرة العربية إلى الرعاية التقليدية ، كما قرر اتخاذ إجراءات جادة ضد نجد . كانت الأمور قد وصلت إلى حد الأزمة فى العام السابق نتيجة قيام سعود بعمل متطرف ومتشدد ، أدى إلى استثارة غضب المذاهب الإسلامية كلها عليه . أثناء قيام سعود بحجته الرابعة ، أمر بفتح الغرفة التى فيها قبر النبى (ﷺ) فى المدينة المنورة ، وراح يبيع المجوهرات ، والتذكارات التى كانت فيها ، أو يوزعها على جنوده ، وقد جاء هذا العمل بمثابة خرق للشعائر الدينية يستحيل قبوله أو التسامح معه . وهنا جرى تذكير السلطان أن هناك دعوى من بين الدعاوى التى ترتكز عليها الخلافة العثمانية ، هى أن العثمانيين يمتلكون الأماكن المقدسة، وهنا أهابوا بالسلطان أن يؤكد عن طريق القوة حمايته لكل من مكة والمدينة المنورة . والمرجح هنا ، أن المصالح الكبرى التى يتهددها الخطر فى أوروبا طوال الأعوام السابقة ، هى التى أخرت قيام السلطان بعمل ناجح فى هذا الاتجاه . كان الغزو الذى قام به نابليون لمصر ، وتفكيك الإمبراطورية التركية الذى ترتب على ذلك ، قد ساعدا إلى حد بعيد فى النجاحات التى أصابها الوهابيون . الآن ، وبعد أن أصبحت مصر تحت حكم محمد على ، فقد عهد إليه السلطان بمعاقبة أبناء سعود . وقد أدى غياب قوات الأمير عن الشمال إلى تهيئة الفرصة للسلاح المصرى ، إذ جرى إرسال قوة قوامها ٨٠٠٠ رجل إلى الحجاز ، وقام طوسون باشا باحتلال مكة بلا مقاومة . ومع ذلك ، وعندما بدأ طوسون يتقدم نحو الداخل ، أو بالأحرى إلى ما بعد الطائف ، واجه طوسون عبد الله ابن سعود ، وانهزم طوسون فى الصحراء وفقد نصف جيشه ؛ ولم يكن فى وسع طوسون فعل أى شىء سوى الثبات فى مكة إلى أن يجرى إنقاذه وغوثه من مصر .

فى العام ١٨١٣ وأمام فشل ولده طوسون أحس محمد على بالقلق ، وسافر شخصياً إلى الجزيرة العربية ، ألقى القبض على الشريف غالب الذى اتهمه بالوهابية ، ألقى عليه القبض فى مكة وأرسله أسيراً إلى القاهرة . وعُهد إلى طوسون مرة ثانية بقيادة الحملة المتجهة إلى نجد ، لكنه قُوبل وهُزم مرة ثانية بعد الطائف ؛ كان ذلك فى ربيع العام ١٨١٤ الميلادى .

وفى شهر أبريل من العام ١٨١٤ ، جرى تعجيل الاستعداد للقيام بحمله جديدة ، وهنا لقى الأمير ابن سعود ربه ، وتولى ولده عبد الله الإمارة بعده ، واعترف الناس به أميراً بلا أى اعتراض ، كما اعترفوا به أيضاً شيخاً للوهابيين .

فى شهر يناير من العام ١٨١٥ ، أنزل محمد على أول هزيمة قاسية بالجيش الوهابى ، وبعد أن احتل طوسون المدينة المنورة ، اتجه صوب القصيم ، فى شمالى نجد ، وفى القصيم استولى طوسون على مدينة الرس التى كانت عاصمة للمنطقة فى ذلك الوقت .

وعند هذه المرحلة بدأت المفاوضات مع الأمير عبد الله الذى انسحب مع جيشه إلى عنيزة ؛ وانتهت تلك المفاوضات أمام دهشة الجميع ، (لأن عبد الله كان ما يزال معه جيش قوى) بخضوع الأمير عبد الله واستسلامه .

الأرجح هو أن هذا الاستسلام من جانب عبد الله جاء نتيجة إحساسه بموقفه غير الآمن فى نجد . والبدو ، وعلى الرغم من إخضاعهم ، لم يقبلوا مطلقًا الحكم الوهابى إلا قسراً ، كما كان الكثيرون منهم يقفون إلى جانب الأتراك ، هذا فى الوقت الذى نالت فيه الهزيمة الأخيرة من كبرياء وشموخ جنود عبد الله . وبغض النظر عما حصل ، فقد وافق الأمير على الشروط التالية :

أولاً : اعترف عبد الله بهيمنة سلطان تركيا .

ثانيًا : وافق عبد الله على تقديم رهائن لسلوكه المستقبلى ، بل وافق أيضًا ، إذا ما طلب منه ذلك ، أن يحضر هو شخصياً إلى إسطنبول .

ثالثًا : وافق على القيام بتسليم الدرعية ، عاصمته ، إلى حاكم (محافظ) يعينه السلطان .

رابعًا : وافق على إعادة المجوهرات التى سلبت ونهبت من المدينة المنورة عندما زارها والده فى العام ١٨١٠ .

وجرى طبقًا لهذه الشروط إبرام سلام بين كل من الأمير عبد الله وطوسون باشا، وقدم الأمير عبد الله الرهائن المطلوبة . ومع ذلك ، لم يتخل عبد الله عن الدرعية أو يسلمها ، بل راح يعدها ويجهزها للحصار . ولم يبطل محمد على اتفاق السلام ، عندما علم برفض حضور الأمير عبد الله إلى مصر شخصيًا . واستدعى محمد على ولده طوسون ، وعين ابنه الثانى إبراهيم قائدًا للجيش فى الجزيرة العربية بدلاً من طوسون .

فى شهر سبتمبر من العام ١٨١٦ الميلادى غادر إبراهيم باشا مصر ، على رأس جيش كبير متجهًا إلى مسرح العمليات .

يبدو أن الجولة الأولى جرت فى منطقة ماوية ، التى قام فيها عبد الله بن سعود بمهاجمة الجيش المصرى ولقى هزيمة نكراء . وفى تلك الموقعة أعدم إبراهيم باشا الأسرى كلهم . ثم تقدم الباشا بعد ذلك على رأس أربعة آلاف من جنود المشاة و١٢٠٠ خيال ، علاوة على فرق جمّعها من القبائل العربية الصديقة ، ومن بنى خالد ، والمطير وعتيبة ، وحرب ومن السهول ، وهجم على مدينة الرس التى كانت تسيطر عليها حامية وهابية . واجه إبراهيم باشا مقاومة عنيفة قبل هذه المدينة (الرس) وبعد أن حاصرها مدة ثلاثة أشهر ونصف الشهر ، وبعد أن خسر الرجل ٣٠٠٠ من رجاله وافق على عقد هدنة وفك الحصار عن المدينة . ومع ذلك ، فإن القائد المصرى الذى اتخذ من الرس قناعًا ، واصل مسيره شرقًا إلى عنيزة ، فى حين تراجع الأمير عبد الله إلى بريدة . وبعد قصف بالقنابل دام ستة أيام استسلمت قلاع عنيزة ، واستسلمت منطقة القصيم كلها للقائد المصرى . وانسحب عبد الله إلى شقراء ، إحدى بلدات الوشم ، واستولى إبراهيم باشا على بريدة ، التى راح ينتظر فيها التدعيمات طوال شهرين من الزمان . خلال هذه الفترة نجح الباشا فى عزل الكثيرين الذين كانوا لا يزالون موالين لابن سعود ، عن ولائهم للقضية الوهابية . وكان فيصل الدويش من أوائل من طلبوا الانضمام إلى جانب المصريين ، وفيصل الدويش هذا هو شيخ المطير ، الذى كان بينه وبين أبناء سعود نزاع قديم ، استغله إبراهيم باشا فى استمالة الرجل إلى جانبه ،

بأن وعده بتعيينه حاكمًا (محافظًا) على نجد لكن الباشا لم يكن عاقدًا العزم على البر بذلك الوعد .

بعد وصول تدعيمات قوامها ٨٠٠ رجل إلى بريدة ، ومعهم مدفعان ومؤن وتموينات وذخيرة ، تمكن إبراهيم باشا من الزحف على شقراء على رأس قوة قوامها ٤٥٠٠ من الأتراك ، والألبان ، والمغاربة إضافة أيضًا إلى الفرقة العربية .

وكان بصحبة هذه القوة ١٠٠٠٠ جمل ، بل إن جنود المشاة كانوا محمولين بواقع فردين على كل جمل . كان الأمير عبد الله قد انسحب فى ذات الوقت إلى عاصمته ، وراح يُخَرِّب الريف أمام العدو، ويرسل الماشية والقطعان التى لا لزوم لها إلى الأحساء. حدث ذلك فى أواخر شهر ديسمبر من العام ١٨١٧ . وفى الشهر التالى ظهر الجيش التركى أمام شقراء ، التى جرى الوصول إليها بطريقة منظمة تحت قيادة وتوجيه مهندس فرنسى هو إم M فسييرى Vaissiere ، واستسلمت شقراء فى اليوم الثانى والعشرين من شهر يناير من العام ١٨١٨ . وجرت المحافظة على أرواح حامية شقراء ، لكن جرى تجريد أفراد هذه الحامية من أسلحتهم ، وأخذت عليهم تعهدات بعدم العمل مرة ثانية تحت قيادة الأمير الوهابى . بعد ذلك بأيام قلائل ، سقطت الدرعية ، وأمر إبراهيم باشا بتدمير تحصينات شقراء .

بعد انسحاب عبد الله بن سعود إلى الدرعية ، وجد إبراهيم باشا أن من الحكمة ، قبل تعقب عبد الله إلى العاصمة ، أن يحيد عن الطريق المباشر ، حتى يتمكن من الاستيلاء على بلدة ضرمة . واجه إبراهيم باشا مقاومة شديدة فى ضرمة ، وجرى قتل العديد من رجاله . ومن باب الانتقام لمقتل رجاله ، قام إبراهيم باشا بقتل الذكور كلهم فى ضرمة، وسلب المدينة ونهبها ودمرها، واستسلمت النساء لوحشية الجندية التركية . ولم يستطع الإفلات بحياته سوى حاكم البلدة هو وحارسه اللذين حبسا نفسيهما داخل القلعة .

لم يهجم إبراهيم باشا على الدرعية بسبب الأمطار ، لأن الوقت كان يصادف شهر مارس ، لكنه تقدم صوب الدرعية فى شهر أبريل على رأس قوة مكونة من ٥٥٠٠

خيال ، ومشاة ، ومعها اثنتا عشرة قطعة من المدفعية ، من بينها مدفعا هاون ، ومدفعا هاوتزر . عقب ذلك مباشرة وصلت من المدينة المنورة ومن البصرة تدعيمات وقوافل محملة بالإمدادات والتموينات إلى المعسكر التركى . استمرت عمليات الحصار طوال مدة من الزمن لا تحقق أى نجاح للأسلحة التركية . وفى النصف الثانى من شهر مايو حدث انفجار خسر الباشا بمقتضاه كل مخزوناته من الذخيرة ، مما وضع الرجل فى موقف حرج . واقع الأمر أن شجاعة إبراهيم باشا الشخصية النادرة والقدوة الحسنة التى كان عليها هذا الرجل هما اللذان أنقذا الجيش من كارثة محققة . كانت قوات إبراهيم باشا تعانى معاناة شديدة من مرض الدوسنتاريا ومن الرمد الحبيبى ، وفكر الوهابيون فى التغلب على قوات الحصار عن طريق القوة ، لكن الهجوم الذى حاول الوهابيون القيام به جرى صده ، وضاعت الفرصة على المحاصرين ؛ وعقب ذلك مباشرة ، وصلت إلى المعسكر المصرى قوافل القتال محملة بإمدادات جديدة من الذخيرة والمؤن والتموينات ، كما وصلت بعد ذلك تدعيمات جديدة من المشاة والخيالة . كما وصل أيضاً خبر مجىء خليل باشا من مصر ومعه ٣٠٠٠ فرد من القوات الجديدة. وفى مطلع شهر سبتمبر ، أرسل الأمير علم الهدنة طالبًا بمقتضاه لقاء الباشا . وتمت الموافقة على ذلك اللقاء ، واستقبل الرئيس الوهابى استقبالاً وديًا ، لكنه أُبلغَ أن أول وألزم شروط التّسليم هو حضور عبد الله شخصياً إلى القاهرة . طلب الأمير مهلة أربع وعشرين ساعة للتفكير فى الأمر ، وأعطيت للأمير هذه الفرصة ، وبعد انتهاء هذه المهلة جاء الأمير إلى مخيم الباشا وأعرب عن استعداده لتنفيذ الشرط المفروض عليه ، شريطة أن يضمن له إبراهيم باشا عدم المساس بحياته . ورد عليه إبراهيم باشا بأنه ليس من سلطته إلزام السلطان أو الحاكم المناب بأشياء بعينها ، أو بهذا الموضوع بالذات ، لكنه يعتقد أن الاثنين يبلغان من الكرم حداً يصعب معه أن يقوم أحدهما بتهديد حياة الأمير أو إعدامه . وهنا التمس عبد الله العفو عن عائلته ، واستعطف الأمير إبراهيم باشا أن يعفو عن الدرعية وعن أتباعه فيها . جرت الموافقة على هذه الشروط وأبرمت معاهدة سلام. هنا بدأ الأمير سىء الطالع رحلته تحت حراسة مشددة، وعندما وصل الأمير عبد الله إلى القاهرة ، استقبله محمد على استقبالاً طيباً ، وقدمه

بعد ذلك إلى إسطنبول مع التماس قوى بالعفو عنه . كانت حكومة الباب العالى لدودة : فقد جرى عرض عبد الله بن سعود بطريقة مشينة فى شوارع العاصمة طوال ثلاثة أيام ، ثم جرى بعد ذلك إعدامه على الملأ هو ورفاقه من الأسرى .

وبذلك تنتهى الحقبة الأولى من الحكم الوهابى فى نجد . وبقيت نجد طوال الثلاثة والعشرين عاماً التى أعقبت تدمير الدرعية ، بمثابة مقاطعة من المقاطعات المصرية ؛ كانت القوات المصرية تحتلها فى بعض الأحيان ، وفى بعض الأحيان الأخرى كانت مجرد تابع من التوابع . وعندما ظهر إبراهيم باشا للمرة الأولى فى نجد ، حظى بتعاطف قسم كبير من السكان ، وبخاصة فى كل من جبل الشمر ، والقصيم ، والأحساء ، التى جرى استقباله فيها لا كفاتح أجنبى وإنما كمخلص لهذه البلاد من نير الحكم الوهابى. لم يحدث أن شوهد جيش تركى من قبل فى وسط الجزيرة العربية؛ ونظراً لأن عرب الداخل لم يكونوا من المتعصبين فإنهم لم يشعروا بأية كراهية نحو الأتراك . لكن القوات التركية هى والقوات الألبانية التى خلفها إبراهيم باشا وراءه لتكون حامية للدرعية سرعان ما استثارت عداء الناس بسبب قوتها وغلظتها ؛ وفى مطلع العام ١٨٢٢ وقعت أول مذبحة للقوات التركية فى الرياض ، العاصمة الجديدة لنجد (نظراً لأن الدرعية لم يُعَدْ بناؤها مطلقًا) . وتلت هذه المذبحة فى العام ١٨٢٣ وفى العام ١٨٢٤ انتفاضه ناجحة قام بها العرب تحت قيادة تركى بن سعود (راجع شجرة النسب) ؛ وأعاد تركى بن سعود تأسيس أسرته كأسرة مالكة فى العارض . استولى تركى على الرياض ، وطرد القوات المصرية المتبقية فى نجد ، ونظراً لبروز تركى بن سعود زعيماً لحركة شعبية ضد الأجنبى ، فقد اعترف به السواد الأعظم من قبائل وسط الجزيرة العربية أميراً للبلاد .

على امتداد عشر سنوات – أى من العام ١٨٢٤ إلى العام ١٨٣٤ – راح تركى ابن سعود يقوى ويدعم سلطته وقوته فى نجد ، وفى الأحساء ، بل وحتى فى عمان ، وساحل الخليج الفارسى إلى رأس الحض الذى اعترف به أميراً ودفع له الجزية أو الإتاوة . ومع ذلك ، كان تركى بن سعود يدفع إتاوة لحكومة مصر ، التى كانت توافق على ما يفعله فى الجزيرة العربية .

فى العام ١٨٨٤ الميلادى جرى اغتيال تركى بن سعود بيدى مشارى، أحد أقاربه، الذى جرى إعدامه هو الآخر بيدى ولد تركى ، المدعو فيصل ، الذى يشغل منصب الأمير بدلاً من والده .

فى العام ١٨٣٨ أهمل فيصل ولد تركى بن سعود ، أو بالأحرى رفض دفع الجزية أو الإتاوة لمصر ، وهنا قام محمد على باشا بإرسال قوة بقيادة جميل بك لخلع فيصل ابن تركى بن سعود، وتنصيب خالد، أحد منافسى عائلة بن سعود، على إمارة الرياض، ثم هرب فيصل إلى الأحساء ، وهنا قام خالد ، بمساندة جزء من أهل العارض من ناحية ، وتدعيمات من مصر بقيادة خورشيد باشا من الناحية الأخرى ، باغتصاب العرش ، ولكنه جرى تنحيته بعد ذلك بفترة قصيرة بواسطة القادة المصريين ، الذين أنشأوا حكومة مصرية فى سائر أنحاء نجد . كان فيصل قد استسلم بدوره لهؤلاء القادة ، وجرى إرساله أسيراً إلى القاهرة . وقد دام الاحتلال المصرى الثانى لنجد مدة عامين . ثم جرى بعد ذلك سحب القسم الأكبر من القوات ، وجرى ترك خالد ليكون والياً للحكومة التركية .

فى العام ١٨٤٢ ترأس عبد الله بن ثنيان بن سعود تمرداً على خالد الذى جرى طرده هو والبقية الباقية من القوات المصرية ، من الرياض ؛ وبعد أن نجح فيصل فى الهرب من سجنه فى القاهرة ، ظهر ثانية فى العارض ، واعترف الناس به أميراً فى سائر الأنحاء . واعتباراً من ذلك التاريخ لم يعد للحكومة التركية أو المصرية أى نفوذ على نجد .

فى ظل حكم الأمير فيصل ، الذى دام بعد عودته ثلاثة وعشرين عاماً ، جرت إعادة غزو المناطق السابقة من الإمبراطورية الوهابية . وجرى فى العام ١٨٤٥ الميلادى إخضاع عمان لدفع الجزية ؛ وجرى إجبار الأحساء على قبول حكام الوهابيين ، وفى أواخر سنوات فيصل جرى غزو القصيم . وجرى ضم جبل الشمر من جديد إلى الدولة الوهابية ، بعد أن استقل عقب إطاحة إبراهيم باشا بالإمبراطورية النجدية ؛ كان جبل شمر قد استقل تحت قيادة ابن على من بنى تميم . وبعون من فيصل ، استطاع

عبد الله بن الرشيد ، شيخ الشمر تنصيب نفسه فى حائل ، وراح يدفع جزية للأمير معترفًا بسيادته عليه . لم يفشل سلاح فيصل بن سعود إلا فى البحرين ، وذلك بسبب المساندة التى حصل عليها شيوخ البحرين من إنجلترا .

أصيب الأمير فيصل فى نهاية سنى حكمه بالعمى ، وانتقلت مقاليد الأمور إلى ولده عبد الله ، الذى تسببت قوته وتشدده فى هجران البدو لمعاييره وتعاليمه ، الأمر الذى مهد لتدخل ثالث من جانب الأتراك .

ومع ذلك ، وقبل أن ندخل فى سرد أحداث سوء طالع الجزيرة العربية وضم الأتراك للجزيرة العربية إلى ممتلكاتهم ؛ قد يكون من الضرورى شرح آراء ودعاوى السلاطين العثمانيين الخاصة بالجزيرة العربية .

يرجع أول ظهور للأتراك فى الجزيرة العربية إلى العام ١٥٢٤ ، عندما قام سليم الأول بغزو مصر واغتصاب الخلافة ، التى كانت حتى ذلك التاريخ محصورة فى أعضاء من العائلة العباسية ؛ آنئذ قام سليم الأول بالاستيلاء عسكريًا على الأماكن المقدسة ، ومكة ، والمدينة المنورة ، كما ضم سليم الأول اليمن أيضًا إلى ممتلكاته . خلف المناطق الواقعة على حدود البحر الأحمر ، لم يكن أى جزء من هذه المناطق تحت إمرة أو خاضعًا لأى سلطان من السلاطين ؛ وفى القرن التالى جرى طرد السلاطين من هذه المناطق ، إلى حد أن الأتراك لم يدعوا السيادة على شبه الجزيرة العربية اللهم باستثناء طريقى الحج القادمين من القاهرة ومن دمشق .

الحملة التى قام بها إبراهيم باشا لم تكن من باب تأكيد حق السيادة ، وإنما هى عمل من أعمال المعاقبة والانتقام من ذلك المذهب المعادى ؛ وبعد أن تم سحق الحكومة الوهابية ، لم تكن هناك نية أو قصد إلى الاحتفاظ بنجد لتكون من ممتلكات السلطان . كان السلاطين فى ذلك الوقت مهمومين بحالهم وموقفهم فى أوربا إلى الحد الذى لم يشغلوا أنفسهم بأحلام الغزو فى آسيا ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء السلاطين ، من الناحية العسكرية ، بلغوا من الضعف مبلغًا لا يمكنهم من القيام بمشروعات غير مفيدة ولا لزوم لها . لكن عندما وضعت الحرب الكريمية أوزارها ، أعيد تنظيم الجيش التركى

من جديد ، بفضل القرض الإنجليزى ، الذى جعل من تزويد ذلك الجيش بالأسلحة الدقيقة أمراً ممكناً ؛ وعندما وجد السلطان نفسه مالكاً لقوة غير عاديه ، بادر باستعمالها فى غزو المناطق المتاخمة لحدود الإمبراطورية ، التى كانت تخلصت من نير الأتراك ، ثم قام السلطان بعد ذلك بكسر شوكة القبائل القريبة من حدود الإمبراطورية التركية ، والتى يسهل غزوها . هذا يعنى إعادة إخضاع مناطق الحدود فى كل من الشام وكردستان ؛ كما أعاد السلطان أيضًا إخضاع وديان الفرات ودجلة ، التى استقلت منذ أيام تيمورلنك ؛ استولى السلطان على هذه المناطق بالقوة، وجرى إخضاع العراق من جديد لمنظومة الضرائب الإمبراطورية ومنظومة التجنيد الإمبراطورية أيضاً . كانت قناة السويس قد افتتحت فى ذلك الوقت ، وأصبحت الجزيرة العربية التى لم يكن الوصول إليها إلا بطريق البر فقط ، فى متناول إسطنبول . هذا الإحساس المتنامى بالقوة ، والمعزز بالآمال ، وهذا الجيش المستعد والمجهز للعمل ، ولّد فى الحكومة الإمبريالية من جديد أحلام الغزو والاحتلال . وهنا تذكر السلطان ذلك الذى سبق أن نسيه ، ألا وهو أنه هو وارث الخلافة العربية ، وعليه بنى وزراء ذلك الزمان ، على هذه الحقيقة ، زعما مفاده أن الجزيرة العربية حق لهم . وهنا جرت زيادة أعداد حامية مكة وحامية الحجاز ، كما سيّر السلطان حملة على اليمن، كما عين السلطان مدحت باشا، صاحب المزاج المضطرب غير الهادئ أو الرائق ، حاكماً على بغداد ، وأصدر له أوامر بأن يشغل وقته فى توسيع ومد نفوذ السلطة بالاتجاه الذى يراه مناسبًا . وسرعان ما تهيأت الفرصة لمدحت باشا للقيام بذلك .

فى العام ١٨٦٥ توفى فيصل بن سعود ، وضعفت من جديد الدولة الوهابية التى استردت بقيادته الكثير من قوتها السابقة؛ ضعفت هذه الدولة بسبب النزاع الداخلى ، فقد خلّف فيصل وراءه ابنين : عبد الله وسعود ، وكان عبد الله وهابيًا بحق ، أما سعود فكان صاحب فكر ليبرالى ، فكر وطنى لا دينى . ووضع كل من الأخين نفسه على رأس جماعة أو حزب إن صح التعبير ؛ ركز عبد الله على الحضر فى العارض الذين كانوا متحمسين للإصلاح الدينى الجديد ، فى حين ركز سعود على البدو . ظل الأخوان فترة من الزمن يتقاسمان تركة فيصل فيما بينهما، لكن عندما وصل الأمر إلى حد الاقتتال ،

أجبر الأخ الأصغر أخاه الأكبر على ترك العارض والفرار منه ، ووطد سعود نفسه فى العارض أميرًا واحدًا . وهنا استقل جبل شمر والقصيم استقلالاً تامًا ، كما رفضت الأحساء هى وبقية المناطق البحرية دفع أى شكل من أشكال الإتاوة .

فى العام ١٨٧١ وعندما وجد مدحت باشا فى ذلك الظرف ما يتفق مع التعليمات التى سبق أن أصدرها له السلطان ، وبعد أن جرى طرده من العارض ، شق الرجل طريقه ومعه بعض أتباعه إلى جبل شمر ، الذى كان متعب بن الرشيد أميرًا عليه ، ومن هذا الملجأ السياسى (إذ إن عبد الله بن سعود كان يعامل كما لو كان ضيفًا) بدأ الرجل الاتصال بمدحت باشا فى بغداد . وعندما وجد مدحت باشا بدأ يرد ويستجيب لأقوال عبد الله عن طيب خاطر ؛ وعلى الفور ، أصدر مدحت باشا إعلانًا ينطوى على سيادة السلطان على نجد ، وتضمن الإعلان إشارة إلى عبد الله بن فيصل بن سعود باعتباره قائمقامًا أو بالأحرى حاكمًا منابًا لهذه المنطقة . وأشار الإعلان أيضًا إلى أن القوه التركية سيجرى إرسالها من بغداد " لاستعادة النظام ، وإعانة القائمقام المشار إليه فى مواجهته لأخيه المتمرد ".

جرى إرسال حمله عسكرية عن طريق البحر إلى الأحساء ، بعد شىء من المعارضة من جانب حكومة الهند ، التى أصرت منذ سنوات عدة على المحافظة على الهدوء التام والسلام فى الخليج الفارسى ، وهذه قاعدة وافق عليها كل شيوخ الساحل العربى من الخليج الفارسى ، بما فى ذلك أهل الأحساء والحكومة الوهابية ، وجرى التمسك بتلك القاعدة ؛ الأمر الذى أسفر عن بعض النتائج الطيبة . كانت تلك الحملة مكونة من عدد يتردد بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ جندى من الجنود الأتراك النظاميين ، بقيادة نظفى باشا ، ونزلت هذه الحملة فى القطيف فى شهر يونيو . كان عبد الله بن فيصل ابن سعود قد عاد فى ذلك الوقت إلى نجد ، وبعد أن جمع حوله مجموعة من مؤيديه ، وذلك بالتعاون مع قبيلة بنى قحطان ، هاجم سعود ناحية الغرب ؛ لكنه هُزم واحتمى بالمعسكر التركى .

نشبت فى الرياض بعض الاضطرابات ، التى اضطرت سعود إلى مقاتلة منافس ثالث ، هو عبد الله بن تركى ، الذى لقى على يديه هزيمة نكراء ، واضطر هو الآخر إلى الانسحاب إلى قطر وبذلك يكون الأتراك قد احتلوا ساحل البحر كله فى الأحساء ، كما احتلوا أيضًا القلعة الداخلية هى وبلدة الهفوف ، التى استطاعوا فيها الاتصال بذلك المدعو عبد الله بن تركى وعينوه مديرا للرياض ، "الأمر الذى منع أو أرجأ وصول عبد الله بن فيصل إليها" ؛ لكنْ مدحت باشا أعلن فى أواخر العام ، أنه بناء على الالتماس الذى تلقاه السلطان من أعيان نجد(*) ، فقد رؤى إبعاد عائلة ابن سعود عن الحكم ، وأن هذه البلاد سوف تحكم من الآن فصاعداً بواسطة حاكم تركى. وجرى فى الإعلان نفسه تعيين نظفى باشا متصرفًا أو حاكمًا لنجد ، وجرى تنحية عبد الله ابن سعود جانبًا تمامًا . وهنا هرب الأمير عبد الله من المعسكر التركى إلى الرياض .

فى العام ١٨٧٢ ، ابتدأ رءوف باشا ، الذى حل محل مدحت باشا فى بغداد ، ابتدأ المفاوضات مع سعود وأقنعه بإرسال شقيقه عبد الرحمن إلى بغداد ، الذى بقى محبوسًا فيها إلى العام ١٨٧٤ .

فى هذا العام نفسه عاد سعود إلى الرياض ، وطرد أخيه عبد الله مرة أخرى ؛ وانسحب عبد الله إلى الكويت ، تاركًا سعــود بلا منغصات إلى أن وافته المنية فى العام ١٨٧٤ .

فى العام ١٨٧٣ ، جرى سحب القوات التركية النظامية ، وخلَّف الأتراك وراءهم بيزى بن عريِّر ، شيخ بنى خالد ، وعدو أبناء سعود اللدود ، وجعلوه حاكمًا عثمانيًا على الأحساء ، ومعه حامية من رجال الشرطة .

فى العام ١٨٧٤ ، وبعد أن أطلق سراح عبد الرحمن ، شقيق الأمير سعود ، من سجنه فى بغداد قام بتمرد فى الأحساء ، وانضم إليه الـمَوَّاق ، والعجمان ، وبعض

(*) هذا ادعاء زائف ومزور بطبيعة الحال .

القبائل البدوية الأخرى ، الذى اتجه معها إلى الهفوف وقام بمحاصرة بيزى بن عريّر هو وحاميته ، بعد أن قتلوا الكثيرين منهم. وهنا جرى إرسال نصر باشا من البصرة ، ومعه كتيبة من الجنود الأتراك النظاميين ، عن طريق البحر إلى الأحساء ، التى أجبرت عبد الرحمن على الانسحاب إلى الرياض عندما بلغه خبر مجيئها. وهنا قام نصر باشا بالاستيلاء على الهفوف وإنقاذ حاميتها ، التى كانت محبوسة فى القلعة ؛ ولكنه قام بتخريب المدينة وسلبها ونهبها . وبقى الجنود الأتراك هم ومساعدوهم فى المدينة أياماً عدة وهم يمارسون فيها المذابح، وسلب السكان ونهبهم ؛ وجرى قتل الرجال، والنساء ، والأطفال ، وجرت معاملة النساء بطريقه غير أخلاقية وعلى العلن ، وتلك سمة من سمات التعامل مع النساء فى مثل هذه المعاملات . ويقال إن الضباط الأتراك استنكروا هذه المعاملة لدى الباشا ، لكنه رد عليهم بأن تلك كانت عبرة لمن يريد أن يعتبر .

بعد ذلك بفترة قصيرة لقى الأمير سعود ربه فى الرياض ، وقيل إن الأمير مات مسموماً ؛ وفى العام ١٨٧٥ ، عاد عبد الله إلى نجد ، حيث وجد عبد الرحمن ، أخاه غير الشقيق ، متربعاً على حكم الرياض . وبعد شىء من النزاع بين الأشقاء ، توصلوا إلى اتفاق مقبول فيما يتصل بالسلطة الرئيسية ، وأصبح عبد الله حاملاً للقب الأمير ، أما عبد الرحمن فقد أصبح رئيساً للوزراء . وهذا هو الحال القائم حالياً فى الرياض . واستهلت الحكومة التركية بعض المقدمات مؤخراً مع الأمير ، من منطلق أنه أصبح حاكماً لنجد بناءً على تعيين من الأتراك ، ولكن هذه المقدمات لم تجد استجابة من الأمير . يبدو أن عبد الله ليست له سلطة أو سلطان خارج الرياض ، وبالتالى ليست له سلطة من أى نوع كان خارج العارض . عبد الله بن سعود يمثل جانب التشدد الوهابى ، الآخذ فى الانحدار أو الهبوط على نحو سريع ، وهناك خطط أخرى ومشروعات قيد التنفيذ بين البدو وبعض من أبناء الأسرة السعودية ، وترمى هذه الخطط إلى تقديم مُطالب جديد بالعرش فى شخص واحد من أبناء سعود ، ويطالب بحماية إنجلترا له . ومع ذلك ، يمكن القول إن سلطة الأسرة السعودية فى الجزيرة العربية قد اقتربت من نهايتها .

الأحساء هى شاطئ الخليج بدءًا من قطر إلى الكويت هى حاليًا فى أيدى الأتراك، الذين يتسببون فى اختفاء الرواج التجارى على شاطئ الخليج ، نظرًا لأنهم يعملون على إثارة الاضطرابات والصراعات القبلية بين العرب . يزاد على ذلك ، أن القرصنة ، تحت حماية العلم العثمانى بدأت تصبح من جديد أسلوب الحياة بين القرويين الذين يعيشون على شاطئ الخليج ، كما استبدأ الأتراك تدبير المكائد مع شيوخ المناطق الشرقية ، لإقناعهم بقبول حماية مماثلة على أمل وعد بترخيص مماثل .

فى ذات الوقت نجد أن كل ما هو وطنى بحق من حيث الفكر ومن حيث احترام المشاعر فى وسط الجزيرة العربية يلتفون حول محمد بن الرشيد ، أمير جبل الشمر ، ويتعين علينا التطلع إلى حائل لاستعادة أمجاد وازدهار الإمبراطورية النجدية القديمة ، إن كان ذلك أمرًا ممكنًا .

ولفريد سكاون بلنت

شجرة نسب أبناء سعود ، أمراء نجد

من نسل ربيعة بن معان ، أمير الدرعية فى القرن الخامس عشر ، وهو نفسه من قبيلة المساليخ من العنزة من خلال عدوان من إسماعيل ولد إبراهيم

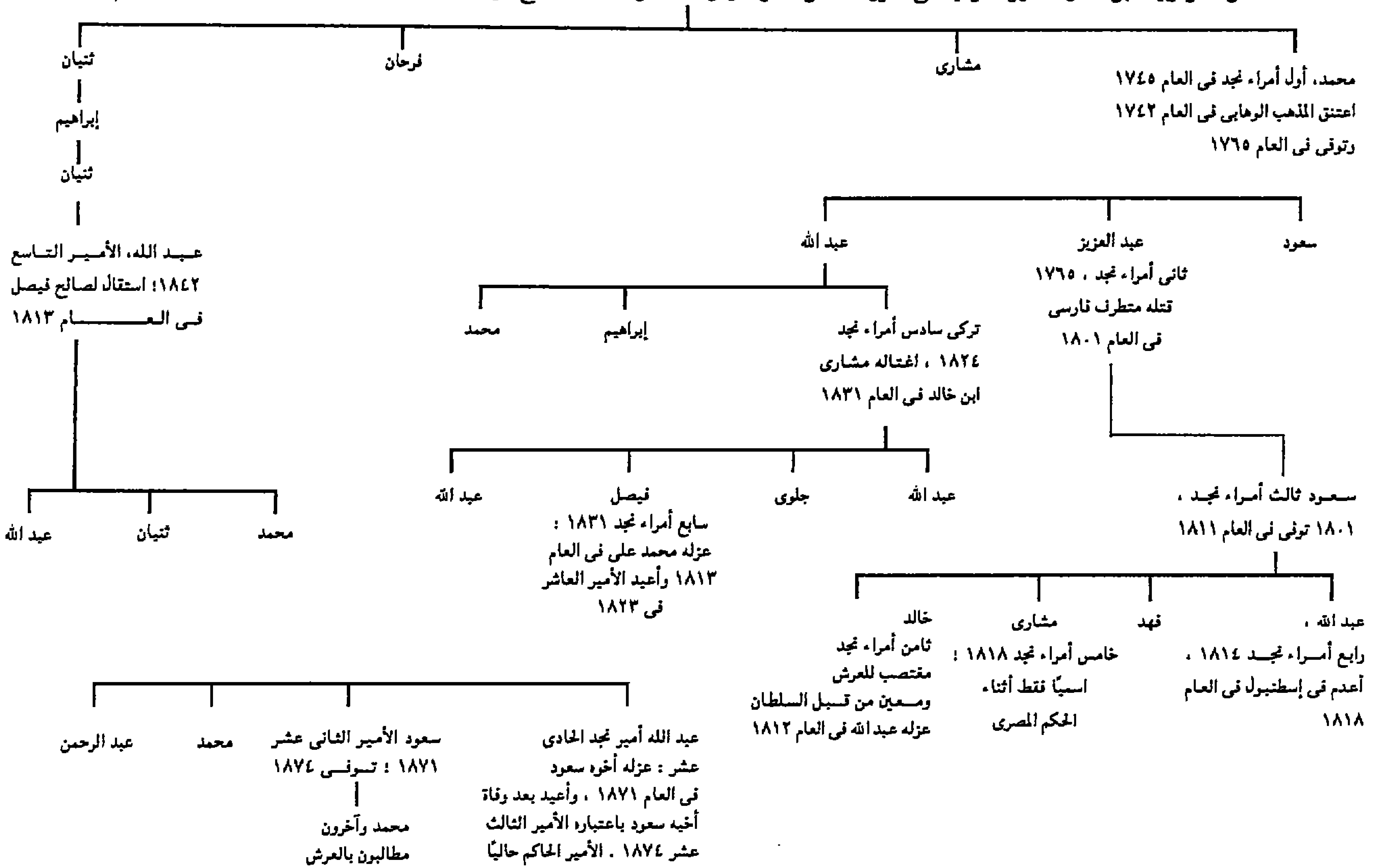

شجرة نسب أبناء الرشيد ، أمراء جبل الشمر

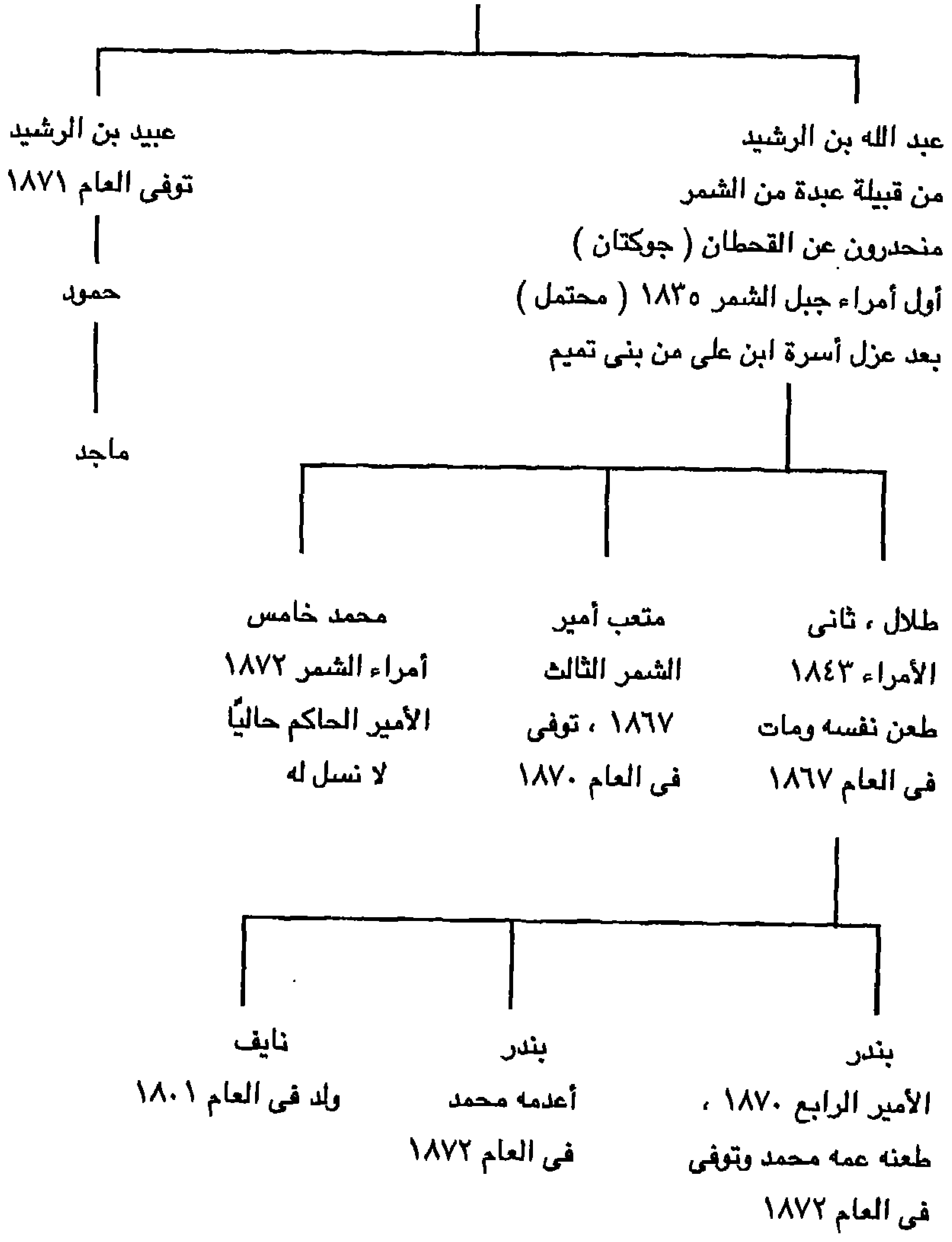

الملحق رقم ٣

مذكرة عن خط حديد وادى الفرات
والمشاريع المتصلة بخطوط السكك الحديدية بين البحر المتوسط والخليج الفارسى

بعد اكتمال قيامنا بالرحلة البرية كلها فيما بين الإسكندرية وبوشهر، أبعد نقطتين يرد ذكرهما باعتبارهما محطتى الوصول للخط الحديدى الفارسى – المتوسطى ، وبعد أن أصبحت قادراً على تقييم الموارد الحقيقية للبلاد التى سيخدمها خط حديدى من هذا القبيل ، أجدنى لا أعتذر عن بعض الملاحظات التى سأوردها حول هذا الموضوع . أنا أقدم هذه الملاحظات عن ثقة ويقين، إن أحداً من هؤلاء المؤيدين الكثيرين لذلك الخط الحديدى لم يكلف نفسه مؤونة السفر عبر هذه المسافة كلها ، فضلاً عن أن كل التقديرات والحسابات الدائرة حول هذه المشاريع تقوم على مجرد مسح لجزء واحد فقط من الطريق. هؤلاء الذين يكتبون أو يتكلمون عن حديدى لوادى نهر الفرات لم يفعلوا شيئًا سوى عبور هذا النهر عند منطقة بير ، أو أن جدلهم ينصب فقط على اختيار أنسب موانئ البحر المتوسط ليكون محطة وصول لهذا الخط ، وهذا نوع من المنطق لا يكفى ، بلا أدنى شك، إلا لتغطية الهدف المحدد لهم، لكن هذا المنطق مضلل فى واقع الأمر . وأنا على يقين أن هذه المشاريع كلها مبنية على معرفة غير كاملة للحقائق .

من الطبيعى أن يحظى الخط الحديدى الذى يكون من هذا القبيل ، بجاذبية خاصة لدى الإنجليز ، كما يقدم هذا الخط نفسه لهم من منظورين أحدهما سياسى والآخر تجارى . على الصعيد السياسى نجد أن مثل هذا الخط يعد مساراً بديلاً

للقوات الذاهبة إلى الهند ، هذا يعنى إرسال المزيد من الحملات أكثر من طريق السويس ؛ وعلى الصعيد التجارى نجد أن مثل هذا المشروع سوف يفتح بلداً أو بلاداً مهملة أمام العمليات التجارية .

فيما يتعلق بالشق السياسى أود أن أسجل أولاً، أننى بعد اطلاعى على الحسابات الخاصة بهذا الموضوع اطلاعًا دقيقًا ، اكتشفت أن الوفر الإجمالى الذى سيوفره مثل هذا الخط يقدر بحوالى أربعة أيام بين لندن وكلكتا ، وأن خطًا حديديًا من الإسكندرية أو طرابلس إلى بوشهر يمكن أن يقوم بهذا الغرض ، وتلك ميزة لا تعوض مخاطر الشحن ، والإرهاق الذى يترتب على رحلة صحراوية طويلة ؛ اكتشفت أيضًا أن الخليج الفارسى أشد حرارة من البحر الأحمر كما أنه ليس صحيًا مثل البحر الأحمر ، كما اكتشفت أيضًا أن الموانئ السورية بصفة خاصة معرضة لانتشار الحمى ؛ ثالثًا ، اكتشفت أيضًا أن مثل هذا الخط يمكن استخدامه فى نقل القوات الإنجليزية بناء على أمر من ذلك الذى يستحوذ على آسيا الصغرى.

عندما كنت فى الهند فى الصيف الماضى تعرفت إلى عدد كبير من المسئولين البريطانيين ، وتأملت عندما علمت منهم آراءهم فى هذا المشروع ، الذى يعتبرونه "طريقًا بديلاً" . وأنا هنا لن أقول إن إجابات هؤلاء المسئولين على أسئلتى كانت إجابة واحدة ، وإنما أعتقد أنى أخطئ إذا ما أكدت ، أن إجماع الآراء الصائبة بين هؤلاء المسئولين البريطانيين إنما تتعارض مع فكرة هذا الخط الحديدى ، يقول هؤلاء المسئولون : " إن طريق الفرات سيكون عديم الفائدة لنا تمامًا . وأنا أؤكد ، أن البريد سينقل عن طريق هذا الخط ، وسوف تصلنا رسائلنا من إنجلترا مختصرين من زمن وصولها ثلاثة أو أربعة أيام ؛ لكن ، من الناحية السياسية ، يجب أن نعرف أن مسألة البريد هذه هى فى الوقت الحالى أقل مما كانت عليه فى الماضى . فى أيامنا هذه ، نجد أن الأعمال الرسمية كلها ، التى لها أهمية حقيقية وفعلية ، إنما يجرى إنجازها بواسطة التلغراف ، وبعد أن يصلنا البريد بعد ذلك ، تكون أهميته قد انتهت وولت . هذا البريد لا أهمية له فى سملا Simla أو كلكتا Calcutta سواء استغرق وصوله ثلاثة أسابيع أو أسبوعين عن طريق البر . صحيح أن التجارة ستفيد إلى حد ما من هذا

الموضوع ، أما الحكومة فستكون فائدتها أقل من ذلك بكثير . فيما يتعلق بنقل الجنود عن طريق البر ، فتلك مسألة لا اعتراض عليها ، ما دام طريق السويس مفتوحًا ؛ أما إذا عجزت إنجلترا عن الإبقاء على طريق السويس مفتوحًا ، فالأفضل لها التخلى عن الهند على الفور . ولن يجرؤ أى من الوزراء فى زمن الحرب أن يتصرف تصرفا طائشًا ويرسل القوات بطريق البر معرضًا إياها لأخطار الإصابة بالكوليرا أو الإرهاق الشديد ، وهو فى وسعه بل وبإمكانه إرسال هذه القوات على ظهور السفن من بليموث ثم إنزالها فى بومباى الهند بعد ذلك . "تساءلت : " ألن يحدث ذلك حتى فى حال وقوع تمرد جديد ؟ " ، لن يحدث ذلك فى حال التمرد ، الناس فى إنجلترا ليست لديهم فكره عن مغزى رحلة يبلغ طولها حوالى ألف ميل فى بلاد صحراوية . هذا الخط لن يسافر عليه أى أحد طول ستة أشهر من كل عام ، اللهم إلا إذا كان ذلك المسافر واحداً من العسكريين المرخص لهم بالقيام بإجازة رسمية . هذا يحتم علينا ألا نأخذ أو نصطحب معنا زوجاتنا وأطفالنا إلى هذه الأماكن فى أى وقت من الأوقات . يزاد على ذلك أن المتاعب الإضافية الناجمة عن زيادة التكلفة هى التى منعت الكثيرين منا الاستفادة من خط برنديزى Brindisi ، الذى يوفر لنا أسبوعًا ويجنبنا خليج بسكاى ؛ وعليه يتحتم علينا عدم مواجهة منطقة الخليج الفارسى من أجل عيون أربعة أيام . والمعروف أن الخليج الفارسى أشد حرارة من البحر الأحمر . أخيراً ، وفيما يتصل بالأهمية الاستراتيجية لكل من منطقتى دجلة والفرات للهند ، لقد توصلت إلى أن هاتين المنطقتين ، فى نظر أولئك الذين يحبذون الغزو ويتحمسون له ، بعيدتان تماماً عن الخط الذى نسير عليه ولمدة سنوات كثيرة قادمة . وأبسط الناس تفكيراً لا يمكن أن يصدق أن جيشًا حديثًا يمكن له القيام بمسيرة أو التنقل عبر أى ممر من ممرات آسيا الصغرى ، أو حتى عبر أى وادٍ من وديان نهر الفرات ليصل بعد ذلك إلى الهند .

يجب أن نسقط من حساباتنا أن الهند بحاجة إلى خط حديدى من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج الفارسى . الميزة السياسية ، لمثل هذا الخط ، إن قدر أن تكون له مزايا ، ستكون لصالح تركيا وحدها ، أو لصالح أية قوة تكون لها السلطة والسيطرة على كل من أرمينيا وكردستان .

فيما يتصل بالجانب التجارى ، أرى أن مشروع خط حديد الفرات مشروع مضلل. ذلك أن التكلفة الزائدة هى وأخطار النقل ستكون حاجزا أو عائقا أمام استخدام هذا الخط . معروف أن وادى الفرات ووادى دجلة شهيران بأنهما منطقتان زراعيتان ، وأنهما تنتظران أيادى النازحين لكى تعودا إلى ما كانتا عليه فى العصور الخالية والعصور الوسيطة . هناك جدل يقول إذا كان وادى الفرات ، فى القرن الثانى عشر ، يتفاخر بمدن من قبيل الرقة ، وقرقيزيا Karkesia ، وباليس Balis ، فإن مثل هذه المدن يمكن إعادتها مرة ثانية ، وأن خطًا حديديًا يمتد من هذه المنطقة إلى بغداد ، سوف يؤدى بالتأكيد إلى إحياء الثروة القديمة هى فى الأصل ثرية وغنية بحكم طبيعتها. لكن هذا الجدل سرعان ما يتلاشى أمام الحقائق الواقعية .

أولاً : معروف أن وادى نهر الفرات ووادى نهر دجلة ليسا ولم يكونا غنيين من الناحية الزراعية . ونحن عندما نقارن هذين الواديين باعتبارهما من مناطق زراعة القمح ، بالمناطق الجبلية الواقعة إلى الشمال منهما ، أو بشمالى سوريا ، أو جبال طوروس ، أو حتى كردستان ، نجد أن المقارنة لا تكون فى صفهما . هذان الواديان يقعان خارج نطاق منطقة أمطار الشتاء المنتظمة ، التى تتعلق بالتلال ، الأمر الذى يجعل هذين الواديين يعتمدان على الرى لزيادة خصوبة الأرض . فى أحسن الأحوال ، نجد أن وادى الفرات ووادى دجلة ، لو قدر لهما أن يمر بهما خط حديدى ، فسوف يكونان مجرد شريطين صغيرين من الأرض الجيدة التى تحيط بها الصحراء الجرداء ، وغير قادرة على التوسع الجانبى أو النمو . هذان الواديان معزولان ولم يعودا يقعان على طريق التجارة . هذان الواديان فى الوقت الراهن ليس منهما مكان مهم ، اللهم باستثناء أضرحة الحج فى كربلاء وفى مشهد على ، وفى مدينة بغداد القديمة ؛ كما أن هذين الواديين لا أهميه لهما فى القسم الأكبر منهما ، باستثناء قلة قليلة من القرى التى تعتمد فى معيشتها على نخيل التمر . يزاد على ذلك أن وادى دجلة ووادى الفرات ، معرضان لنزوات أنهارهما ، التى تدمر نصف هذين الواديين فى وقت الفيضان . نهر الفرات على سبيل المثال ، يمتد مسافة ١٥٠ ميلاً بلا أية أحزمة من الغرين من أى نوع

كان ، عبر صحراء طاردة ، فى حين يضيع نهر الفرات فى مناطقه السفلى فى مستنقعات لا نفع منها . نهر دجلة من الموصل إلى بغداد ، ليس فيه سوى ثلاث قرى صغيرة ، ومن بغداد إلى البصرة ، لا يوجد سوى ست قرى بسيطة الحال . بلاد المنتفق على الجزء المنخفض من وادى الفرات ، وكذلك الجزيرة المحصورة داخل الترعة الهندية ، هما المنطقتان المهمتان من مناطق زراعة القمح الموجودة حاليًا .

ثانيًا : سهل العراق الكبير أو بالأحرى بابل القديمة ، ليس مزروعا ، كما أن القسم الأكبر منه غير صالح للزراعة . قسم كبير من هذا السهل ، تفيض عليه الأنهار ، الأمر الذى حوله إلى مستنقع ، فى حين تعد بقية السهل أرضًا جرداء أشد قحولة من الصحراء نفسها . يبدو أن ماء نهر دجلة يحتوى على ملح البارود على شكل محلول ، كما أن السهل الذى يلى بغداد ، فى المنطقة المجاورة للنهر ، تغطى رواسب ملح البارود القسم الأكبر منه ، وهذا ناتج عن الإفراط فى الرى فى الزمن القديم ، والأرض تبدو منهكة ومجهدة على نحو من الأنحاء . يزاد على ذلك ، أنى أرى أنه منذ أيام التعرية فى زمن أرمينيا القديمة ، وهو الزمن الذى بدأ منه النهران ، بدأت فيضانات هذين النهرين تصطبغ بصبغة المفاجأة ، كما أصبح من الصعب أيضًا حساب مقدار المياه فى هذين النهرين ، يضاف إلى ذلك أن أعمال الرى الشاسعة من نهر الفرات ، والتى يتعين الوفاء بها قبل أن يستعيد سهل العراق خصوبته التى كان عليها من قبل ، هذه الأعمال نفسها معرضة للفيضانات الجارفة والجفاف المفرط .

كانت الثروة الزراعية لبابل مجرد شىء اصطناعى ، يعتمد على منظومة رى عملاقة ، لا مثيل لها بين المنظومات السائدة حاليًا فى بعض أنحاء العالم . لكن متى بدأت أعمال الرى هذه ، فذلك أمر لا يعرفه أحد من الناس ؛ لكن هذه المنظومة لابد أن تكون قد بدأت فى زمن كانت آسيا فيه كثيفة السكان ، الأمر الذى أدى إلى رخص الأيدى العاملة . واقع الأمر ، أننا على يقين من أن السُّخرة والعمل الإجبارى هما اللذان أديا إلى تنفيذ هذه الأعمال ، الكافية لاستنزاف أيه خزينة فى دفع الأجور . هذا العمل يصعب القيام به مرة ثانية . والمسألة الآن ليست بالأمر الهين نظرًا لعدم وجود

دول محتلة أو أسيرة إن صح التعبير ؛ هذه هى الهند ، على سبيل المثال ، بعدد سكانها الكبير ، وثروتها الكبيرة نسبيًا ، تنوء تحت وطأة الحمل الكبير المتمثل فى أعمال الرى ؛ زد على ذلك ، أن سكان العراق البائسين لا يمكن أن نهيب بهم أن يستعدوا ويتحملوا ذلك الحمل الكبير . ونحن أيضًا على الرغم من معرفتنا الهندسية كلها ، نعرف أيضًا أن الأمر ينطوى على بعض احتمالات الفشل ؛ ذلك أن نهرى الفرات ودجلة نهران لا يمكن الاستهانة بهما ؛ وهذا هو ما كلف مدحت باشا الكثير من الأموال . وأنا أرجح تمامًا أنه فى زمن العظمة البابلية ، كان فيضان هذين النهرين أكثر انتظامًا عما هو عليه الآن، وأقل كوارث من حيث الجفاف عما هو عليه الآن أيضًا . سبق أن قلت : إن التعرية التى أصابت أرمينيا ، هى السبب فى الدمار الذى حاق بسهل العراق . والمؤكد فى كل الأحوال ، أن الطاقات البشرية الموجودة حاليًا ، مطلوب منها حماية أماكنها وليس القيام بهزائم أخرى للنهر . هذه هى الأجزاء السفلى من بلاد الرافدين ، تتعرض وأنا أكتب هذه المذكرة ، لمجاعة بسبب الجفاف وانخفاض المنسوب الذى طرأ على نهر دجلة ، والمعروف أنه لا يمكن زراعة قيراط واحد من القمح فى حال غياب فيضان هذا النهر . فى العام الماضى كانت الأيادى البشرية كلها تعمل فى إقامة السدود على الفرات . هذه الأمور كلها يجب وضعها فى الاعتبار .

ثالثًا : نحن فى معالجتنا أو تناولنا لمسألة المواصلات فى وادى نهر الفرات يغيب عن بالنا تغير ظروف الوادى نفسه ، كما يغيب عنا أيضًا تغير ظروف العالم الآسيوى المجاور لهذا الوادى .

نحن إن أردنا فهم الوضع الحالى فى بلاد الرافدين والأراضى المجاورة لها ، تعيَّن علينا معرفة تاريخ الدمار الذى أصاب هذه المناطق . فى زمن روما القديمة لم تكن شواطئ البحر المتوسط وحدها، هى والشواطئ الأفريقية والأوربية، بل وشواطئ غرب آسيا المناطق الوحيدة التى تشكل إمبراطورية كثيفة السكان . يزاد على ذلك أن الأراضى غير الخاضعة للحكم الرومانى كانت هى الأخرى عامرة بالمدن الكبرى ، بدءًا من أرمينيا ومرورًا بهضبة آسيا الوسطى ، وانتهاءً بحافة حدود الصين . استولى

الناس على الأراضى فى كل مكان ، وبخاصة الأماكن ذات القيمة ، فى الوقت الذى جرى فيه دفع الفائض من السكان بصورة مستمرة ، إلى الأماكن الفقيرة ، بسبب الصراع من أجل الحياة وعلى لقمة العيش ، الأمر الذى أسفر عن بقاء جزء يسير جداً من العالم القديم غير مأهول بالسكان .

ليس من الغرابة فى شىء عندئذ ، أن نرى الناس يعضون بنواجذهم على حيز العمل فى واديى دجلة والفرات فى الزمن القديم ، وأن نرى فى تواريخ لاحقة غزو مناطق قاحلة من الصحراء بسبب الجدب وضمها إلى الأراضى المستخدمة فى إنتاج الغذاء . فى الوقت الذى كانت فيه مملكة بابل ، هى والممالك التى جاءت بعدها ، تحافظ على خصبها ونمائها ، كان هذان الواديان يقعان على الطريق الذى يربط بينهما وبين آسيا الصغرى. فى القرن الثانى عشر اكتشف بنيامين Benyanine التيوديلى Tudlela، ذلك اليهودى الإسبانى ، مدنًا عديدة كثيرة كانت لا تزال زاهرة فى الأجزاء العليا من بلاد الرافدين . كانت تدمر فى ذلك الزمان ، وما تزال مدينه تجارية ، وكان من بين سكانها ألفا نسمة من اليهود . يذكر بنيامين التيوديلى أن هناك خمسة بلدان فى الجزء العلوى من وادى الفرات ، كما يذكر أيضًا مدينتين أو ثلاثًا فى وادى نهر دجلة . ومع ذلك ، يجب ألا نسلم ولو للحظة واحدة أن تلك المدن مدينة بثروتها إلى الزراعة إلا فى جزء يسير جداً . وتدمر هى والهدَّر ، وهما أهم المدن كلها ، لم يكن فيهما من الزراعة سوى مساحات ضئيلة جداً ، كانت ملحقة عليها ، فى حين كانت المدن الواقعة على الأنهار ، وعلى الرغم من استفادتها تمامًا من الوديان الغرينية ، فقد كانت تجارية فى المقام الأول . زد على ذلك أن الطريق المعتاد بين حلب وبغداد كان يمر فى ذلك الوقت عبر وادى الفرات إلى أن يصل قرقيزيه (الدير ؟) ، ومنها يعبر بلاد الرافدين إلى الهدَّر ، ليتصل بنهر دجلة فى مدينة تكريت . حول هذا الخط كانت توجد المدن على بعد مسافات ، شأنها فى ذلك شأن مراكز البريد التى اعتدنا أن نراها على الطرق الرئيسية فى بلادنا ، والسبب نفسه الذى أقيمت من أجله هذه المراكز . وقد ماتت هذه المدن مع موت مراكز البريد من ناحية ، ومع تحول المرور عنها إلى أماكن أخرى .

تدمر هي والهدَّر ، (ومن باب الاستطراد في استعادة المراكز البريدية) لم يكن فيهما أقفال ، ولذلك كانتا أول مدينتين تختفيان من بين المدن ؛ ثم بدأت تختفي بعد ذلك المدن النهرية واحدة بعد الأخرى التي قاومت وناضلت بفضل حقولها ، ولكنها ماتت أيضًا في نهاية المطاف. في القرن الثالث عشر، بل حتى القرن السادس عشر، انتقلت ويلات الحروب المغولية والفتوحات العثمانية إلى سائر آسيا ، واجتاحت المناطق المحيطة ببلاد الرافدين الخالية من السكان . وجرى في ذلك الوقت تدمير غرب آسيا بكامله ؛ وكانت أولى النتائج المترتبة على ذلك تتمثل في التخلي عن المستوطنات الخارجية أو بالأحرى الحدودية أو النائية ، التي كانت قد نشأت بسبب الازدحام السكاني في الأماكن الأخرى. جرى التخلي عن واديي دجلة والفرات بصورة متدرجة ، ولم يحتفظ الناس إلا بالمناطق الخصبة في كل من أرمينيا Armenia ، وكردستان Kurdistan ، وسوريا . أما الحكم العثماني السيء فكان السبب في التخلي عن بقية المناطق ؛ والآن ، وفي ظل الظروف الحالية لا يوجد فائض من السكان في اتجاه الشرق إلا في الصين ، وهذا الفائض هو الذي يسد هذا العجز في السكان . وإلى أن تمتلئ بلاد فارس هي وأرمينيا بالسكان ، سيكون من العبث توقع اتجاه النازحين والمهاجرين صوب تلك الأرض الجرداء ، أو خراب نسبي في بلاد الرافدين وعلى ضفاف الأنهار . قد تستوعب أو تمتص روسيا آسيا الصغرى في يوم من الأيام مرة ثانية ، وتصبح كثيفة السكان من جديد ، لكن بلاد الرافدين يتعين عليها الانتظار إلى أن يحدث ذلك .

على الجانب الآخر ، ليس من المرجح أو حتى المحتمل أن تقوم أوروبا بإرسال مهاجرين إلى ضفتي نهر الفرات . يزاد على ذلك أن وجود هذه المساحات في الأراضي الجيدة على الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط وفي سوريا ، والتي لم يجر شغلها بعد ، هو الذي يغري الزارعين ويقنعهم بعدم الذهاب إلى الأراضي الضعيفة في البلاد البعيدة . أهم من ذلك أن مناخ بلاد الرافدين لا يناسب الأوروبيين الشماليين ، في حين يجد الإيطاليون هم والمالطيون (وهما الدولتان الجنوبيتان اللتان فيهما فائض من

السكان) أن هذه المناطق قريبة جداً من بلادهم . ومن الغباء أن نتحدث هنا عن نازحين أو مهاجرين من الهند أو الصين . الهنود والصينيون لا يهاجرون إلا فى ظل أجور عالية ، فى بلاد تقدر الأيدى العاملة حق قدرها ، وفيها أيضًا رأس المال اللازم لاستخدام هذه الأيدى العاملة . هذا يعنى أن الهنود والصينيين لا يمكن أن يهاجروا بحثًا عن الأرض .

رابعًا : على الرغم من أن جنوب غرب بلاد فارس ، الذى تمر خلاله الأربعمائة ميل الأخيرة من الخط الحديدى الواصل إلى بوشهر ، يمكن أن يستفيد من ذلك الخط ، فإن هذه المنطقة تعانى من الأسباب الطبيعية نفسها التى دمرت بابل ، يزاد على ذلك أن الظروف السائدة فى الجنوب الغربى حاليًا ، وبخاصة ما يتعلق منها بالسكان والإنتاج ، والثروة ليست أوفر حظًا من الظروف السائدة فى وادى دجلة والفرات . الحكومة الفارسية التى تعالج ذلك الذى نشكو نحن منه مر الشكوى فى تركيا ، معالجة هزلية وساخرة ، نجحت هى نفسها فى تخفيض إنتاج واحدة من المناطق الغنية على مستوى آسيا ، إلى درجة الصفر . هذا الخط الحديدى سوف يمر عبر بلاد غير مأهولة فى الوقت الراهن من القبائل الجائلة التى لديها ثروة رعوية ، لكن يستثنى من ذلك تلك الرقعة من الأرض المنزرعة التى تقع بين درفول وشستار ، وكذلك الرقعة الواقعة بين ديلام وبوشاير . السياسة التى تتبعها الحكومة الفارسية فى التعامل مع منطقة عربستان (أى المنطقة التى يعيش فيها المواطنون الذين من أصل عربى) ترمى إلى خلخلة سكان هذه المنطقة ، باعتبار أن تلك هى الوسيلة المثلى لحكم هذه المنطقة ، وقد ثبت نجاح هذه السياسة فعلاً .

وأنا مازلت أرى أن الخط الحديدى إذا ما سار محاذيًا لحافة تلال بختيارى ، سوف تتاح له فرصة جذب كثير من السكان إليه ، وذلك على العكس من الخط الحديدى الذى يمر بكل من وادى دجلة ووادى الفرات . التربة فى المنطقة المقترحة للخط شديدة الخصوبة ، إضافة إلى أن نسبة سقوط أمطار الشتاء تفى بالأغراض الزراعية . والزراعة حيثما وجدت فى هذه المنطقة تعود على صاحبها بربح وفير ،

إضافه إلى أن التربة لم يجر إرهاقها أو استنفاد عافيتها ، مثلما هو حادث فى السهول . هذا يعنى أن الخط الحديدى سوف يخدم المناطق المأهولة بالسكان فى كل من شيرازد ولوزستان ؛ وبذلك تصبح من جديد كلٌ من بيبهان ، وشستار ، ودزفول مخازن بل ومستودعات للثروة فى الداخل . يزاد على ذلك ، أن الأمن الذى يترتب على وجود خط السكك الحديدية ، سوف يزيد من وصول النازحين إلى منطقة ذلك الخط بصورة متدرجة ، ومن هنا يمكن أن نتوقع استصلاح أراضى هذه المنطقة خلال سنوات قلائل ، نظراً لأن الأرض فى هذه المنطقة تستحق ذلك الاستصلاح بالفعل ، ومع ذلك تظل الآمال المرتقبة بعيدة المنال .

على كل حال ، أود أن أقول : إن الحسابات كلها الخاصة بهذا الخط الحديدى يجب أن تجرى مع أخذ الاعتبارات القائمة فى الحسبان . قد يقال : إن السكان الحاليين والإنتاج الحالى يكفيان لدعم الخط الحديدى ، (وأنا شخصياً أشك فى ذلك) ، لكن المستثمرين يتعين عليهم الوثوق بالظروف القائمة بالفعل ولا شىء غيرها . وسبب ذلك أن المستقبل ينطوى على كثير من الأوهام لهؤلاء المستثمرين . ومن العبث هنا أن نورد حكايات وقصص تلك الخطوط الحديدية الأمريكية ، التى جرى تنفيذها ومدها إلى المناطق الخراب الجرداء ، والتى سرعان ما جمّعت حولها ، ومن ثم الثروة من خلال وجود هؤلاء السكان . فى آسيا لا يوجد فائض من السكان الذين يمكن جذبهم إلى هذا الخط الحديدى . يزاد على ذلك أن نظام الحكم الفاسد الذى لا يمكن أن يصلحه الخط الحديدى ، وإلى أن يجرى تغيير هذه الحكومات الفاسدة ، يصبح الحديث عن إحداث تغيرات أخرى نوعاً من العبث . معروف أن الخطوط الحديدية فى كل من أوروبا وأمريكا تخدم مصالح الناس . أما فى تركيا أو فى بلاد فارس فإن هذه الخطوط الحديدية سوف تخدم مصالح الحكام وحدهم .

ومن باب جعل القراء يشاركون فى الحكم على الواقع الفعلى ، للأراضى الواقعة بين البحر المتوسط والخليج الفارسى ، قمت بجدولة الأراضى المنزرعة والأراضى غير

المنزرعة ، وكذلك المراعى والأراضى الصحراوية ، المتوفرة والممنوحة للخطوط المختلفة المقترحة للخط الحديدى . وقد جاءت هذه الأراضى على النحو التالى :

١- خط تدمر ، ٥٥٥ ميلاً	ميلاً
من طرابلس إلى حمص ، زراعة جزئية	٧٠
من تدمر ، صحراء رعوية	١٢٠
من تدمر إلى هيت ، صحراء غير مأهولة	٢٣٠
من هيت إلى الصقلاوية ، زراعة جزئية	٦٥
من الصقلاوية إلى بغداد ، سهل غرينى غير مزروع ، وغير مأهول فى القسم الأكبر منه	٥٠
إجمالى الأراضى جزئية الزراعة	١٣٥
إجمالى الصحارى والصحارى الرعوية	٤٢٠
الإجمالى الكلى	٥٥٥

هذا الخط أو بالأحرى هذا المسار ليس له ما يدعمه ويسانده سوى القصَر . ولن يمر هذا الخط سوى بمدينة كبيرة واحدة هى مدينة حمص ؛ ولن يخدم هذا الخط المنطقة الزراعية المهمة ، ولا يمكن له الاعتماد على النقل المحلى . يضاف إلى ذلك أن القسم الأكبر من هذا الخط خالٍ من الماء ، والوقود ، ومن السكان أيضًا ، كم أنه خالٍ أيضًا من إمكانية النمو والتطور . سوف يحتاج هذا الخط إلى الكثير من القطعات والكثير من الجسور (فوق الوديان) ، إضافة إلى أنه لن تكون له قيمة إستراتيجية كبيرة .

٢- خط وادى نهر الفرات ، ٦٢٥ ميلاً	ميلاً
من أبو كمال إلى هيت ، صحراء ، واحات نخيل	١٣٠
من هيت إلى الصقلاوية ، زراعات جزئية	٦٥
من الصقلاوية إلى بغداد ، سهل غرينى غير مزروع ، وغير مأهول بالسكان فى معظمه	٥٠
إجمالى المنزرع ، والمنزرع جزئيًا	٢٣٥
إجمالى الصحراوى أو الرعوى	٣٩٠
الإجمالى الكلى	٦٢٥

هذا الخط يمر عبر مدينة واحدة عدد سكانها حوالى ثمانين ألف نسمة هى مدينة حلب ، كما يمر أيضًا على بلدين صغيرين هما دير وعنة ، إضافة إلى مجموعة من القرى الصغيرة . يمكن لهذا الخط الاعتماد على نقل محلى قليل جدًا ؛ بلدة الدير قد تصدر قليلاً من القمح ، هذه المنطقة ليست منطقة أغنام اللهم باستثناء القسم الشمالى منها . هذه المنطقة عامرة بالماء والوقود ، لكن الماء والوقود هنا يمكن أن يتوقفا عند حد معين ، إذا ما قدر للخط الحديدى أن يمر خلال الصحراء الموجودة فى الأعلى ، بدلاً من المرور خلال الوادى. وفى الحالين سيكون إنشاء الخط الحديدى له تكاليفه الخاصة، نظرًا لأن النهر وفروعه وفيضاناته يسبب عقبة أو حاجزًا دائمًا فى الأسفل ؛ فى حين نجد أن الصحارى العلوية مكسرة بسبب وجود الوديان . ويصعب أن يعوض مثل هذا الخط التكاليف التى ستنفق على إنشائه . وتتمثل مزايا هذا الخط أو المسار فى أن هذا الخط إذا ما تواصل مده من الصقلاوية إلى البصرة ، فإن ذلك سوف يؤدى إلى توفير بعض الأميال ، أو قد يجرى مد خط فرعى إلى كربلاء . خط الفرات ستكون أهميته الإستراتيجية فى مصلحه تركيا ، لأنه سيشكل عائقًا أمام القبائل البدوية .

٣- خط بلاد الرافدين أو وادى دجلة ، ٧٠٠ ميل	ميلاً
من اللاذقية إلى حلب ، زراعة	١٠٠
من حلب إلى عُرفة ، زراعة	١٢٠
من عرفة إلى الموصل ، عن طريق مردين ، زراعي جزئى	٢٣٠
من الموصل إلى بغداد ، عن طريق الضفة اليمنى لنهر دجلة ، رعوى	٢٣٠
إجمالى الأراضى المزروعة جزئيًا	٤٧٠
إجمالى الأراضى الرعوية	٢٣٠
الإجمالى الكلى	٧٠٠

يمتاز هذا الخط بأنه يمر خلال منطقة ليست صحراوية مطلقًا . والماء يتوفر فيه فى كل أجزائه وسيحصل على الإمداد بالوقود فى وادى نهر دجلة . وسوف يخدم هذا الخط ، إلى أن يصل إلى الموصل ، أربع مدن كبيرة يقدر إجمالى عدد سكانها بحوالى مائتى ألف نسمة ، إضافة إلى عدد كبير من القرى ، وعدد من السكان الذين يمتهنون الزراعة بصورة مستمرة . سوف تستخدم محطات ذلك الخط مستودعات لمنتوجات كل من سوريا العليا ، وأرمينيا وكردستان من ناحية الشمال ، ومنتوجات منطقة رعوية زاهرة من الجنوب . ومع ذلك ، لن يوجد بعد الموصل سوى بلدتين صغيرتين ، هما سامراء وتكريت ، إضافة إلى قرية صغيرة جداً . العقبات الهندسية فى هذا الخط ، على الرغم من الأنهار الصغيرة الكثيرة ، إضافة إلى نهر الفرات نفسه (الذى يتعين على الخطوط الثلاثة أن تعبره) تعد أقل من الخطين الآخرين . الجزء العالى من بلاد الرافدين أكثر استواء من الصحراء السورية ، وهو فى الناحية الجنوبية منه تتقاطع فيه بعض الوديان الفرعية . هذا الخط له أهمية إستراتيجية قصوى عند تركيا ، وهو أفضل الطرق أو المسارات الثلاثة . ومع ذلك ، أرانى أقترح من الناحية التجارية خطًا أفضل يبدأ من الموصل ، ويمر بكركوك ومنها إلى بغداد . هذا الخط المقترح سوف

يواصل مروره عبر الأراضى المنزرعة ، وهذا الخط الذى أوصى به المهندس البولندى شديد الذكاء ، الذى قام بمسح له منذ سنوات قلائل .

بعد بغداد ستكون الخطوط الواصلة إلى الخليج الفارسى على النحو التالى :

من بغداد إلى الكويت ، عن طريق الضفة اليمنى لنهر الفرات ، ميل

ويخدم كربلاء ، ومشهد على ومنطقة سوق الشيخ ٤٠٠

أو من بغداد إلى البصرة ٤٠٠

هذا الخط يمكن أن يواصل امتداده من الصقلاوية ، موفراً بذلك حوالى خمسين ميلاً . وسوف يخدم هذا الخط منطقتين زراعيتين زاهرتين ، ويتعين أن يكون ماراً بحذاء حافة الصحراء حيث الأرض شبه مستوية . ميناء الكويت يعد ميناءً جيداً صالحاً لرسو السفن ، لكنه ليست له أهميه تجارية . والبصرة عبارة عن ميناء نهرى تتحكم فيه المستنقعات .

ميلاً

٢- من بغداد إلى المحمَّرة عن طريق الضفة اليسرى لنهر دجلة ٣٢٠

سيكون هذا الخط صعب الإنشاء ، نظراً لوجود المستنقعات ، وسوف يمر خلال منطقة غير مأهولة تقريباً بالسكان . لا ميزة لهذا الخط سوى قصره فقط .

ميلاً

٣- من بغداد إلى بوشهر ، بطول حافة تلال الحمرية إلى دزفول ، ٥٧٠

ثم يمر بعد ذلك بكل من شستار ورام هرمز وديلم

سيكون ذلك الخط واحداً من الخطوط المُكلِّفة ، أو بالأحرى باهظة التكاليف ، بسبب الأنهار الستة التى يتعين أن يعبرها ، لكنه ليست فيه مصاعب هندسية أخرى . ويتعين على هذا الخط الاقتراب من تلال الجمرين من الناحية السفلى ، تجنباً لأراضى

المستنقعات القريبة من النهر. هذا الخط غير مـأهول بالسكان إلى أن يصل إلى دزفول، على الرغم من أن التربة جيدة وجيدة الرى أيضًا . معروف أن دزفول وشستار مدينتان تجاريتان مهمتان ، وهما بمثابة الأسواق الرئيسية فى جنوبى بلاد فارس ؛ والمسافة فيما بينهما جيدة الزراعة . والمنطقة ما بعد شستار إلى ديلم لا يوجد فيها سوى مكان واحد مـأهول بالسكان هو رام هرمز (أو إن شئت فقل رامـوز) . توجد قله قليلة من القرى على طول شاطئ الخليج الفارسى إلى بوشهر ، لكن الزراعة قليلة جداً فى هذه المنطقة . هذا الخط أو المسار يمكن تقصيره عن طريق السير فى خط مستقيم بدءًا من الغُرْبى على نهر دجلة إلى ديلم ، لكن الخط كله سـوف يمر خـلال بلاد غـيـر مـأهولة بالسكان ، ومستنقعات فى أماكن أخرى . لكنى أفضل بصفة عامة خط دزفول – شستار ، لأن الآمال التجارية المعلقة عليه أكبر . هذه البلدان سوف توفر حركة ليست بالقليلة . بوشهر مدينة مهمة وستكون أفضل محطة وصول على الخط الحديدى فى منطقة الخليج الفارسي . وأنا لا أستطيع تزكية أى من هذه الخطوط الواقعة جنوبى بغداد بوصفها مبشرة بالخير .

ولفريد سكاون بلنت

ملحق الصور

صورة للسيد/ويلفريد سكاون بلنت
(بريشة الفنان مولونى)

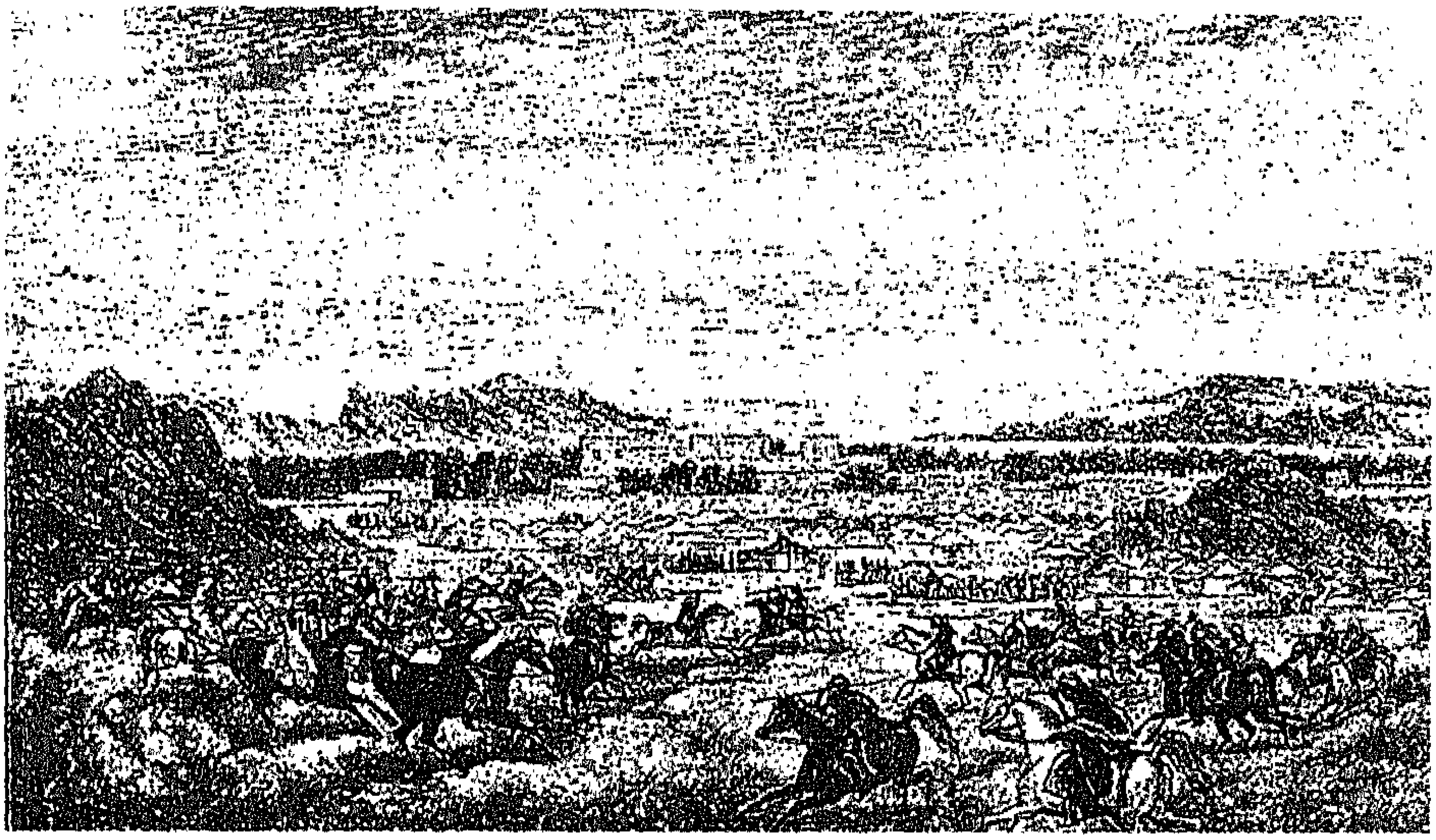

افراس ابن الرشيد

حمود ابن الرشيد

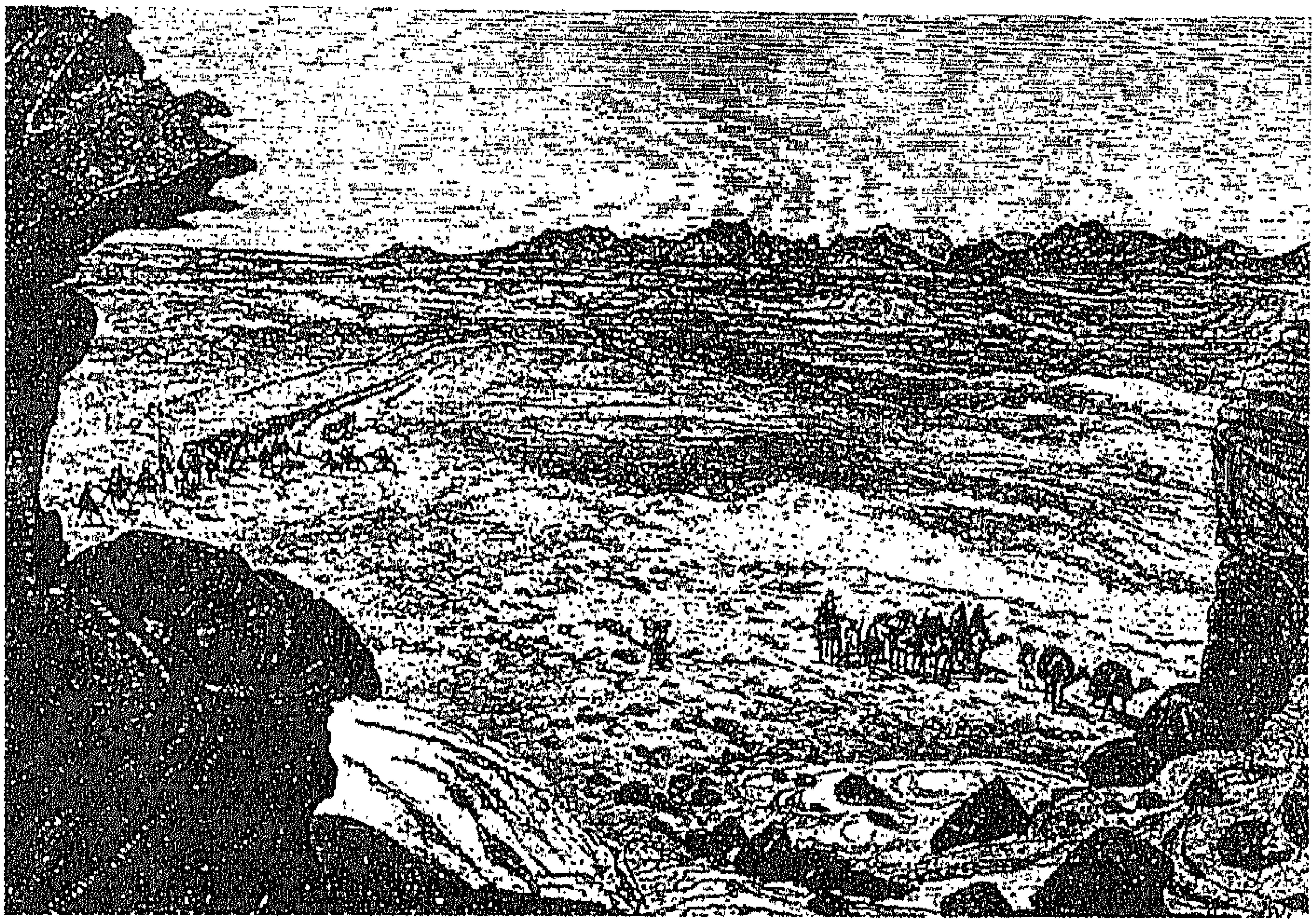

الحج يغادر حائل

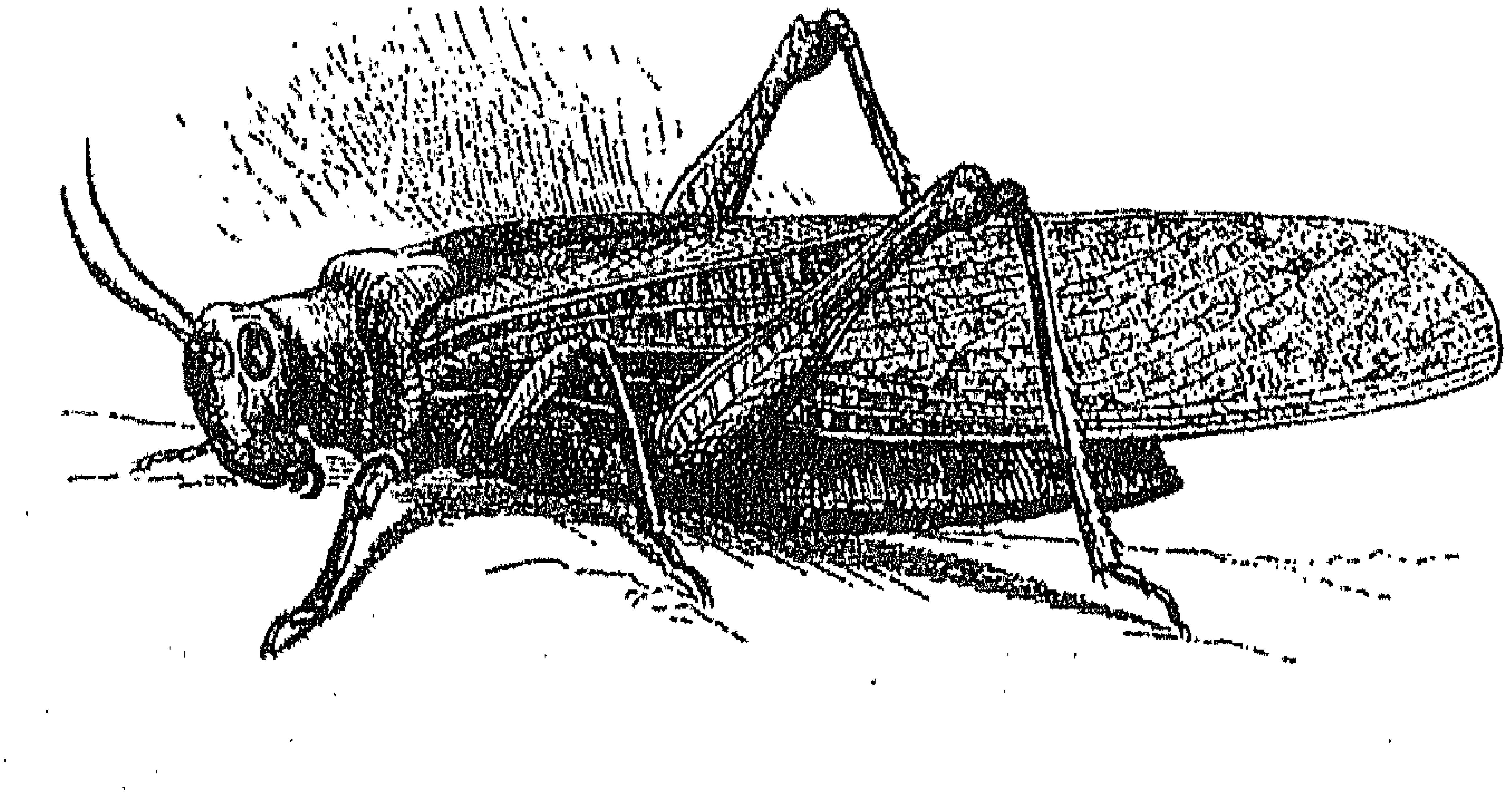

الجراد الذى يأكله اهل الجزيرة العربية

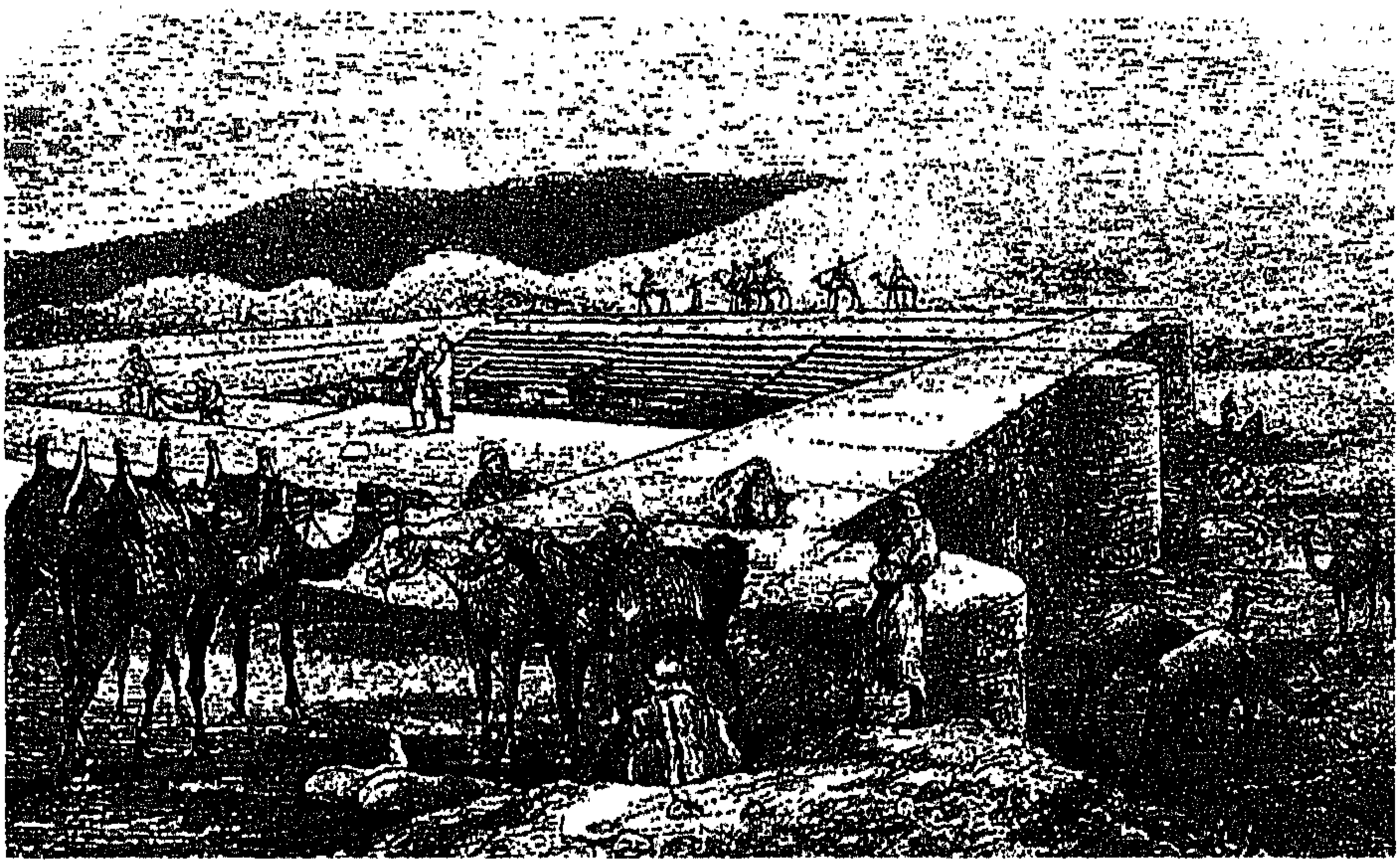

سبيل من اسبلة زبيدة

حجاج فارسيون فى مقدمة قافلة الحج

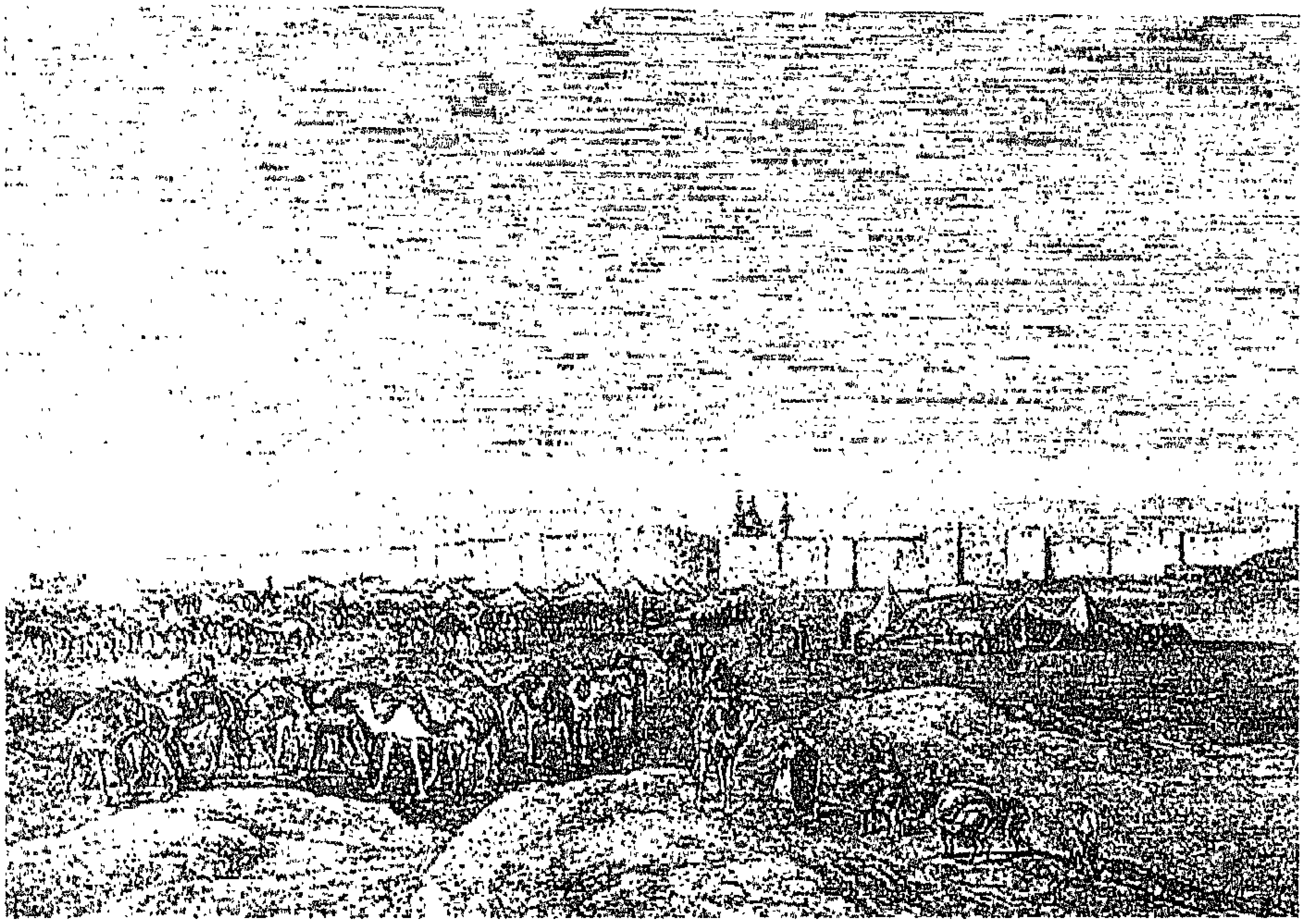

مشهد على

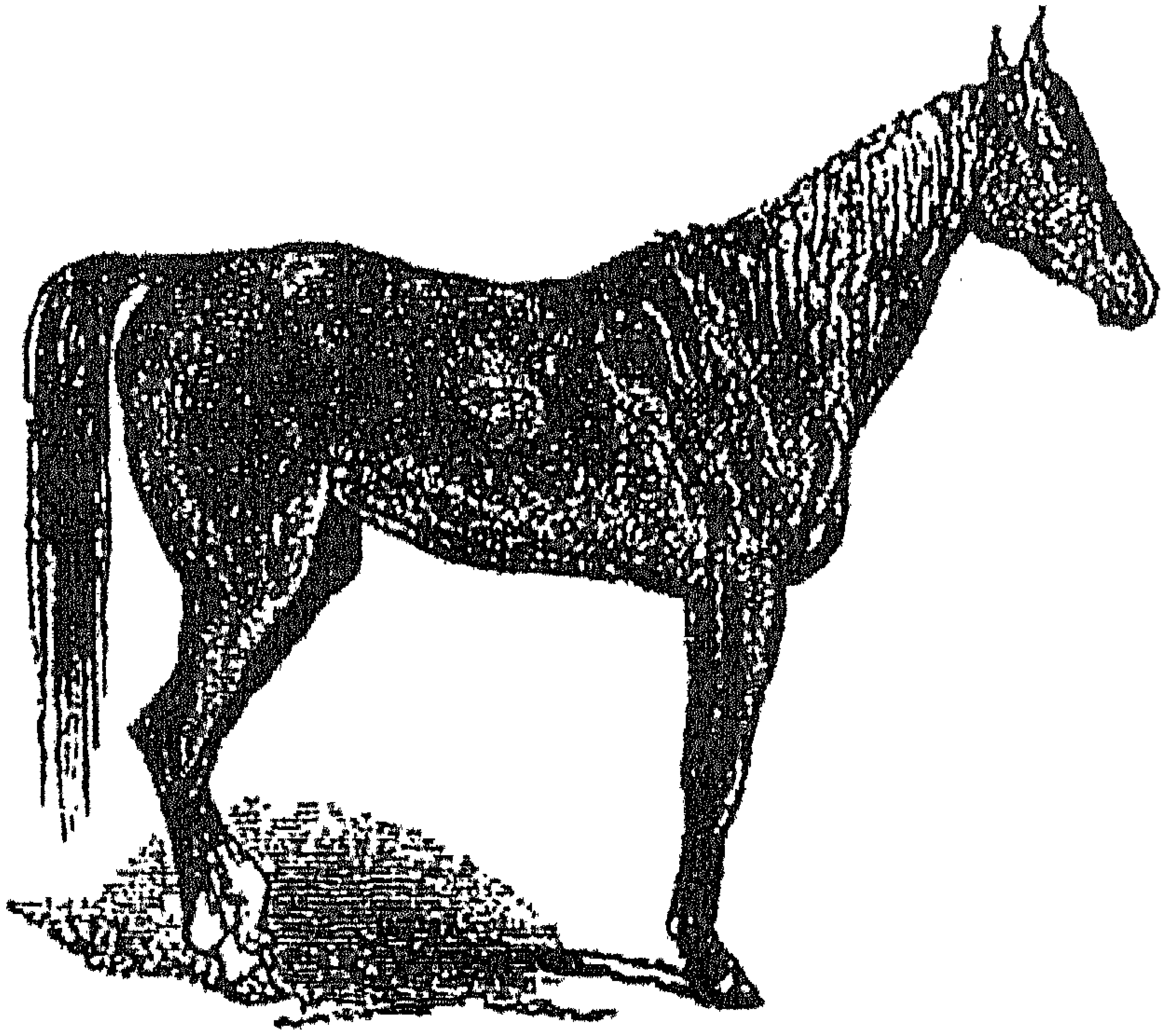

آريال الفرس الأصيلة

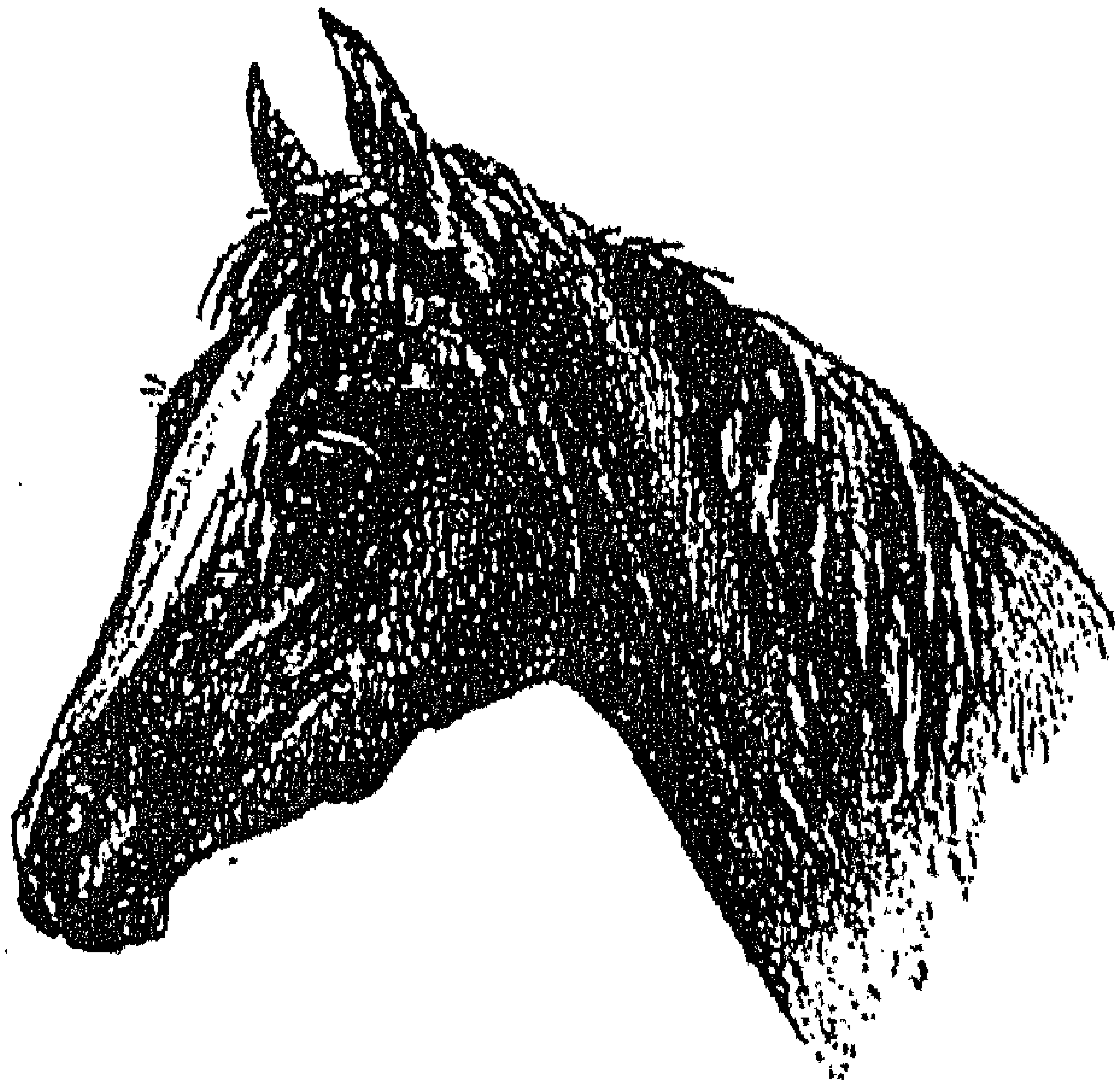

کانوره

الجمل شقران

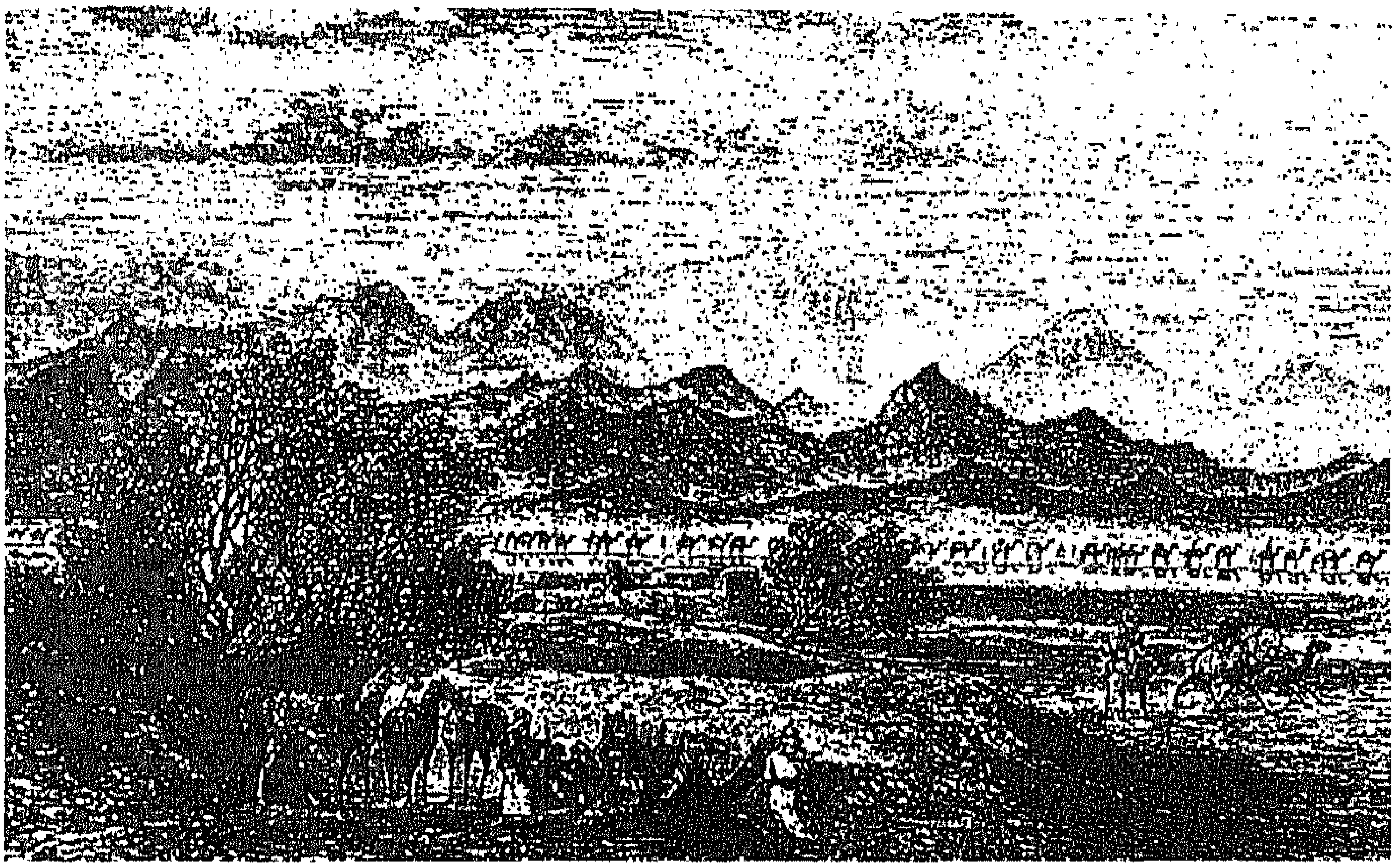

السراب فى: سلسلة الصخور الجرانيتية فى جبل الشمر

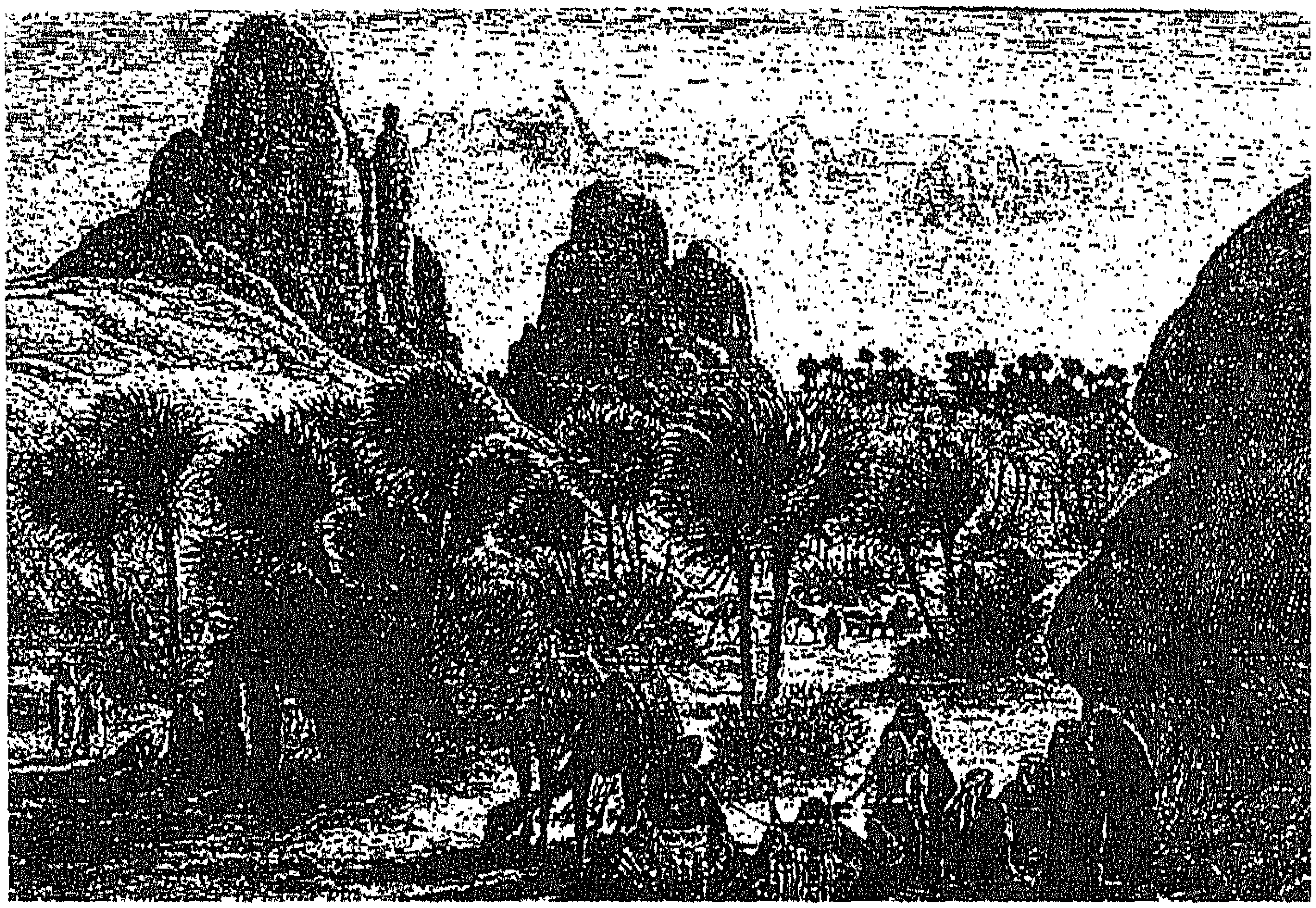

قلعة عقدة

النقوش والرسوم الصخرية فى جبل الشمر

المؤلفة فى سطور

آن إيزابلا نويل بلنت

ذاع صيتها تحت اسم آنابلا ، ولدت فى اليوم الثانى والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٨٣٧م ، وتوفيت فى شهر ديسمبر عام ١٩٧١م ، تزوجت من ولفريد بلنت الشاعر والكاتب الإنجليزى .

كانت تجيد عدة لغات وهى : الفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والعربية .

درست الرسم على يد جون رسكن ، وكانت تجيد عزف الكمان .

المترجم فى سطور

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ ، له أكثر من عشرين بحثًا ومقالاً نشرت فى المجلات والصحف العربية المحلية والدولية منها :

(أ) مقالات وأبحاث نشرت بمجلة الفيصل - الرياض - المملكة العربية السعودية.

١ - الدلالة بين النظرية والتطبيق .

٢ - لماذا تقصير الدلالة.

٣ - الفنولوجيا ومسار التركيب اللغوى .

٤ - علم اللغة الأحمر .

٥ - الرمز بين الواقع والابتداع .

٦ - الكون بين التفسير والتعسير .

٧ - التراجيديا من أين وإلى أين ؟

٨ - الشعر من منظور علم اللغة .

(ب) مقالات وأبحاث نشرت بمجلة الفيصل - الرياض - المملكة العربية السعودية.

١ - الكلمة ميكروسوم من الرعى البشرى يستجلى الكتاب المهرة كواقعة .

٢- الترجمة الآلية العصرية والتطبيق .

٣ - مظهر التعصب اللغوى فى اللغة ، قضايا علم اللغة الراهنة فى أمريكا .

٤ - كلام فى الكلام والكلمات .

٥ - قامبيات جذور الوتر الأبيض والكفاح الأسود .

٦ - الاستخبارات بين الثبات والتغيير .

(ج) مقالات نشرتها المجلة العربية ، الرياض ، المملكة العربية السعودية.

١ - الفتحة ، والكسرة ، والضمة ، أساس فى لغات العالم ولغة الأطفال .

٢ - أدب الهويساس نيجيريا .

٣ - مساحة الأدب الأفريقى فى خريطة الأدب العالمى .

(د) مقالات نشرتها ، مجلة الهلال ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

١ - لورانس وسقوط الأسطورة .

٢ - فيلبى : قلب الجزيرة العربية .

(هـ) كتب مترجمة إلى العربية.

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية .

١- التفكيكية : النظرية والمحاربة ، تأليف كرستوفرنوريس ، دار المريخ ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

٢ - الشاعر الشكل ، تأليف جدسون جيروم دار المريخ .

٣- الإستراتيجية العربية والإسرائيلية وجهًا لوجه ، وراح المونح.

٤ - الأطفال والمخدرات دار المريخ .

(ب) كتب نشرتها دار آفاق الإبداع العالمية للنشر الرياض ، المملكة العربية السعودية .

١- الموظف المشاكس .

٢ - عمل الفريق الفعال .

(جـ) كتب نشرت ضمن كتاب الهلال ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

١- هارون الرشيد تأليف فيلبى .

٢- الكوكائين والمراهقين .

٣ - بنات مدمنى ومدمنات المسكرات .

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال .

١- حلم ليلة أفريقية .

(هـ) كتب مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ، جمهورية مصر العربية.

١- سبعة أنماط من الغموض ، تأليف وليم أميسون .

٢- وسط الجزيرة العربية وشرقها ، تأليف بالجريف (جزءان).

٣ - حركات التحرر الأفريقى ، تأليف ريتشارد جيسون .

٤ - إرادة الإنسان فى علاج الإدمان .

٥ - قلب الجزيرة العربية (جزءان).

٦ - ترحال فى صحراء الجزيرة العربية ، تأليف روتى .(جزءان)

٧ - سيرتى الذاتية ، تأليف أحمد بللو.

٨ - أحمد بللو تأليف : جون إن جارن .

٩- تفهم ذهنية مدمن المسكرات ، تأليف آرنولد لودنج.

١٠- كتاب المسرحية ، تأليف ريموند هاج.

١١- اختراق الجزيرة العربية ، تأليف داود جورج هوجارث .

روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

١- سكين واحد لكل رجل .

٢- نجوم حظر التجوال الجدد .

٣ - المهمة الاستوائية .

كتب مترجمة نشرت ضمن كتاب الجمهورية الذى يصدر عن دار التحرير للطباعة والنشر .

١- بلاد العرب ، داود جورج هوجارث .

٢- مغامرة فى الجزيرة العربية ، تأليف دوجلاس كروزرس.

المراجع فى سطور

رؤوف عباس حامد

أستاذ التاريخ الحديث كلية الآداب جامعة القاهرة .

له مؤلفات عديدة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر.

التصحيح اللغوى : هيـــــثم الحـــاج علـى

الإشــراف الفنـى : حـــــسن كـــــامـل

ذهب الزوجان آن وولفرد بلنت فى رحلة طويلة إلى الشرق، غلفت فى ظاهرها باهتمامات الرحالة الغربيين بالتعرف على عوالم جديدة، مع الهدف الاستعمارى الأصلى الذى تمثل فى دراسات جغرافية لإمكانية إنشاء خط سكك حديدية فى الجزيرة العربية والعراق، لكن آن بلنت بحسها الأدبى استطاعت أن تقدم أول وصف تفصيلى عرفه الغرب عن حياة البدو وبيئتهم اللتين سحرتاها، فقدمته بحياد ممزوج بالتعاطف لكن بعين غربية، فقدمت لنا رحلة لا تخلو من الإثارة والدهشة ركزت فيها على البيئة النجدية فى القرن التاسع عشر.

تصميم الغلاف / عادل شريف